سلسلة

وَلكن شيءٌ وَقَرَ في قلبه

1

لِلَّهِ وحْدَهُ

الإخلاص

مدارج

سلسلة

ولكن شيءٌ وَقَرَ في قلبه

لِلَّهِ وَحْدَهُ

الإخلاص

تأليف وتوزيع مدارج

إهداء

إليك، يا من تحب الله، وترجو رضاه، وتتمنى أن تكون أعمالك خالصةً له.

إليك، وأنت تحاول أن تصلح نيتك؛ في صلاةٍ تسأل الله قبولها، ومعروفٍ ترجو به ثوابه، ودعاءٍ تقول فيه: يا رب، أصلح قلبي.

نهديك هذا الكتاب بمحبة، سواء كنت في أول الطريق، أو مضت بك السنوات وأنت تجاهد نفسك. نحن وإياك نحتاج إلى عون الله، ونرجو أن يعفو عن تقصيرنا، ويعيننا على طاعته، ويرزقنا الصدق معه في السر والعلن.

وحين تدعو لنفسك بصلاح القلب، اذكرنا بدعوة؛ لنا ولوالدينا، ولكل من أعان على وصول هذه الصفحات إليك. سلِ الله أن يغفر لنا، ويصلح نياتنا، ويتقبّل أعمالنا.

نسأل الله أن ينفعك بما تقرأ، وأن يجعل لنا ولك قولًا صادقًا، وعملًا صالحًا، وقصدًا خالصًا له وحده.

هذا الكتاب وقفٌ لله تعالى

تأليف وتوزيع مدارج

المحتويات

الباب الأول: أن نعمل لله	.....	١٠
القلب والعمل	.....	١١
ما النية؟	.....	١٤
ما معنى الإخلاص؟	.....	١٧
أن تصدق فيما تريد	.....	٢١
على هدي النبي ﷺ	.....	٢٦
عبادة في حياتنا اليومية	.....	٣٠
نرجو الجنة ونخاف النار	.....	٣٤
صلاح القلب يظهر في العمل	.....	٣٧
الباب الثاني: الإخلاص في هدي القرآن	.....	٤١
يوسف: معاذ الله	.....	٤٢
إبراهيم: لرب العالمين	.....	٤٦
موسى: معروف عند الماء	.....	٥٠
امرأة عمران: فتقبل مني	.....	٥٣
لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا	.....	٥٧
لا أسألكم عليه أجرًا	.....	٦٠
ربنا تقبل منا	.....	٦٣
صدقة لا يفسدها المن	.....	٦٦
الباب الثالث: النية قبل العمل وبعده	.....	٧٠
الهجرة والقصد	.....	٧١
قبل أن تبدأ	.....	٧٤
حين يتغير قصدك	.....	٧٧
بعد أن ينتهي العمل	.....	٨١
حتى اللقمة	.....	٨٥
حبسهم العذر	.....	٩٠
حين تصدق الأمنية	.....	٩٤
الطاعة والمصلحة المباحة	.....	٩٧

الباب الرابع: أعمال حفظها الله لأصحابها	١٠٢
أصحاب الغار: بر الوالدين	١٠٣
أصحاب الغار: العفة	١٠٨
أصحاب الغار: أمانة الأجير	١١١
صدقة خفية ودمعة صادقة	١١٤
حين لا تقع الصدقة كما توقعت	١١٩
ضيف في بيت الأنصاري	١٢٣
أحب مال أبي طلحة	١٢٧
أبو بكر: يوم من الخير	١٣٢
الباب الخامس: ما يفسد الإخلاص	١٣٦
فقد قيل	١٣٧
حين نعمل ليرانا الناس	١٤١
حين نحب أن يسمعوا عنا	١٤٥
العجب بما فعلنا	١٤٩
لا تترك الطاعة خوفًا من الرياء	١٥٣
حين يأتيك ثناء لم تطلبه	١٥٧
حين ينصحك أحد	١٦١
حين ينجح غيرك	١٦٥
الباب السادس: الإخلاص في بيوتنا وأعمالنا	١٦٩
خيرك لأهلك	١٧٠
نربي أبناءنا لله	١٧٤
الأمانة في العمل	١٧٨
نعمل معًا	١٨٢
خير يجري على يد غيرك	١٨٦
قبل أن تنشر	١٩١
حقوق الناس لا تسقط	١٩٥
رحمة بمخلوق ضعيف	٢٠٠
الباب السابع: حين تخالف الطاعة رغبتنا	٢٠٤
ألا تحب أن يغفر الله لك؟	٢٠٥
الصدق مع التقصير	٢٠٨
عمر: عطاء يستمر	٢١٢

العدل مع من نكره	.....	٢١٦
الأمانة في البيع	.....	٢٢٠
شهادة لله حين يحضر الهوى	.....	٢٢٤
المنصب أمانة	.....	٢٢٨
لا تحكم على القلوب	.....	٢٣٢
الباب الثامن: نتعلم صدق العمل	.....	٢٣٦
بلال: عمل يرجو به الله	.....	٢٣٧
أويس: بر بعيد عن الشهرة	.....	٢٤١
ابن رجب: كيف نفهم النية	.....	٢٤٦
ابن تيمية: عبادة الله وطلب عونه	.....	٢٥١
ابن القيم: إخلاص وصدق	.....	٢٥٦
لا يحرمك الذنب من التوبة	.....	٢٦٠
الإخلاص ليس وسواسًا	.....	٢٦٤
عمل تخفيه وحق تؤديه	.....	٢٦٨
الباب التاسع: نجدد الإخلاص ما حيينا	.....	٢٧٣
اعرف ربك الذي تعبده	.....	٢٧٤
اسأل الله صلاح قلبك	.....	٢٧٨
ادع لأخيك ولا يعلم	.....	٢٨٣
محاسبة تعينك على العمل	.....	٢٨٨
نستغفر ونعود	.....	٢٩٢
قليل تدوم عليه	.....	٢٩٧
الإخلاص يصلح ما بعده	.....	٣٠٣
لله وحده	.....	٣٠٨
فصل عملي: تدريب الإخلاص في ثلاثين يومًا	.....	٣١٢

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، يعلم ما نخفي وما نعلن، ويسمع دعاءنا، ويقبل توبة من رجع إليه. نسأله أن يصلح قلوبنا وأعمالنا، ونصلّي ونسلّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تقضي وقتًا طويلًا في مساعدة إنسان، ثم تعود إلى بيتك تنتظر منه كلمة شكر. يفرحك الشكر إن جاء، ويؤلمك غيابه إن تأخر. وتقف للصلاة صادق الرغبة فيما عند الله، ثم تجد نفسك تحسّن بعض عملك حين تعلم أن أحدًا يراك. في هذه المواقف القريبة نتبين حاجتنا إلى الإخلاص؛ لا في الأعمال الكبيرة وحدها، بل في تفاصيل أيامنا أيضًا.

والإخلاص أن تعمل الطاعة لله، وتريد بها رضاه وثوابه. تصلّي لأن الله أمرك بالصلاة، وتتصدق ابتغاء وجهه، وتؤدي الأمانة طاعة له. لا تجعل مدح الناس هو الغرض الذي من أجله تتعبد، ولا تدع رضاهم يحملك على معصيته. وقد يكون عملك ظاهرًا يحتاج الناس إلى رؤيته، وقد يكون سرًّا بينك وبين ربك؛ والمهم أن يصلح قصدك، وأن يكون عملك مما يرضيه.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]. حياة كاملة يرجو فيها العبد رضا ربه: في عبادته، وبيته، وكسبه، وعلاقته

بالناس. لا يفصل بين صدقه في الدعاء وصدقه في البيع، ولا يطلب القبول بصدقة ثم يستهين بحق من يعمل عنده. إنما يريد أن يكون لله كما يحب الله.

وليس الطريق إلى الإخلاص أن نترك العمل كلما خفنا على نياتنا. نحن بشر؛ نفرح بالثناء، ونتأثر بالجفاء، ونتعب، ونخطئ. نحتاج أن نتعلم الفرق بين شعور يمر بنا وبين غرض نختاره ونعمل من أجله. فإن عرفنا من أنفسنا رياء دفعناه، وإن أعجبنا بما فعلنا تذكرنا فضل الله علينا، وإن أخطأنا تبنا. لا ندّعي الكمال، ولا نستسلم للنقص.

ولك من هذا الباب أعمال قريبة قد لا تنتبه إليها: إحسان إلى والديك لا تمنّ به عليهما، أو كلمة حق تقولها وإن لم توافق رغبتك، أو دعاء لأخيك لا يسمعه، أو مال ترده وقد قدرت على كتمانه. تبدأ بعمل صغير لا يعرفه الناس، ثم تتعلم منه أن تستمر في الخير حين لا يلتفت إليك أحد.

لا نعرف ما في قلوب الآخرين، ولا نستطيع أن نحكم لهم بقبول عمل أو بردّه. لكن كل واحد منا يستطيع أن يسأل نفسه: ماذا أردت بهذا؟ وهل فعلته كما يحب الله؟ ثم يصلح ما ظهر له، ويستعين بربه على ما يعجز عنه. ويعرض الكتاب أصل النية ومعنى الإخلاص، ثم يتتبع أثرهما في العبادة والعادة والمعاملة.

يا رب، أنت أعلم بنا من أنفسنا؛ فأصلح نياتنا، واغفر تقصيرنا، وأعنّا على طاعتك. لا تجعل حظنا من الخير أن يُذكر بين الناس، واجعل لنا منه عملًا ترضاه وتقبله. واجعل ما بقي من أعمارنا أقرب إلى رضاك، واجعل أعمالنا لك وحدك.

الباب ١

أن نعمل لله

نحرص حين نعمل على أن نتم ما بدأناه: نتعلم أحكام الصلاة لنؤديها على وجه صحيح، ونسأل عن المحتاج لنضع الصدقة في موضعها، ونراجع ما نقوله حتى لا نخطئ. ومع هذا كله يبقى سؤال لا يغني عنه إتقان العمل: لمن فعلناه؟

قد يصح العمل في صورته ولا يريد به صاحبه وجه الله، وقد تحسن النية ويقع الفعل على غير ما أذن به الله. لذلك نحتاج إلى الأمرين معًا: قصد صالح، وعمل صالح. نريد رضا الله، ونسلك إليه بما شرعه لنا.

وتبدأ هذه العناية من أنفسنا. لا نجعلها بابًا للحكم على الناس، ولا نؤخر بها الطاعة حتى نطمئن إلى كمال نياتنا. نتعلم، ونعمل، ونصحح، ونسأل الله القبول. بهذا الميزان يبدأ الباب: قلب يقصد الله، وعمل يتبع أمره، ومجاهدة لا تغلو ولا تغفل.

الفصل ١

القلب والعمل

قد يرى الناس سجودك، ويعرفون أنك دفعت مالًا لمحتاج، لكنهم لا يحيطون بما أردته ولا بما صنعت في الخفاء. صورة العمل تصل إلى أعينهم؛ أما ما في القلب فليس لهم. والله يعلم العمل والنية معًا.

قال رسول الله ﷺ:

> «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».[1]

جمع الحديث بين القلب والعمل. فحسن القصد لا يجعل الفعل المحرم طاعة، وصحة صورة العبادة لا تكفي إذا أريد بها ثناء الناس. نحتاج إلى قلب يبتغي وجه الله، وإلى عمل يوافق أمره.

وقد يمر بك موقف بسيط يكشف ما يحتاج إلى إصلاح. تشارك في إعانة أسرة، ثم يُشكر بعض من شاركوا ولا يذكر اسمك. يضيق صدرك. لا تتهم نفسك فورًا بأن عملك

1صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم 2564.

كله ضاع، ولا تهمل الشعور كأنك لا تراه. اسأل: هل سأمنع عن الأسرة ما أقدر عليه لأن اسمي لم يُذكر؟ وهل كنت سأفعل الخير لو عرفت أن لا أحد سيشكرني؟

إن ظهر لك تعلق بالثناء، فجاهد نفسك فيه. وإن نُسب عملك إلى غيرك، فاطلب تصحيح النسبة بحقها ومن غير تعدٍّ؛ فذلك شأن، وإخلاصك في نفع الأسرة شأن آخر. لا تجعل إصلاح أحدهما ذريعة لإهمال الآخر.

ليس المطلوب أن تلغي مشاعرك. تفرح بالكلمة الطيبة، وتتألم من الجفاء، ثم تختار ما يرضي الله: فلا تبالغ لتكسب مدحًا، ولا تمنع حقًّا انتقامًا، ولا تجعل نظرة الناس مقياسًا لقيمة العبادة. الإخلاص يهذب الاختيار بعد الشعور، ولا يشترط على الإنسان ألا يشعر.

ويظهر القصد في طريقة الإحسان أيضًا. من يرجو رضا الله في إعانة محتاج يحفظ كرامته، فلا يمنّ عليه ولا يكشف حاله ليُمدح. ليس السؤال فقط: لماذا بدأت؟ بل أيضًا: هل أديت العمل على وجه يحفظ حق من وصل إليه؟

ولا تمنح نفسك حكمًا شاملًا من موقف واحد. قد ترى في نفسك ضعفًا فتتوب وتصلح، وقد توفَّق إلى خير فتحمد الله ولا تغتر. لا تعرف سرائر الناس لتتهمهم، ولا تعرف قبول عملك لتزكي نفسك. انظر إلى ما بين يديك الآن: صلاة تؤديها، أو حق ترده، أو وعد تفي به، وأحسنه لله ما استطعت.

حين تقف للصلاة التالية، استحضر أنك تؤديها لله، ثم أقبل عليها. إن شرد قلبك فرده برفق، وإن عرض حب نظر الناس فادفعه، واسأل الله القبول. يبدأ إصلاح القلب من عبادة حاضرة وعمل صادق، لا من وصف تضعه لنفسك.

الفصل ٢

ما النية؟

تخرج من بيتك لزيارة مريض، ثم تلقى في الطريق صديقًا لم تكن تعرف أنه سيمر من هناك. الحركة التي يراك الناس بها واحدة، لكنك تعرف ما الذي قصدته حين خرجت. هذا القصد هو النية.

وفي صلاة الظهر تعرف أنك تريد أداء الصلاة، وفي إخراج الزكاة تعرف أنك تؤدي حقها. لا تحتاج إلى أن تبحث عن جملة تقولها في قلبك؛ القصد الذي حملك على الفعل هو النية. ثم يأتي سؤال الإخلاص: لمن تعمل الطاعة، وماذا ترجوه بها؟

قال رسول الله ﷺ:

> «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».[2]

2صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، حديث رقم 1.

يضع الحديث المقصد أمام القلب: قد تتشابه الأعمال في صورتها، ويختلف ما أراده أصحابها، والله يعلم ما نوى كل واحد منهم. ولا يعني ذلك أن كل مصلحة مباحة تفسد العبادة؛ فالإنسان يحب أهله، ويفرح بما يتعلم، وينتفع بكسب حلال. موضع المراجعة أن يعرف غرضه في الطاعة، وألا يجعل مدح الناس مقصدها.

قد تساعد طالبًا تحبه، وترجو له النجاح، وتبتغي الأجر من الله؛ وهذه معان يمكن أن تجتمع. ثم تلاحظ أنك تضيق إذا تعلم عند غيرك، أو تترك مساعدته إن لم يثن على أسلوبك. هنا لا تحتاج إلى اتهام عام لنفسك؛ انظر إلى القرار القريب: هل تريد أن يتعلم، أم تريد أن يبقى محتاجًا إليك؟

ولا تقِس نيتك بالكلام الذي تحسن قوله عنها. قد تقول: «أريد الخير»، ثم ترفض اقتراحًا نافعًا لأنه لم يصدر منك. اعترف بما ظهر لك، واستعن بالله على إصلاحه. ليس المطلوب أن تفضح نفسك للناس، بل أن تصدق معها بينك وبين ربك.

إذا اعتدت شراء حاجات البيت أو رعاية مريض، فقد يغيب عنك احتساب الأجر. لا تحزن على ما مضى ولا تزعم أن كل عادة سابقة كانت عبادة محتسبة؛ جدد قصدك فيما يأتي، وأدِّ الحق بإحسان. تستطيع أن تحب أهلك وتفرح براحتهم، وأن ترجو مع ذلك ثواب الله على ما تقوم به.

لكن حسن النية لا يبدل حكم الفعل. لا يصير أخذ مال الغير صدقةً مشروعة، ولا يصبح الكذب صدقًا لأن صاحبه أراد أن يحفظ صورته. نصلح القصد، ونسلك إليه طريقًا يرضي الله.

ولا تنتظر حتى تشعر بكمال الإخلاص قبل أن تؤدي واجبًا. قد تتعب من رعاية قريبك، ومع ذلك تقوم بحقه لله. اطلب العون، ونظم ما تستطيع، ولا تجعل التعب العابر دليلًا على فساد النية. وقد يكون تجديد القصد هادئًا: تفرح بأن الطالب استفاد من معلم آخر، فتدله عليه إذا كان أنفع له.

اسأل نفسك عند العمل: ماذا أريد الآن؟ فإذا قصدت رضا الله، فاعمل بما يرضيه واستعن به. وإذا ظهر لك غرض فاسد، فتب منه وأصلح ما تستطيع. نتعلم النية لنعبد الله على بصيرة، لا لنحوّل كل خاطر عابر إلى شك يوقفنا عن الخير.

الفصل ٣

ما معنى الإخلاص؟

الإخلاص أن تقصد الله بطاعتك، وتبتغي رضاه وثوابه، ولا تجعل لغيره نصيبًا من العبادة. تصلّي له، وتدعوه، وتتصدق ابتغاء وجهه. وقد يحسن الناس الظن بك بسبب هذه الأعمال، لكن ثناءهم ليس الغرض الذي من أجله تتعبد.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3]. وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5]. فالعبادة حق لله وحده. ليس الإخلاص فضلًا نتطوع به بعد أن نعبد، بل هو مما أمرنا الله به في عبادته.

وقد أمر الله نبيه ﷺ فقال: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 2]. يقرأ المسلم هذه الآية فيعرف أن عليه أن يعتني بقصده كما يعتني بعمله. لا يرضى لنفسه أن يحسن صورة الطاعة أمام الناس ثم يجعل مدحهم غايتها.

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه:

> «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».[3]

هذا وعيد يوقظ القلب من أن تتحول العبادة إلى وسيلة لطلب منزلة عند الناس. الله غني عن أعمالنا، ونحن المحتاجون إلى رحمته وقبوله؛ فلا تغرّنا صورة العمل الحسنة إذا كان القصد لغيره.

ولكي نفهم المعنى في حياتنا، انظر إلى صدقة تستطيع أن توصلها إلى محتاج. قد تبذلها لأنك ترجو رضا الله وترحم حاجة أخيك. وقد تبذلها لأن مجلسًا من الناس يراك، وتريد أن يذكروك بالكرم. يدك في الحالين تدفع المال، لكنك تعرف أن ما تريده في الأولى غير ما تريده في الثانية. هنا يبدأ سؤال الإخلاص.

ولا يعني ذلك أن كل صدقة معلنة رياء. قد يحتاج الناس إلى إعلان التبرعات، أو إلى قدوة تشجعهم، أو إلى معرفة ما وصل إلى مشروعهم من مال. كما أن إخفاء الصدقة لا يكفي وحده للحكم على النية؛ فقد يخفيها إنسان وهو يتمنى أن يعرف الناس أنه من أصحاب أعمال السر. الخفاء والظهور صورتان، والقصد أمر آخر.

---

3 **صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم 2985.**

وما أكثر ما نحتاج إلى هذا التفريق. ليس المخلص إنسانًا يهرب من كل مسؤولية يراه الناس فيها. قد يكون معلمًا بين طلابه، أو طبيبًا في عيادته، أو متطوعًا أمام المحتاجين. يحرص على أداء ما ينفعهم، ويسأل الله أن يكون عمله له. فلا يترك المكان النافع لأن الناس حاضرون، ولا يجعل حضورهم سببًا للعمل لغير الله.

كذلك لا يطلب منك الإخلاص أن تترك محبتك لأهلك وأصحابك، أو أن تتوقف عن شكر من أحسن إليك. هذه أمور لها موضعها المشروع. إنما لا تطيع محبوبًا في معصية الله، ولا تجعل رضاه أعظم عندك من رضا ربك، ولا تعبده بقلبك أو عملك. تحب الناس وتحسن إليهم، وتبقى عبادتك لله وحده.

قد يجد الإنسان راحة حين يفهم هذا. لم يعد مطلوبًا منه أن يراقب وجوه الناس في كل لحظة ليعرف هل رأوه أم لم يروه. المطلوب أن يعرف ما يريد هو، وأن يصلح ما يستطيع. فإن رأوه على خير حمد الله ولم يغتر، وإن لم يعلموا به لم يحتج إلى إخبارهم ليكتمل عنده معنى العمل.

وهذا لا يحدث بمجرد قرار سريع لا يعقبه جهد. قد يتكرر في النفس حب الثناء، وقد يضعف الإنسان أمامه. لكنه يستطيع أن يرجع. كلما عرف أنه بدأ يبالغ في وصف عمله، أمسك لسانه. وكلما علم أنه ترك نفعًا لمجرد غياب التقدير، راجع نفسه. ليست المجاهدة دعوى بأن العيب اختفى، بل عمل صادق على إزالته.

والإخلاص أوسع من الانشغال بالخوف من الرياء. فيه محبة لله، ورجاء فيما عنده، وشكر على نعمته، وحرص على القبول. حين تعرف أن الله يعلم إحسانك، لا تحتاج أن يعرفه كل أحد. وحين ترجو ثوابه، يصبح في قلبك ما يعينك على الاستمرار ولو لم تجد كلمة شكر.

اجعل لك من هذا المعنى نصيبًا في عمل محدد. لا تبدأ بالسؤال عن حياتك كلها مرة واحدة. ابدأ بعبادة تؤديها اليوم، واستحضر أنك تريد بها وجه الله. أحسن أداءها، وادفع ما تعرف أنه يفسد قصدك، ثم اسأله القبول. ذلك أوضح وأنفع من كلام كثير عن الإخلاص لا يتبعه عمل.

الفصل ٤

أن تصدق فيما تريد

تقول: أريد الحق. ثم يأتيك الحق على لسان من لا تحب، فتثقل عليك موافقته. وتقول: أريد النفع. ثم يظهر أن الطريق الأنفع لم يكن اقتراحك، فتجد في نفسك مقاومة خفية. هنا لا يكفي جمال العبارة التي قلتها؛ هنا يُمتحن صدق الإرادة.

الإخلاص والصدق متصلان، لكنهما ليسا اسمين لشيء واحد. الإخلاص يصحح وجهتك: لمن تعمل؟ والصدق يجمع قوتك على ما عرفت أنه حق: هل تمضي إليه فعلًا، أم تكتفي بصورة الراغب فيه؟ قد تكون الوجهة صالحة، ثم تضعف الهمة أو تتشعب الإرادة، فيحتاج القلب إلى أن يعود ويجمع نفسه.

قال ابن القيم رحمه الله في بيان اجتماع الإخلاص والصدق والمتابعة:

> «الْإِخْلَاصُ عَدَمُ انْقِسَامِ الْمَطْلُوبِ. وَالصِّدْقُ عَدَمُ انْقِسَامِ الطَّلَبِ.
>
> فَحَقِيقَةُ الْإِخْلَاصِ: تَوْحِيدُ الْمَطْلُوبِ. وَحَقِيقَةُ الصِّدْقِ: تَوْحِيدُ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ. وَلَا يُثْمِرَانِ إِلَّا بِالِاسْتِسْلَامِ الْمَحْضِ لِلْمُتَابَعَةِ.

>

فَهَذِهِ الْأَرْكَانُ الثَّلَاثَةُ: هِيَ أَرْكَانُ السَّيْرِ، وَأُصُولُ الطَّرِيقِ الَّتِي مَنْ لَمْ يَبْنِ عَلَيْهَا سُلُوكَهُ وَسَيْرَهُ فَهُوَ مَقْطُوعٌ. وَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ سَائِرٌ، فَسَيْرُهُ إِمَّا إِلَى عَكْسِ جِهَةِ مَقْصُودِهِ، وَإِمَّا سَيْرُ الْمُقْعَدِ وَالْمُقَيَّدِ، وَإِمَّا سَيْرُ صَاحِبِ الدَّابَّةِ الْجَمُوحِ. كُلَّمَا مَشَتْ خُطْوَةً إِلَى قُدَّامٍ رَجَعَتْ عَشَرَةً إِلَى الْخَلْفِ.

>

فَإِنْ عَدَمَ الْإِخْلَاصَ وَالْمُتَابَعَةَ: انْعَكَسَ سَيْرُهُ إِلَى خَلْفٍ. وَإِنْ لَمْ يَبْذُلْ جُهْدَهُ وَيُوَحِّدْ طَلَبَهُ: سَارَ سَيْرَ الْمُقَيَّدِ.

>

وَإِنِ اجْتَمَعَتْ لَهُ الثَّلَاثَةُ: فَذَلِكَ الَّذِي لَا يُجَارَى فِي مِضْمَارِ سَيْرِهِ. وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».[4]

ليس المقصود أن تجعل من نفسك إنسانًا لا يعرف التردد ولا التعب. المقصود أن تكون غايتك لله، وأن تبذل لها طلبًا جادًّا، وأن تسير على هدي النبي ﷺ. فإن ضعفت، لم تسمِّ

4ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، 2/97، فصل «حقيقة الإخلاص توحيد المطلوب».

الضعف صوابًا حتى تحمي صورتك؛ تعترف بالتقصير، وتستعين بالله، ثم تستأنف الطريق.

يظهر هذا في طلب العلم. قد تنطق بجملة صادقة: أريد أن أتعلم لأنفع نفسي وغيري. ثم يسألك أحدهم عما لا تعلم، فيصبح قول «لا أعلم» أثقل من السؤال نفسه. إن كنت تريد نفعه حقًّا، فلن تدفعه إلى جواب تتوقع خطأه كي تبقى صورتك كاملة في عينيه. صدقك هنا ليس شعورًا باطنًا فقط؛ إنه كلمة قصيرة تحفظ دينك وتحفظ السائل.

ويظهر في الخبر الذي نشرته. رأيت رسالة مؤثرة فأرسلتها، ثم تبين لك أن نسبتها غير صحيحة. تستطيع أن تصمت رجاء أن ينساها الناس، أو أن تعود إلى من وصلتهم وتقول بوضوح: ما نشرته لم يثبت. قد يؤلمك التصحيح لحظة، لكنه يحرر قلبك من عبء الدفاع عن خطأ تعرفه.

ويظهر في البيت، حيث لا تصنع التفاصيل الصغيرة سمعة عامة. وعدت طفلًا أن تجلس معه، ثم شغلك هاتفك. أخطأت في حق زوج أو أخ، ثم سكنت حدة الموقف. صدق الرغبة في القرب من الله يطلب منك خطوة يمكن رؤيتها: تفي بما وعدت، أو تعتذر، أو تصلح ما أفسدت. لا يحتاج الاعتذار إلى خطاب طويل؛ يحتاج أن يكون حقًّا، وأن يترك أثرًا في المرة التالية.

ويظهر كذلك حين تعمل مع غيرك في خير. ربما كنت تريد نجاح المبادرة فعلًا، ثم جاء اقتراح أنفع من اقتراحك. الصدق لا يمنعك من مناقشته، لكنه يمنعك من دفنه لمجرد أن اسمك لن يقترن به. تريد ثمرة العمل، لا أن تكون كل ثمرة موسومة باسمك.

والإخلاص والصدق والنصح معانٍ متقاربة يعين بعضها بعضًا.[5] تريد الله بعملك، وتجمع إرادتك على ما عرفت أنه حق، وتؤدي ما ائتمنت عليه بما ينفع من تعامله. لذلك لا يصح أن يصبح الكلام عن نقاء النية ستارًا لعمل مهمل أو حق مؤخر؛ للناس حقوق لا تؤديها الأمنيات.

وقد يكون الصادق متعبًا، قليل الحماسة، بطيء الخطوة. ليست حرارة البداية مقياس الصدق الوحيد. ربما فتر شعورك ثم وفيت بما يجب؛ وربما ضجت نفسك بالحماسة ثم تراجعت أمام أول كلفة. الأعمال الهادئة التي تستمر، مع حفظ الواجبات وعدم ظلم النفس، أصدق من وعود كبيرة لا تعتني بما بعدها.

لهذا اختر وعدًا واقعيًّا بدل أن تحمل نفسك فوق طاقتها، ثم تجعل سقوطها دليلًا على فسادها كله. رتّب وقتك، واطلب عونًا مباحًا، وابدأ بما تقدر عليه. الصدق لا يطلب منك

---

5 **خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، مبحث الإخلاص؛ ومحاضرة «الإخلاص 1».**

صورة مثالية؛ يطلب ألّا تكذب على نفسك في اسم الطريق، وأن تبذل وسعك إذا عرفت وجهته.

ولا تجعل مجاهدة قلبك عرضًا عامًا. قد تحتاج إلى مشورة أمينة، لكن ليس كل ما بينك وبين الله مادة تشرحها للناس. بعض الإصلاح يحدث في هدوء: تعرف موضع تقصيرك، وتسأل الله العون، ثم تختار الصواب حين يعود الامتحان.

اسأل نفسك عند أقرب موقف: ما الخطوة التي يقتضيها ما أقول إنني أريده؟ إن كنت تريد الحق، فارجع إليه ولو خالف رأيك. وإن كنت تريد النفع، فاقبل طريقه ولو جاء به غيرك. وإن كنت تريد رضا الله، فلا تجعل بقاء صورتك عند الناس مقدّمًا على ما عرفت أنه يرضيه.

الفصل ٥

على هدي النبي ﷺ

قد تبدأ المسألة برسالة دافئة: دعاء حسن المعنى، وصورة هادئة، ووعد سريع بأن من نشرها أو كرر كلماتها عددًا مخصوصًا نال فضلًا مخصوصًا. يفرح القلب بالخير، وتمتد اليد إلى زر الإرسال. ثم يأتي السؤال الذي يحفظ المحبة من أن تخطئ طريقها: هل ثبت ما ننسبه إلى الدين؟

قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».[6]

يضع هذا الحديث بجوار سؤال النية سؤالًا لا يستغني عنه العمل: هل هذا مما شرعه الله؟ فصدق الرغبة لا يجعل كل طريق صحيحًا، كما أن معرفة الطريق وحدها لا تغني عن إرادة الله به. العبد يريد الخير، ويتعلم كيف يطلبه.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]. بيّن ابن كثير

6صحيح مسلم، كتاب الأقضية، حديث رقم 1718.

أن العمل الصالح هو الموافق لشرع الله، وأن ترك الإشراك في العبادة هو إرادة وجهه وحده؛ فاجتمع صواب العمل وإخلاص القصد.[7]

ومن هنا تأتي «المتابعة»: أن نتلقى عبادة الله عن رسوله ﷺ، فلا ننسب إلى وقت أو عدد أو هيئة فضلًا دينيًّا مخصوصًا من عند أنفسنا. ليست السنة حملًا ثقيلًا على المحبة؛ إنها المصباح الذي يمنعها من أن تمشي بحسن نيتها في طريق لا تعرفه.

تخيل أمًّا رأت دعاءً صحيح المعنى لطفلها المريض، لكن الرسالة زعمت أن تكراره بعدد معين يضمن الشفاء في أيام. لها أن تدعو ربها وتلح عليه، وأن تأخذ بأسباب العلاج، لكن الوعد الغيبي المحدد يحتاج إلى دليل. حذف الوعد غير الثابت لا يطفئ الرجاء؛ بل يرد القلب إلى الله من غير نسبة ما لم يقله إليه.

وهناك فرق بين ترتيب العادة ونسبة الفضل. قد تختار لنفسك عشر دقائق بعد الفجر لقراءة القرآن لأنها أنسب لبيتك ووقتك، وقد تتفق أسرة على مقدار يعينها على الاستمرار. هذا تنظيم مباح في أصله، لا ادعاء بأن هذا العدد أو هذا الموعد سنة لها ثواب مخصوص. فإذا نُسبت خصوصية دينية إلى فعل، احتاجت النسبة إلى علم ودليل.

---

7 **الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.**

ولا يعني الاتباع إغلاق الباب أمام الوسائل الجديدة. تستطيع أن تتعلم في مجلس أو عبر جهاز، وأن ترسل صدقتك بيدك أو بتحويل موثوق، وأن تستعمل تطبيقًا ليذكرك بما عزمت عليه. الوسيلة المباحة شيء، واختراع عبادة مخصوصة أو فضل مخصوص ونسبته إلى الشرع شيء آخر. وما التبس عليك فطريق السلامة أن تسأل من تثق بعلمه ودينه.

وقد يخطئ طريق الخير من جهة أخرى: تنشر حملة لمحتاج، فتضيف إلى قصته ما لم يقع لأنك تخشى أن يبرد تعاطف الناس؛ أو تدافع عن مظلوم، فتتهم شخصًا بلا بينة. هنا لا تحتاج النية إلى مديح جديد، بل إلى وسيلة نظيفة. لا يُنصر الصدق بالكذب، ولا تُصان كرامة إنسان بإهدار كرامة آخر.

وفي البيت يظهر الامتحان بصور أصغر وأقرب. تريد أن تعلّم ابنك الصلاة، فتجرحه أمام إخوته؛ أو تريد نصح قريبك، فتحوّل النصيحة إلى فضيحة. المقصد الشريف يدعوك إلى إصلاح الطريقة، لا إلى التمسك بها. الرفق والستر والعدل ليست زينة منفصلة عن الهداية؛ هي من الأمانة التي يطلبها من أراد الخير حقًّا.

وأصعب لحظات المتابعة أحيانًا ليست لحظة البدء، بل لحظة الرجوع. تعمل بشيء زمنًا، ثم يتبين لك بعد سؤال وبينة أن الصواب غيره. يثقل عليك أن تقول: أخطأت؛ فقد عرفك الناس برأيك ودافعت عنه. لكن الإخلاص يحررك من عبادة صورتك: ما دمت بدأت تريد رضا الله، فعودتك إلى الحق أقرب إلى مقصدك من انتصارك لنفسك.

لا يعيب المخلص أن يجهل ثم يتعلم، أو ينسى ثم يُذكَّر. إنما الخطر أن يجعل حرارة شعوره بديلًا من الدليل، أو يجعل الحرج من الاعتراف سببًا للبقاء على الخطأ. ارفق بنفسك في طريق التعلم، ولا تدللها إذا بان الحق: أصلح ما تستطيع، واسأل عما أشكل، ولا تحوّل كل مسألة إلى حكم تتولاه وحدك.

قبل أقرب عمل تتقرب به، اسأل سؤالين قصيرين: لمن أفعله؟ وكيف دلني الله ورسوله عليه؟ الأول يحرس قلبك من الرياء، والثاني يحرس عملك من الانحراف. وإذا اجتمع قصد الله واتباع هدي نبيه ﷺ، فقد أخذت بأسباب القبول؛ ثم بقي قلبك فقيرًا يقول: ربنا تقبل منا.

الفصل ٦

عبادة في حياتنا اليومية

لا يبدأ يومك حين تقف للصلاة فقط، ثم يتوقف معنى العبادة عند التسليم. يبدأ في اللحظة التي تنهض فيها مثقلًا لتجيب من يحتاج إليك، وفي الكلمة التي تكفها لئلا تجرح، وفي المال الذي تؤديه من غير منّ، وفي الراحة التي تسترد بها قدرتك على الوفاء. غير أن هذه السعة لا تعني أن كل حركة تصير قربة بمجرد أن نسميها عبادة؛ إنما تتسع الحياة بالطاعة حين يكون العمل مشروعًا ويصحبه قصد صالح.

قال ابن تيمية رحمه الله في جواب سؤال عن العبادة وفروعها:

> «فأجاب رحمه الله:
>
> العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة.

> وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله».[8]

لا يحصر هذا البيان العبادة في الشعائر، ولا يذيب الشعائر في شؤون الدنيا؛ بل يجمع أعمال القلب والجوارح تحت ميزان ما يحبه الله ويرضاه. الصلاة عبادة، وأداء الأمانة عبادة، ومحبة الله والتوكل عليه من عبادة القلب. ولكل باب حكمه، فلا يصح أن نجعل عملًا مباحًا عذرًا لترك واجب، ولا أن نضع اسم العبادة على ما حرمه الله.

قال النبي ﷺ: «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة».[9]

هذا متن الرواية كاملًا. كلمة «يحتسبها» تفتح نافذة في جدار العادة: النفقة واجب وحق للأسرة، ومع طلب الأجر من الله تكون لصاحبها صدقة. لا تسقط النية حقَّ الأهل، ولا تجعل التقصير إحسانًا؛ إنها تهذب أداء الحق، وتحفظ القلب من أن يرى نفسه متفضلًا بما أوجبه الله عليه.

---

8 **ابن تيمية، العبودية، ص44؛ ومجموع الفتاوى، 10/149.**

9 **صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 55.**

قد يحمل رجل دواء أمه في آخر الليل وقد أرهقه يومه. التعب حقيقي، ومن حقه أن يطلب من إخوته المشاركة، لكن احتسابه يرد إلى المشهد معنى لا تلتقطه العين: هو لا يقضي حاجةً عابرة فحسب، بل يؤدي أمانة ويرجو بها وجه الله. وقد تهيئ أم حقيبة ابنتها للمدرسة للمرة العاشرة، ثم تتذكر أن التربية صبر ورحمة ومسؤولية؛ فلا يختفي التعب، لكنه لا يبقى فراغًا بلا معنى.

والأجر المالي لا يغلق باب الأجر الأخروي. من يصلح جهازًا بأمانة، أو يعلّم طالبًا فلا يخفي عنه ما يحتاجه، أو يبيع عبر متجر إلكتروني فيصف السلعة كما هي، يأخذ حقه المتفق عليه ويستطيع مع ذلك أن يقصد الحلال وكف الأذى وأداء الأمانة. ليست المشكلة في الأجرة؛ المشكلة أن تُؤكل الحقوق ثم تُغطى بعبارة «عملي عبادة».

والراحة المباحة ليست خصمًا للطاعة. قد تنام لتقوى على الصلاة والعمل، أو تمشي مع أهلك لتعود إليهم أهدأ وأرفق، أو تمارس هواية مباحة ترد عنك السآمة. لا يلزم أن تحول كل دقيقة إلى امتحان مرهق للنية. احفظ الفرائض والحقوق، واجتنب الحرام، واستعن بالمباح على حياة أصلح؛ فإذا حضرت نية طيبة فاحمد الله، وإذا غفلت فجددها بلا وسواس.

وفي الأشياء الصغيرة يظهر أثر هذا الفهم. تصمت في مجموعة العائلة عن كلمة تثير شقاقًا، وترد مالًا زاد في حسابك خطأ، وتمنح الطريق لمن هو أضعف، وتعتذر لطفل حين تظلمه. قد لا يصفق لك أحد، لكن هذه المواطن تصل ما في القلب بما تفعله

الجوارح. الإخلاص لا يحتاج دائمًا إلى مشهد كبير؛ يحتاج إلى صدق حين تكون قادرًا على الخير ولا يراك إلا الله.

ومن رحمة الله أن أبواب القرب ليست نسخة واحدة للناس جميعًا. قد يفتح لشخص في تعليم القرآن، ولآخر في رعاية مريض، ولثالث في إصلاح ذات البين. لا تحتقر بابًا مشروعًا لأن صورته مألوفة، ولا تزكِّ نفسك بما فتح لك. اسأل: هل حفظت الواجب؟ هل سلم الناس من أذاي؟ هل أردت بهذا وجه الله بقدر ما أستطيع؟

انظر الآن إلى يومك لا إلى يوم تتمنى أن تعيشه. ما الحق القريب الذي تستطيع أداءه أحسن؟ أي عادة مباحة يمكن أن تستعين بها على طاعة؟ وأي تقصير لا يجوز أن تغطيه بكلام جميل عن النية؟ اختر موضعًا واحدًا: نفقة تؤديها بطيب نفس، أو وعدًا تفي به، أو راحة تضبطها، أو أذى تكفه. هكذا ينزل الإخلاص من الفكرة إلى الحياة، ويبقى القلب يسأل الله القبول.

الفصل ٧

نرجو الجنة ونخاف النار

ربما سمعت عبارة تجعل قلبك يتردد عند الدعاء: إن كنت مخلصًا حقًّا، فلا تعبد الله طمعًا في جنته ولا خوفًا من ناره. ثم تقف بين يدي الله محتاجًا، لكنك تستحي من حاجتك؛ كأن الرجاء نقص، وكأن الخوف منزلة لا تليق بالمحبين.

غير أن الطريق إلى الله لا يُرسم بالشعارات التي تربك الفطرة، بل بما علَّم الله عباده وأثنى به على صفوته. قال تعالى في تمام الآية: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

لم يَفصل السياق بين المسارعة في الطاعة، والرغبة فيما عند الله، والرهبة منه، والخشوع له. اجتمعت هذه المعاني في قلب واحد، ولم يطرد بعضها بعضًا. فالرجاء الصادق لا يُقعد صاحبه عن العمل، والخوف النافع لا يقطع طريقه إلى الرحمة؛ وكلاهما يرد القلب إلى ربه.

ويعرض القرآن مشهدًا آخر، لا يبدأ بالكلام عن النية مجردًا، بل بيد تمتد بالطعام إلى ضعيف: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ

لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 8–10].

هنا يصفو المقصد، ويظل الخوف حاضرًا: الطعام لوجه الله، لا لرد الجميل ولا لصناعة صورة عند الناس؛ ومع ذلك يخافون يومًا شديدًا. لم يجعل القرآن ابتغاء وجه الله خصمًا للخوف من اليوم الآخر، بل جمعهما في عمل خفيّ الثمن، ظاهر الرحمة.

ومن هنا يظهر الفرق الذي يريح القلب: من صلَّى ليقال إنه صالح جعل عيون الناس غايته. أما من صلَّى لله يرجو مغفرته وجنته، فقد قصد بعبادته ربَّه وما وعد به عباده. ليس رجاء ما عند الله هو طلب المحمدة من الخلق؛ الجهتان مختلفتان، وإن سُمِّي كل منهما رغبة.

وليس من ضعف الإخلاص أن تقول في ممر مستشفى: يا رب اشف مريضي، أو أن تسأل صلاح ولدك، ورزقًا حلالًا، وفرجًا بعد دين أثقل أيامك. أنت لا تعرض حاجتك على الخلق لتشتري إعجابهم؛ أنت تطرق باب ربك، وتعترف أنك لا تملك لنفسك ولا لمن تحب تمام النفع.

لكن الدعاء ليس عقدًا نكتب نحن شروطه وموعد تنفيذه. قد تدعو ويبقى السرير مشغولًا، وتتصدق ولا ترى الزيادة التي تخيلتها، وتجتهد في إصلاح بيتك ثم يطول

الطريق. صدق العبودية أن تفعل ما يرضي الله، وترجو فضله، من غير أن تزعم أن طاعة بعينها أوجبت لك نتيجة دنيوية بعينها، في الزمن الذي اخترته.

وإذا تأخر ما تحب، فلا تجعل التأخر حكمًا على إخلاصك، ولا تنسب إلى الغيب ما لا تعلم. اسأل، وخذ بالأسباب المباحة، وتب من تقصير تعلمه؛ ثم اترك لله ما لم يُطلعك عليه. قد يكون العبد صادقًا ومبتلًى، وقد يفتح الله له في انتظار الفرج عبادةً لم يكن ليدخلها لو جاءه مراده سريعًا.

وفي بعض الأيام تؤدي الطاعة ولا تجد حرارة الأمس. لا تجعل الدموع المعيار الوحيد؛ راقب مقصدك وعملك، وجاهد غفلتك، واطلب حياة قلبك، ولا تترك الباب لأن شعورك فتر. القلب السائر لا يعيش على حالة وجدانية واحدة، لكنه كلما غفل عاد.

والعبد لا يجزم بقبول عمله، وإنما يرجوه. إذا انتهى من طاعة حمد الله أن أعانه، وسأله القبول، ولم يقف موقف من يرى أن له على ربِّه ثمنًا مستحقًّا. يسأل الجنة لأنها فضل الله ووعده، ويستعيذ من النار لأنه فقير إلى رحمته، ويظل بين رجاء يمنعه من اليأس وخوف يمنعه من الغرور.

فلا تستح من حاجتك إلى الله. اسأله رضاه والجنة، واستعذ به من سخطه والنار، وادعه لشؤون آخرتك ودنياك. الإخلاص أن يكون توجهك إليه، لا أن تنتزع من قلبك الرجاء والخوف اللذين أثنى بهما على عباده.

الفصل ٨

صلاح القلب يظهر في العمل

قد يقولها المرء وهو يريد خيرًا: «المهم أن قلبي طيب». وقد يقولها مرة أخرى حين تقترب النصيحة من موضع يؤلمه: صلاة يؤخرها، أو كلمة جرحت إنسانًا، أو حق بقي في ذمته. العبارة واحدة، لكن وظيفتها تغيّرت؛ كانت وصفًا يرجوه لنفسه، ثم صارت ستارًا يحول بينه وبين الإصلاح.

ولم يجعل النبي ﷺ القلب دعوى ساكنة لا أثر لها، بل جاء ذكره في حديث يرسم طريق الحلال والحرام والشبهات كاملًا:

«الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».[10]

10صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 52.

لم يأت ذكر القلب هنا منفصلًا عن الطريق الذي تمشيه الجوارح. سبقته حدود، وشبهات، وخطوة تقترب من الحمى حتى يخشى صاحبها أن يقع فيه. القلب الصالح لا يجعل الحرام حلالًا، ولا يمحو أثر الأذى بمجرد أن صاحبه كان يريد خيرًا؛ وإنما يعين صاحبه على أن يقف، ويراجع، ويرجع.

ولا يعني ذلك أن صاحب القلب المؤمن لا يخطئ. قد يغلبه غضب، أو تضعف نفسه أمام شهوة، أو يبخل في ساعة كان ينبغي أن يبذل فيها، ثم يندم ويتوب. الفرق ليس بين إنسان لا يزل أبدًا وآخر لا خير فيه، بل بين من يرى الزلة باب رجوع، ومن يجعل صلاح باطنه المزعوم حجة لبقاء الخطأ.

قد يرفع أب صوته على ابنه حتى تنكمش الكلمات في صدر الصغير، ثم يقول: أنا أحبه ولا أريد إلا مصلحته. قد تكون المحبة حقيقية، لكنها لا تحول القسوة إلى رفق. ومن صدق محبته أن يعتذر، وأن يتعلم كيف ينصح بلا إهانة، وأن يفهم أن الهيبة لا تُبنى بكسر من تحت يده.

وقد يؤخر إنسان مالًا لصاحبه وهو قادر على أدائه، ثم يذكر صدقات أخرجها وأبواب خير فتحها. الصدقة طاعة، لكنها لا تسقط حقًّا واجبًا. وليس من الإخلاص أن نختار العمل الذي ترتاح إليه نفوسنا، ثم نجعله عذرًا في واجب يثقل علينا.

وتظهر الفجوة أحيانًا في موضع لا يرانا فيه من نحب إعجابهم: لطف مع الغريب، ونفاد صبر مع الأهل؛ عناية بصورة العبادة أمام الناس، وتساهل في الأمانة حين يغيبون؛ منشور رقيق عن الرحمة، ورسالة خاصة جارحة. إصلاح هذه الفجوة لا يبدأ بكراهية النفس، بل بالشجاعة في تسميتها ثم تغيير الفعل الذي يكشفها.

وفي الجهة الأخرى، لا تجعل كثرة العمل الظاهر شهادة نهائية على صفاء قلبك، ولا ميزانًا تحاكم به سرائر الآخرين. قد يكثر العمل ويحتاج صاحبه إلى مجاهدة الرياء أو العجب، وقد ترى من إنسان تقصيرًا ولا تعرف ما بينه وبين الله من توبة وصدق. نحن نزن الفعل بما نعلم من الحق، ونحفظ الحقوق، وننصح، أما حكم القلوب ودرجات القبول فإلى الله.

ابدأ إذن بما تستطيع رؤيته في نفسك. ما العمل الصالح الذي يكثر كلامك عنه ويقل حضورك فيه؟ وما الحق الذي تعرفه ثم تؤجل أداءه؟ لا تجعل السؤال سوطًا تحتقر به نفسك؛ اجعله بابًا لعمل واضح: صلاة تحفظ وقتها، أو مال ترده، أو خبر تتثبت منه قبل نشره، أو اعتذار لا تؤجله إلى أن يبرد قلب من آذيته.

وقد يحتاج إصلاح القلب إلى أسباب عملية. من يتكرر غضبه قد يحتاج إلى أن يتعلم، ويستشير، ويغيّر الطريق الذي يقوده كل مرة إلى الانفجار. ومن تضيع منه الحقوق بالنسيان قد يحتاج إلى سجل ومواعيد وتنبيه. التوكل لا يلغي السبب، والدعاء لا يعفينا من خطوة نقدر عليها؛ إنما نستعين بالله ونحن نخطو.

وحين ترى من نفسك تحسنًا، فلا تجعل الإصلاح سببًا جديدًا للعجب. احمد الله أن أعانك، واستمر. ستعرف مع الأيام مواضع لم تكن تراها، وهذه المعرفة ليست دائمًا علامة تراجع؛ قد تكون رحمة تكشف لك ما يحتاج إلى تهذيب قبل أن يستقر.

إن أصدق ما تقوله عن قلبك لا تقوله بلسانك وحده. تقوله أمانتك حين يغيب الرقيب، ورحمتك في البيت، ووقوفك عند حدود الله، ورجوعك إذا أخطأت. وحين يصير الإخلاص حياةً لا شعارًا، يبدأ أثر القلب في الظهور حيث لا تصنعه الكلمات.

الباب ٢

الإخلاص في هدي القرآن

لا يعرض القرآن الإخلاص تعريفًا مجردًا، بل يرينا إياه في ساعة الاختيار. يوسف عليه السلام استعاذ بربه حين دُعي إلى المعصية، وإبراهيم عليه السلام أعلن عبادته للخالق وحده، وموسى عليه السلام بذل عونًا ثم سأل الله الخير الذي يحتاج إليه. وفي دعاء امرأة عمران، ودعاء إبراهيم وإسماعيل، يتكرر طلب القبول.

تختلف المواقف في ظاهرها، ويجمعها قلب يقدّم أمر الله على رغبته، ويطلب عونه، ويبذل الخير من غير منّ، ولا يغتر بما عمل. لا نقف عند الإعجاب بأبطال القصة؛ نسأل عن نصيبنا من هداها في أمر نستطيع إصلاحه.

ربما لا نواجه امتحانًا كبيرًا يشبه ما نقرأ، لكننا نواجه اختيارًا بين صدق وكذب، وبين أمانة وخيانة، وبين إحسان نتمه وإحسان نفسده بالأذى. هنا يصل هدي القرآن إلى يومنا، ويغادر المعنى صفحة القراءة ليصير عملًا.

الفصل ٩

يوسف: معاذ الله

في موضع غابت عنه عيون الناس، وحُكمت أبوابه، بدأ الامتحان بكلمة دعوة، وجاء الجواب بكلمة استعاذة. قال تعالى:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 23–24].[11]

«معاذ الله» ليست صيحة بطولة يمدح بها الإنسان نفسه، بل لجوء إلى الله في لحظة تتقارب فيها أسباب الفتنة. وحين يخبر القرآن أن يوسف من عباد الله المخلَصين، يرد الحفظ إلى فضل الله واصطفائه؛ فلا يرى الناجي أنه استغنى بقوته عن ربه.

11الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.

نحتاج إلى هذه الكلمة حين يغيب الرقيب البشري: في شاشة لا يراها أحد، وفي حديث يمكن حذفه قبل أن يقرأه غيرك، وفي سر اؤتمنت عليه، وفي مال تستطيع أخذه لأن صاحبه لا ينتبه. قد يمنعك الخوف من الفضيحة مرة، لكن تعظيم الله يحرس قلبك حين يغلب على ظنك أن الناس لن يعلموا.

وليس من الحكمة أن تختبر ثباتك بإبقاء أبواب الضعف مفتوحة. لا تقل: أعرف حدودي، ثم تكرر الاقتراب مما تخشاه. قد يكون الصدق في أن تغادر مجلسًا، أو تغلق محادثة، أو ترد غرضًا ليس لك، أو تطلب من شخص تثق بدينه أن يعينك على قطع عادة تجرّك كل مرة إلى الموضع نفسه.

ثم اشتد البلاء، فدعا يوسف ربَّه، وجاءت الإجابة، ثم جاء السجن:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: 33–35].[12]

12الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.

في هذه الآيات ترتيب يحتاجه القلب: لم يقل يوسف إن ثباته السابق يكفيه، بل سأل الله أن يصرف عنه الكيد. ثم أخبر الله أنه استجاب له وصرفه عنه، ومع ذلك انتهى به ظلم الناس إلى السجن حينًا. الاستجابة لم تكن وعدًا بأن الطريق سيخلو من الألم؛ كانت حفظًا من المعصية، ولو بقيت كلفة اختيار الطاعة.

قد ترفض شهادة كاذبة فيغضب من أرادها، أو تترك علاقة محرمة فتؤلمك وحشة الانقطاع، أو تصدق في امتحان بينما يسبقك من غش. لا تجعل الألم وحده دليلًا على خطأ الطريق، ولا تتوهم أن الطاعة توجب لك راحة عاجلة بالصورة التي تختارها. اسأل عن حكم فعلك، واستعن بالله، وخذ بالأسباب المشروعة لدفع الظلم وحفظ حقك.

والصبر على كلفة الطاعة لا يعني محبة الظلم ولا السكوت عن كل أذى. لك أن تطلب إنصافك، وتستشير، وتحمي نفسك ومن تعول. لكن الفرق كبير بين أن تدفع الضرر بطريق مشروع، وأن تعود إلى الحرام لأن الطريق المستقيم لم يكن سهلًا.

وقد تمتنع عن الخطأ، ثم يأتي امتحان أدق: أن تحكي نجاةً سترها الله لتصنع لنفسك صورة العفيف القوي. إن وجدت مصلحة حقيقية في النصح، فقل من التجربة بقدر ما ينفع ولا يكشف سترًا ولا يجرح صاحبًا. وإن لم تكن هناك حاجة، فدع العمل بينك وبين الله؛ فليس كل انتصار خفي محتاجًا إلى جمهور.

ومن سبق له الوقوع في ذنب لا يقرأ هذه الآيات ليغلق على نفسه باب الخير. يوسف عليه السلام قدوة في العفة، والتوبة باب من قصّر. لا يلزمك أن تعلن ذنبًا ستره الله؛ ارجع إليه، واقطع أسباب الاستمرار، ورد الحقوق إن تعلقت بالناس، واطلب عونًا مأمونًا إن عجزت وحدك عن الخروج.

قد تحتاج أن تكرر الاستعاذة والقرار مرات؛ لأن المجاهدة ليست مشهد قوة عابرًا. هي اعتراف دائم بأنك فقير إلى حفظ الله، مع فعل السبب الذي تقدر عليه. تقول: «معاذ الله»، ثم تبعد خطوتك عن الباب الذي تعرف إلى أين يقود.

وقد لا يعلم أحد ما تركته، ولا كم كلفك الترك. يكفي أن الله يعلمه. هناك يستقيم معنى الإخلاص: لا تعرض مقاومتك على الناس، ولا تعتمد على نفسك، بل تستعيذ بربك، وتختار ما يرضيه، وتسأله أن يصرف عنك السوء ويثبتك إذا طال الطريق.

الفصل ١٠

إبراهيم: لرب العالمين

قال إبراهيم عليه السلام:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79].

أعلن إبراهيم عليه السلام وجهته إلى خالق السماوات والأرض وحده، مائلًا عن الشرك إلى التوحيد. لم يجعل ما اعتاده قومه حجة يتبعها، ولا جعل رضاهم غاية عبادته. وهذا أصل الإخلاص: أن الله هو المستحق للعبادة؛ نخلص له لأنه ربنا وخالقنا والمنعم علينا، لا لمجرد احتمال أن يجحد الناس إحساننا.

وقد يحتاج القلب إلى هذا الأصل حين تختلط محبة الناس بطاعتهم في كل ما يريدون. تحب والدك وتحفظ حقه، لكن لا تشهد زورًا إرضاء له. تحب صديقك، لكن لا تبرر خطأه. وتنتمي إلى فريق، لكن لا تجعل انتماءك ستارًا عن قول الحق.

ويظهر هذا المعنى في خطاب إبراهيم لأبيه. قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ

فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: 41–48].

في هذا الحوار وضوح في الحق ورفق في الخطاب. تكرر نداء «يا أبت»، وعرض إبراهيم ما عنده من العلم، وخاف على أبيه، ثم واجه التهديد بسلام لا يحمل أذى. لم يحول تمسكه بالحق إلى إذن بالإساءة، ولم يجعله الرفق يوافق على الباطل. اجتمع الأمران من غير أن يبتلع أحدهما الآخر.

قد يطلب منك قريب أن تؤيد أمرًا تعرف أنه غير صحيح، أو يلح عليك صديق لتشهد له بما لم تر، أو ينتظر منك من تحب مشاركة منشور لم تتحقق منه. تستطيع أن ترفض بهدوء وتبين السبب، ثم تقترح طريقًا صحيحًا. ليس الرفض المهذب ضعفًا في الحق، ورفع الصوت لا يثبت إخلاص صاحبه.

ولا يعني العمل لله أن تضيق الحياة أو تقل محبتك للناس. تستطيع أن تتعلم وتكسب وتتزوج وتربي وتخدم مجتمعك، وأنت ترجو رضا الله. تعدد الأعمال المباحة والنافعة لا ينافي وحدة العبادة؛ إنما يحتاج القلب إلى مراجعة حين تدفعه رغبة في مال أو منزلة أو قبول إلى معصية الله.

ويعيدنا القرآن إلى هذا المعنى حين يصف قومًا دعوا الله مخلصين له الدين في شدة البحر، ثم لما أنجاهم وقع منهم البغي. قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 22–23].

وتوقظنا الآيتان إلى سؤال يحتاجه القلب في الرخاء كما في البلاء: هل يبقى شاكرًا لله بعد انكشاف الشدة؟ إن النجاة والنعمة لا تنفصلان عن الشكر والعمل بالحق.

حين تجري أمورك على ما تحب، اشكر الله واستعمل النعمة في طاعته. صحتك ومالك ووقت فراغك فرص لأعمال قد تعجز عنها إذا ضاقت الحال. لا تنتظر أن تفقد نعمة حتى تعرف أنك محتاج إلى من وهبها. تستطيع أن تطمئن وتشكر من غير خوف متكلف ولا غفلة.

وقد يكون من الإخلاص أن تغير خطة قديمة. تبدأ في عمل، ثم يتبين أن غيره أنفع أو أن شخصًا آخر أصلح للقيام به. إن كنت تريد نفع الناس لله، فلا تجعل بقاء اختيارك

الأول غاية لا تقبل المراجعة. قد يكون تسليم المهمة، أو الاعتراف بقصور الطريقة، هو العمل الصادق الذي تحتاج إليه الآن.

وحين تراجع تعلقك بقبول شخص، لا تعالج ذلك باحتقاره أو تتبع عيوبه. هو بشر له حقه ومحبتك المشروعة، لكنه لا يملك أن يحل لك حرامًا أو يحرم عليك طاعة. احفظ له منزلته من غير أن تعطيه ما ليس له، واحفظ لنفسك قدرتها على قول الحق برفق.

يرد إعلان إبراهيم القلب إلى أصل واضح: خالق السماوات والأرض هو المعبود. ومن هذا الأصل نتعلم أن نطلب ما يرضي الله، ثم نختبر صدق هذا الطلب في موقف قريب: نطيعه، ولا نظلم من خالفنا، ونحب الناس من غير أن نقدم محبتهم على حق ربنا.

الفصل ١١

موسى: معروف عند الماء

قال الله تعالى:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: 21–28].

تبدأ الآيات بخوف موسى عليه السلام وخروجه من بلده، ثم تنقله إلى موقف عونٍ يقدر عليه وهو نفسه محتاج إلى ربه. رأى عملًا ممكنًا أمامه ففعله، ثم عاد بقلبه إلى الله يسأله الخير. قد تكون لك أنت أيضًا أيام لا تستقر فيها أمورك، ثم يمر بك إنسان يحتاج إلى معلومة أو وقت أو جهد يسير. لا يلزم أن تكون قد بلغت غايتك حتى تحسن فيما تقدر عليه.

وفي الوقت نفسه، لا يطلب منك النص أن تتجاوز طاقتك أو تعد بما لا تستطيع. الإحسان الذي تقدر على الوفاء به أصدق من وعد كبير يترك من وثق بك في حرج. قل بوضوح: هذا أستطيعه، وهذا لا أملكه، ثم دل على عون آخر إن عرفت طريقه. صدق القدرة أمانة، كما أن بذلها في الخير نعمة.

ثم تذكر الآيات دعاء موسى بعد السقيا؛ سؤالٌ يخرج من قلب يعرف فقره إلى الخير، لا من شخص يتظاهر بالاكتفاء. قد تخدم قريبًا وأنت تحتاج إلى من يسمعك، أو تساعد زميلًا وأنت تبحث عن فرصة، أو تقف مع جار فيما تمر أنت بضيق. لا تجعل إعانتك سببًا لتخفي حاجتك عن الله أو لتظن أن النفع صدر من قوتك وحدها. ما آتاك الله من قدرة تستطيع أن تبذله، وأنت ما زلت عبده المحتاج إليه.

وفي بقية القصة عرض والد المرأتين على موسى العمل عنده، ثم زوّجه إحدى ابنتيه على أجل معلوم. تتابعت عليه أبواب الخير بعد أن أحسن فيما قدر عليه، من غير أن

يجعل معروفه ثمنًا لخير ينتظره. افعل ما تستطيع خالصًا لله، واترك ما بعده لفضله وتدبيره.

ويحفظ الإخلاص كرامة من يتلقى المعروف. قد تساعد قريبًا في تجاوز ظرف، ثم تعايره كلما اختلفتما؛ أو تدرب زميلًا، ثم تنسب كل نجاحه إلى نفسك. ليس الإحسان ملكيةً على حياة الناس، ولا رخصة للتدخل في قراراتهم. أعن من غير منٍّ ولا انتظار ولاء، واترك له حقه في أن يستقل ويختار.

ومن يتلقى العون يحسن أن يشكر صاحبه ويحفظ فضله. صدق المعطي لا يسقط حق الآخذ في الكرامة، وامتنان الآخذ لا يمنح المعطي حق السيطرة. لكل طرف مسؤوليته؛ فلا نطلب فضيلةً من واحد منهما لنسقط حق الآخر.

قد تبدأ بمعروف لا يراه أحد: تشرح مسألة لأخيك، أو توصل حاجة لجار، أو تراجع مع صديق طلبًا مهمًا، ثم لا تجعل ما قدمته فاتورة تلاحقه بها. وبعده ارفع حاجتك إلى الله كما هي. ما أجمل أن تخرج من موقف العطاء وأنت ألين قلبًا، لا أعلى على الناس؛ تعرف أنك نفعته بما وهبك الله، وأنك أنت أيضًا لا تستغني عن خيره.

الفصل ١٢

امرأة عمران: فتقبل مني

قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 35–37].

تبدأ الآيات بقصد خالص وسؤال للقبول. نذرت امرأة عمران ما في بطنها محررًا لخدمة بيت المقدس، ثم لم تعتمد على صلاح مقصدها وحده، بل سألت ربها أن يتقبل منها.[13] فالعبد قد يريد الخير ويأخذ بأسبابه، ويبقى مفتقرًا إلى قبول الله وبركة الأثر.

13ينظر: تفسير ابن كثير، والتفسير الميسر، عند آل عمران: 35، في معنى «محررًا».

ثم جاء الواقع على غير الصورة التي توقعتها؛ وضعت أنثى، وسمتها مريم، واستعاذت بالله لها ولذريتها. لم ينقطع الدعاء حين اختلفت النتيجة عن التصور الأول. وفي هذا ما يوقظ الوالدين إلى فرق دقيق: أن تطلب الخير لولدك، لا أن تطلب منه أن يكون نسخةً من الخطة التي رسمتها لنفسك.

قد تفرح بحفظ ابنك للقرآن، ثم تكتشف أن اهتمامك بسماعه أمام الضيوف صار أكبر من اهتمامك بفهمه ومحبة التعلم. وقد يؤلمك خطؤه أمام الناس لأن صورة الأسرة اهتزت، لا لأن الخطأ أضر به. هنا لا تحتاج إلى إدانة نفسك، بل إلى سؤال صادق: أيهما أقدم الآن، مصلحته أم صورتي؟

الإخلاص في التربية لا يلغي الطموح، لكنه ينقيه من التملك. تعلّم وتخطط وتتابع، ثم تقبل أن لطفلك قدرات واحتياجات ومسارًا لا يطابق كل ما تمنيت. تساعده على الحق، ولا تجعله أداةً لإكمال ما فاتك أو إثبات نجاحك أمام الآخرين.

ولا تُنقل صورة النذر الواردة في الآيات إلى واقع مختلف؛ فالمعنى هنا أن يصلح الوالدان نيتهما في الرعاية، ويريدا للولد الخير لله، لا أن يجعلاه مشروعًا لصورة يرسمانها أمام الناس.

ثم تخبر الآيات أن الله تقبل مريم بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا، وجعل زكريا كافلًا لها. في القبول إنبات ورعاية وكفالة؛ وفي ذلك تذكير بأن الخير قد يصل إلى من تحب

على أيدٍ كثيرة. قد يعلمه معلم، أو ينصحه قريب، أو يفتح الله قلبه بكلمة من صديق صالح. لا تضق لأنك لم تكن الطريق الوحيد؛ افرح بأن الخير وصل، واحفظ فضل من أعان.

وقد يكون إخلاصك أوضح في موقف لا يراه الناس: حين يعيد طفلك السؤال للمرة الخامسة فتصبر، أو يعترف بخطأ فتشكره على الصدق قبل أن تعالج الخطأ، أو تتبين أنك قسوت فتعتذر. الاعتذار المنضبط لا يهدم الهيبة؛ بل يعلم من أمامك أن الحق أحب إليك من الانتصار للنفس.

ولا يدل صلاح ولد وحده على كمال إخلاص والديه، كما لا يثبت تعثره فساد قلبيهما. هناك مسؤوليات ظاهرة تُعرف وتُقوّم، لكن القلوب والهداية ومقادير الابتلاء ليست إلينا. هذا الفهم يمنع التفاخر كما يمنع الشماتة: نشكر على الخير، وننصح عند التقصير، ولا نزعم علم السرائر.

وفي رد مريم الرزق إلى الله تذكيرٌ بإرجاع النعمة إلى واهبها. إذا رأيت أثرًا حسنًا في ولد أو طالب أو إنسان رعيت شأنه، فاحمد الله، ولا تمحُ جهود الآخرين، ولا تجعل نفسك أصل كل خير فيه. أنت سبب من أسباب كثيرة، والفضل أولًا وآخرًا لله.

والدعاء لا يعفينا من الرعاية. من يسأل الله صلاح من يحب ثم لا يسمعه ولا يعلمه ولا يحميه بما يستطيع، يحتاج أن يصدق دعاؤه عمله. ابذل السبب الذي تملكه، ثم سل الله ما لا تملكه: القبول، والهداية، والبركة، وحسن العاقبة.

قل: يا رب، أصلح قصدي فيمن أحب، وأعنّي على أداء حقه، وتقبل مني ما وفقتني إليه. ثم عد إلى موقف قريب يحتاج إلى إنصاتك أو عدلك أو رفقك. لعل عملًا صغيرًا لا يصفق له أحد يكون أصدق عند الله من صورة كبيرة يمدحها الناس.

الفصل ١٣

لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا

هنا لا يصف القرآن شعورًا معلقًا في القلب، بل معروفًا يصل إلى أضعف الناس، ثم يكشف الجهة التي حركته:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 8–10].[14]

اجتمع في الآيات فعل ظاهر، وقصد خفي، وآخرة حاضرة: طعام يصل إلى المسكين واليتيم والأسير، من غير ثمن يُقتطع من كرامتهم. فالإخلاص يغيّر طريقة العطاء، وما نتركه وراءه في قلب من أخذه.

وأدق امتحان للعطاء يأتي بعد انتهائه. تصنع معروفًا، ثم لا تسمع كلمة شكر؛ فتبدأ النفس تعد ما بذلت. لا تنكر ألم الجحود، لكن قف قبل أن يتحول إلى منّ، واسأل: أي مقابل كنت أنتظره ولم أسمّه؟

14 **الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.**

قد تعين قريبًا في دراسته، ثم ترى نجاحه حقًّا لك في اختيار مستقبله. وقد تقف مع صديق في أزمة، ثم تستثقل أن يخالفك. المعروف لا يشتري ضمير إنسان ولا قراره؛ وكلما خلص لله كان أبعد عن الاستيلاء والإذلال.

وهنا يلزم التفريق بين الحق والمقابل المتوهم. أجر العامل، ودَين المقرض، والنفقة الواجبة، والشرط المباح حقوق تُطلب وتُحفظ. أما الثناء والولاء الدائم فليسا ديونًا تنشأ لمجرد أنك أحسنت. لا تسمِّ ترك الحق إخلاصًا، ولا تأخر المديح ظلمًا.

وإخلاص المعطي لا يربي الآخذ على الجحود؛ فالشكر خلق، ومعرفة فضل الناس من العدل. لكنك لا تجعل ثناءهم غاية العمل ولا شرط استمراره. اشكر من أحسن إليك، واطلب من الله ثواب ما أحسنت به.

وقد يكون المن كلمة صريحة، وقد يكون حكاية تتكرر. تنقضي حاجة أسرة وتريد أن تطوي أيام ضيقها، ثم يعيد من أعانها تفاصيلها في المجالس. توثيق المال عند الحاجة أمانة، لكنه لا يبيح كشف الوجوه والبيوت والأسرار. قبل النشر اسأل: هل تخدم هذه المعلومة صاحب الحاجة؟ وهل أملك الإذن؟

وليس المعروف مالًا فقط. قد يكون معلومة تختصر على طالب طريقًا، أو وقتًا تمنحه لطفل، أو طعامًا عند باب جار، أو زيارة لمريض لا تصورها. هذه الأعمال الهادئة تدرب القلب على الاكتفاء بعلم الله، فلا تصنع من كل خير منصة لنفسك.

ولا يعني الإخلاص أن تستجيب لكل طلب. قد تعجز، أو تجد من هو أحوج، أو يتبين أن المساعدة تزيد الضرر. لا تُضع نفقة واجبة، ولا تُبقِ أذًى مستمرًا، ولا تعد بما لا تقدر عليه. الحكمة تحفظ الخير من أن يتحول إلى ظلم.

وإن آلمك جحود شخص، فداوِ العلاقة بما يصح، ولا تجعل جرحًا واحدًا يغلق أبواب المعروف. قد لا تختفي رغبة الثناء سريعًا، لكنك تستطيع أن تمسك لسانك عن المن، وتستغفر من انتظار القلب، وتجدد قصدك.

«لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا» جهة يعود إليها القلب كلما طالب بنصيبه: نعطي، ونحفظ كرامة من أخذ، ونترك حساب الأجر عند الله. وما أرحم المعروف حين لا تبقى معه كلمة تؤذيه.

الفصل ١٤

لا أسألكم عليه أجرًا

قال الله تعالى في خبر نوح عليه السلام:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 109].[15]

كان نوح عليه السلام ينصح قومه، ولا يجعل استجابتهم طريقًا إلى مال يأخذه منهم؛ أجره على رب العالمين. وفي هذا المعنى تحرير لقلب من يعلّم أو ينصح: لا تجعل حاجة الناس إلى الكلمة سلّمًا تشتري به إعجابهم، ولا تغيّر ما تعرفه من الحق لتحتفظ بمكانك عندهم.

أما أحكام الأجرة على التعليم والخدمات والعقود فلها أبوابها وتفاصيلها، ولا تُستخرج من هذه الآية وحدها. وسؤال هذا الفصل أضيق وأقرب إلى المحاسبة: هل يدفعك المقابل أو القبول إلى كتمان ما يلزم، أو إلى قول ما لا تعلم، أو إلى تزيين جواب يرضي السامع ويضيّع مصلحته؟

15 **الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.**

تخيل معلمًا سأله طالب عن مسألة لا يحسن جوابها. اعتاد الحاضرون أن يروا فيه سعة العلم، فيثقل على لسانه أن يقول: لا أعلم. أمامه طريقان: جواب سريع يحفظ صورته، أو وعد صادق بالمراجعة والعودة. الجملة الثانية أقصر، لكنها أنفع للطالب وأحفظ لأمانة العلم.

ولا يحتاج المعلم بعد ذلك إلى شرح طويل عن تواضعه. يكفي أن يصدق. وقد يكون تمام النصيحة أن يدل السائل على من هو أعلم، وأن يفرح إذا فهم الطالب عند غيره ما لم يفهمه عنده. من أراد نفع المتعلم لله لم يحبسه عند شخصه، ولم ير نجاح معلم آخر خصمًا من قدره.

ومن مواضع الامتحان قصة مؤثرة يسمعها الناس بقلوب مفتوحة. قد يغري نجاحها المتحدث أن يزيد فيها كل مرة، أو أن ينسب إلى النبي ﷺ لفظًا لم يتحقق منه لأن السامعين بكوا. التأثير لا يصحح الخبر، وحسن المقصد لا يحوّل الظن إلى علم. أمانة الواعظ أن يختار الثابت، أو يصرح بحدود ما ينقله، لا أن يجعل انفعال المجلس ميزان الحقيقة.

ويأتي الضغط في صور أخرى: قارئ يريد جوابًا بعينه، أو قريب لا يقبل إلا ما يوافق رغبته، أو جمهور يكافئ العبارة الحادة، أو داعم يكره معلومة لازمة. لا تعرف سريرة أحد، لكنك تعرف قرارك القريب: هل حذفت ما يجب بيانه؟ هل بالغت لتبقى محبوبًا؟ هل وعدت بنتيجة لا تملكها؟ هنا يظهر أثر الإخلاص في اختيار يمكن مراجعته.

ومع صدق البيان يبقى الرفق. ليست القسوة برهانًا على التجرد لله. قد تقول كلمة صحيحة بطريقة تغلق قلب المخاطب قبل أن يفهمها. اختر وقتًا مناسبًا، واصف الخطأ دون إهانة، واترك للإنسان مساحة للسؤال والرجوع. فإن لم يقبل، فلا تنتقم منه بزيادة الأذى، ولا تبدل الحق طلبًا لرضاه.

وقد يكون أصعب الصدق أن تصحح خطأ انتشر على يديك. الاعتراف يجرح الصورة التي صنعتها النفس، لكنه يحفظ من وثق بك. أصلح ما تستطيع بوضوح، ولا تدافع عن عبارة عرفت بطلانها لأن الرجوع محرج. ومن يستمع إليك يعينك حين يحترم قولك «لا أعلم»، ويقبل التصحيح، ولا يجعل الثقة في صوتك بديلًا من صحة كلامك.

يبقى العلم والنصح شريفين حين يطلب صاحبهما ما عند الله ويحفظ حق من أمامه. يقول ما يعلم، ويتوقف فيما لا يعلم، ويرفق بمن يعلّم، ويفرح بالنفع ولو جاء على يد غيره. أما الثناء والانتشار فليسا شهادة بالقبول؛ الأمانة أثمن من صورة لا تبقى.

الفصل ١٥

ربنا تقبل منا

قد يفرغ الإنسان من عمل صالح، فيستريح جسده ويبدأ قلبه يعدّ ما صنع. هنا يفتح القرآن بابًا آخر: ليس السؤال بعد العمل كم أنجزت وحده، بل ماذا بقي بينك وبين ربك؟

> ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

<

> ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128].

يرفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد البيت، ومع عظمة العمل لا يقفان عند صورة البناء ولا ينسبان لأنفسهما كماله؛ يسألان القبول. ثم لا يتحول العمل الماضي إلى شهادة اكتفاء: يسألان دوام الاستسلام، وصلاح الذرية، ومعرفة العبادة، والتوبة. كلما ظهر فضل الله ازداد افتقارهما إليه.

هذا الأدب يحفظ القلب من لحظة دقيقة تأتي بعد الطاعة. قبلها كنت تستعين بالله، وفي أثنائها كنت تخشى التقصير؛ فإذا انتهت ربما قلت في نفسك: فعلت. وسؤال القبول يعيد الجملة إلى حقيقتها: أعانني الله، وبقي أن أرجو فضله.

وليس سؤال القبول بابًا لليأس ولا تفتيشًا مرهقًا عن كل خاطر. المؤمن لا يزكي نفسه، ولا يقضي عليها بالحرمان. يصلح الخطأ الذي يعرفه، ويستغفر من تقصيره، ويرجو رحمة ربه. أما الحكم على سريرته ومآل عمله فليس إليه.

تستطيع أن ترى هذا المعنى في أعمال لا يصفق لها أحد. أمّ سهرت عند طفل مريض حتى هدأ، ثم نام البيت ولم تسمع شكرًا. شاب أصلح بين اثنين من أهله، ثم خرج من المجلس ولم يعرف الناس دوره. امرأة أرسلت صدقة لا يعرف مستفيدها اسمها. وطالب قاوم كسله، فأتم ما عليه بصدق. هذه الأعمال متفاوتة الأحكام والمقاصد، لكنها تلتقي في حاجة صاحبها إلى أن يقول: ربنا تقبل منا.

وقد يأتي الثناء بعد ذلك. إن جاء، فاشكر من أحسن إليك، ولا تجعل كلامه ميزان القبول. وإن سكت الناس، فلا تجعل سكوتهم حكمًا على عملك. الذي سأله الخليلان هو السميع العليم؛ يسمع الدعاء، ويعلم ما ظهر من الجهد وما خفي من القصد.

وفي صيغة الجمع تربية أخرى. بناء البيت لم يظهر في الآية حكاية بطل منفرد؛ إبراهيم يرفع وإسماعيل معه، والدعاء: «منا». وفي البيت الواحد قد يبدأ الخير من شخص،

ويحمله آخر، ويهيئ له ثالث سببه. لا يمحو الإخلاص أسماء الناس وحقوقهم، لكنه يمنع القلب أن يستولي على الخير كله.

لذلك لا تعارض بين سؤال القبول وإتمام ما عليك. إن بقي حق معلوم فأدِّه، وإن بان خطأ فأصلحه، وإن وجب اعتذار فلا تجعل الدعاء ستارًا دونه. ثم لا تسترسل في شك بلا بينة، ولا تعطل الطاعة التالية لأنك لم تحصل على طمأنينة كاملة من نفسك أو من الناس.

وتأمل اقتران القبول بالتوبة في السياق. لم يقولا: أتممنا العمل فحسب، بل قالا: «وتب علينا». الطاعة لا تجعل العبد خارج حاجته إلى المغفرة. وربما كان من أجمل ثمراتها أن يرى فضل ربه ونقص نفسه في وقت واحد: لا يحتقر العمل الذي وفقه الله إليه، ولا يعجب به.

لهذا يمكن أن يصحبك الدعاء بعد صلاة أديتها، أو صفحة قرأتها، أو طعام هيأته لأهلك، أو خصومة أطفأت نارها. قلها من غير استعراض، ثم امضِ. لا تجعلها خاتمة صوتية فحسب؛ اجعلها وقفة قصيرة ترد النعمة إلى واهبها، وتفتح الطريق إلى عمل جديد.

ربنا تقبل منا. كلمة لا تزيد العمل حجمًا في أعين الناس، لكنها تعيد القلب إلى موضعه: عبدًا بذل ما استطاع، وأتم ما عرف من أمانته، ثم لم ير لنفسه غنى عن فضل الله.

الفصل ١٦

صدقة لا يفسدها المن

قد تكون حاجة الفقير إلى الكلمة الطيبة شديدة، كما أن حاجته إلى المال شديدة. تعطيه ما يعينه، ثم تجرحه بذكر عجزه أمام الناس. أو تحسن إليه مرة، ثم تجعله يسمع ذلك منك كلما اختلف معك. وصل المال إلى يده، لكن الأذى تبعه.

قال الله تعالى:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 263–265].

تضع الآية 263 الكلمة الطيبة والعفو في مقابل صدقة يعقبها الأذى، ثم تنهى الآية 264 عن إفساد الصدقة بالمنّ والأذى وتعرض مثل الصفوان لمن ينفق رياء الناس، وتعرض الآية 265 مثل الجنة لمن ينفق ابتغاء مرضاة الله. والمقصود هنا تدبر الفرق بين

العملين ومحاسبة النفس؛ فلا يُتخذ المثل حكمًا على نيات أشخاص بأعيانهم، ولا تُستخرج منه فتوى تتجاوز سياقه.

والمن يذكرنا بأن العناية بالنية لا تنتهي حين تدفع المال. ربما كان إعطاؤك أول الأمر عن رغبة في الخير، ثم غضبت من المستفيد فقلت ما آذاه. لا تقل إن النية الأولى تكفي ولا شأن لما جاء بعدها. انتبه إلى ما تفعل الآن، وتب من الأذى، وأصلح ما تستطيع من أثره.

قد يعينك على ذلك أن تحدد المعروف من البداية. هل هذا مال تتبرع به، أم قرض يسترده صاحبه، أم أجر على عمل؟ الوضوح يحفظ الحقوق. فمن أقرض مالًا فله حق المطالبة به على وجه مشروع، وليس كل تذكير بالدين منًّا. لكن من وهب ثم أراد أن يملك قرار الآخذ بمعروفه خلط الإحسان بما ليس له.

وقد يقع الأذى في أسلوب التسليم نفسه. تؤخر المحتاج عمدًا لتشعره بمقدار حاجته إليك، أو تتحدث إليه باحتقار، أو تكلفه بما لا يلزم للحصول على العون. راجع ما تستطيع إصلاحه. من الخير أن تصل إليه المنفعة بأمان ورفق، لا أن يدفع من كرامته فوق ما به من الحاجة.

وفي المشروعات المنظمة لا يسقط التثبت من الأهلية ولا توثيق الصرف. هذه حقوق تحفظ المال وتوصله إلى مستحقه. لكن يمكن أن تؤدى الإجراءات باحترام، وأن يشرح

المطلوب بوضوح، وأن تصان البيانات الخاصة. الإخلاص لا يناقض النظام، والنظام لا يحتاج إلى إهانة.

وقد يتعثر مشروع أحسنت إليه، فيغضب قلبك. لك أن تسأل عن مالك، وأن تطلب المحاسبة، وأن تسلك سبيلًا صحيحًا لإصلاح الخلل. لا يعني طلب القبول أن تسكت عن تضييع الأمانة. لكن تجنب ما لا يحق لك: اتهام القلوب، ونشر ما لا تعرف صحته، وإذلال من لم يكن مسؤولًا عن الخطأ.

وللقلة في العطاء نصيب من الخير. لا تمتنع عن معروف تستطيع تقديمه لأن غيرك يبذل أكثر. قد يكون مالك قليلًا وقدرتك محدودة، فابدأ بما لا يضيع واجبًا عليك. جاهد نفسك في صدقه، وحسن وضعه، وترك المن به. لا نعرف مقدار ما يقبله الله من عباده، ولا نحصر الأجر فيما يستحسنه الناس من أرقام كبيرة.

وتحتاج الصدقة المستمرة إلى ترتيب واقعي. اختر قدرًا تستطيع الوفاء به، وتحَرَّ موضع النفع، وجدد نيتك. لا تجعل كل عطاء ينتظر قصة جديدة تثير مشاعرك. إن عرفت حاجة ثابتة وقدرت على إعانتها، فقد عرفت بابًا صالحًا للعمل، وإن كان الحديث عنه لا يجذب اهتمامًا واسعًا.

وإذا سبق منك منّ أو أذى، فليس الاعتراف به نهاية الخير. استغفر الله، وامنع لسانك من العودة، وأصلح ما أفسدت بحسب استطاعتك. قد يكون من الصدق اعتذار إلى من

جرحته، أو إزالة كلام نشرته عنه، أو وقف أسلوب يذله. لا يكفي أن تقول إن قصدك كان طيبًا وأنت تبقي الأذى قائمًا.

الصدقة التي نرجوها لله إحسان في القصد والفعل. نعطي من مال حلال، ونتحرى النفع، ونحفظ كرامة الآخذ، ونسأل الله القبول. ثم نترك ما بذلناه من غير أن نتخذه حقًّا في إهانة أحد. هكذا يبقى معروفنا أقرب إلى المعنى الذي أحببناه حين قرأنا القرآن، لا إلى صورة حسنة أفسدها كلام جاء بعدها.

الباب ٣

النية قبل العمل وبعده

نبدأ العمل لله، ثم تعرض لنا أثناءه رغبة في الثناء. وننتهي من معروف، ثم نتحدث عنه بطريقة تجرح من أحسنا إليه. فالنية ليست بابًا نعبره مرة عند البداية؛ نحتاج إلى مراجعتها ونحن نعمل، وحين نفرغ أيضًا.

ولا تعني هذه المراجعة أن نعيش في قلق مستمر. النية قصد يعيننا فهمه على التصحيح، وليست لغزًا نعيد حله قبل كل حركة. نعمل بما علمنا، وندفع ما نعرف أنه يفسد قصدنا، ونستعين بالله في الحالين.

وفي هذا الباب سعة ورحمة: ينال العبد خيرًا بنية صادقة حبسَه العذر عن العمل بها، ويحتسب في أمر معتاد فيصير له فيه أجر. ونتعلم التفريق بين العجز والتكاسل، وبين المنفعة المباحة والرياء، حتى نحسن العمل من غير غلو ولا تساهل.

الفصل ١٧

الهجرة والقصد

قد يغيّر الإنسان مدينته أو صحبته أو طريق دراسته، ثم يكتشف أن قلبه حمل معه ما كان يريد الهرب منه: انتظار الثناء، أو التعلق بالصورة، أو الرغبة في أن يبدو أصدق مما هو عليه. تتبدل المسافة، ويبقى سؤال القصد حاضرًا.

يرى الناس سفرًا واحدًا، لكن منزلة العمل تتصل بما نواه صاحبه. لم يجعل الحديث طلب الرزق الحلال أو الزواج معصية؛ إنما فرّق بين هجرة يراد بها وجه الله، وانتقال يراد به غرض دنيوي مباح. لا يأخذ العمل اسم الطاعة وثوابها لمجرد أن صورته تشبه أعمال الصالحين.

وهذا المعنى أوسع من السفر. يدخل اثنان مجلس علم؛ يريد أحدهما أن يتعلم ما يصلح عبادته، ويحضر الآخر لغرض مباح، وقد يتسلل إلى ثالث حب أن يراه الناس قريبًا من أهل الخير. نحن نرى المقاعد والكتب، ولا نرى القلوب؛ لذلك لا نحكم على سرائرهم، لكن كل واحد منهم يستطيع أن يسأل نفسه عمّا جاء به.

وقد تنتقل أسرة إلى حي أقرب إلى الوالدين لتقوم بحقهما، ثم تصبح الزيارات عبئًا تؤجل كل أسبوع. لا يعني ذلك أن القصد الأول كان كذبًا، لكنه يحتاج إلى عمل يحفظه. النيات الصالحة لا تعيش بالاسم؛ تعيش بالوفاء القريب الذي يصدّقها.

وقد تبدأ حفظ القرآن لأنك تريد كلام الله، ثم تفرح حين تسبق رفاقك. الفرح بالتقدم ليس ذنبًا في نفسه، لكن الخطر أن يصير التفوق أهم عندك من القرآن، فتضيق بمن يحسن أكثر منك أو تتوقف حين يغيب المديح. عندها لا تحتاج إلى هدم الطريق؛ تحتاج إلى إعادة القلب إلى وجهته.

ومن الصدق أن تسمّي أغراضك المباحة بأسمائها. إن سافرت للتجارة، أو اخترت تخصصًا لفرصة رزق، أو سكنت قريبًا من المدرسة، فلا حاجة إلى قصة كبيرة تزين بها القرار. المباح لا يفتقر إلى ادعاء بطولة دينية، ويمكنك أن تضيف إليه نية صالحة حقيقية: كف النفس، والقيام بالأسرة، وأداء الأمانة.

وفي القرارات الكبيرة يعينك سؤال القصد على ترتيب الأسباب: ماذا أريد؟ وهل الطريق الذي اخترته مشروع؟ وهل أضيّع حقًّا ثابتًا وأنا أطارد رغبة حسنة في أصلها؟ لا تمنع هذه الأسئلة الطموح، بل تحميه من أن يأكل ما حوله باسم غاية جميلة.

وقد يكون من الإخلاص أن تقبل أن يتم الخير على يد غيرك. تبدأ حلقة لتعليم الصغار، ثم تتغير ظروفك ويواصلها من هو أقدر. إذا كان المقصود أن يتعلموا، فاستمرار النفع

يفرحك ولو غاب اسمك. أما إذا لم تعد ترى الخير خيرًا إلا حين ينسب إليك، فقد كشف الموقف موضعًا يحتاج إلى إصلاح.

لا يعرف الناس جميع دوافع قرارك، ولا يلزم أن تشرح لهم خبايا قلبك. قد تحتاج إلى بيان يحفظ حقًّا أو يدفع تهمة ظالمة، فتفعل بقدر الحاجة. أما النية التي بينك وبين الله فلا تصبح أصدق بطول الحديث عنها؛ يصدقها عمل يحفظ الأمانة حين لا يراك الجمهور.

وإذا اكتشفت أن مقصدًا صالحًا ضعف في الطريق، فلا تيأس ولا تتظاهر بأنه لم يتغير. أصلح الخطوة التالية: اعتذر ممن قصرت في حقه، أو رد مالًا، أو اقبل تعاونًا، أو توقف عن استجلاب المديح. صدق البداية نعمة، لكنه لا يغني عن صدق الاستمرار، والضعف العارض لا يغلق باب الرجوع.

يسألنا حديث الهجرة عن حقيقة ما نريد، لا عن الصورة التي نحب أن يرانا عليها الناس. قد تقطع مسافة طويلة ويبقى قصدك كما كان، وقد تصلحه في خطوة قريبة فتتحول من طلب ثناء الخلق إلى ابتغاء رضا الله.

الفصل ١٨

قبل أن تبدأ

كتبت رسالةً تنصح فيها شخصًا أخطأ. وفي يدك زر الإرسال، وفي صدرك ضيقٌ منه. قبل أن تضغطه، اقرأ كلامك مرةً أخرى: هل ثبت ما تقوله؟ وهل تقصد إصلاح الخطأ، أم تريد أن تُشعره أنك أعلى منه؟ وهل يمكن أن تحفظ المعنى نفسه بكلمة أرفق أو بحديثٍ على انفراد؟

هذه الوقفة لا تطلب منك أن تفتش قلبك طويلًا. إنها تعيدك إلى ما تعرفه وتقدر عليه: تثبّتٌ في الخبر، وصدقٌ في الغرض، ورفقٌ في العبارة. وقد تمنع أذى لا يمحوه اعتذار متأخر.

وفي الصلاة وسائر العبادات، لا يلزم أن تصوغ في داخلك كلامًا خاصًّا قبل كل عمل، ولا أن تنتظر شعورًا قويًّا حتى تبدأ. يكفي أن تعرف العبادة التي تقصدها وتريد بها وجه الله، ثم تؤديها على ما شُرع. هذا شرحٌ لمعنى النية كما يحرره أهل العلم، لا لفظٌ منقول عن ابن رجب؛ وإحالته هنا إلى موضع بيان النية والرياء في كلامه.[16]

16 **ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الأول: «إنما الأعمال بالنيات».**

قد تؤدي واجبك وأنت متعب، أو تقوم على شأن والديك مع ما فيه من مشقة، أو تواصل درسًا نافعًا بعد فتور الحماس. صدق القصد لا يُقاس بحرارة الانفعال؛ فقد يضعف شعورك ويبقى اختيارك للطاعة حاضرًا. لا تؤخر العمل المعلوم حتى تشعر بالكمال، ولا تجعل القلق على الإخلاص تكليفًا جديدًا لم يرد.

وفي المال، ابدأ بأداء الحق قبل أن تنشغل بصورة الكرم: ألك ولاية على ما تريد التبرع به؟ وهل المال لك أم مشترك؟ لا يصير التصرف في حق غيرك قربةً بمجرد حسن النية. قدّم الأمانة، ثم تصدّق مما تملك وتستطيع.

وإذا وصلك خبر يستفزك، فقد يكون الدفاع عن مظلوم مقصدًا حسنًا؛ لكنه لا يغني عن التثبت. لا تنقل اتهامًا لم تعرف صحته، ولا تجزم بما لا تملك عليه بينة. صدق النصرة يبدأ أحيانًا بإبطاء النشر، أو بحذف عبارةٍ زائدة، أو بالصمت حتى يتضح الأمر.

وفي العمل المعتاد، وفي رعاية البيت، وفي تعليم طفل أو مساعدة زميل، تستطيع أن تقصد معنى صالحًا تعرفه من غير قائمة طويلة تكررها على نفسك. أدِّ الأمانة، وانفع من تستطيع، واطلب الأجر من الله. وإذا تكرر منك ضعفٌ بعينه—كالقسوة عند النقد أو المبالغة في ذكر إنجازك—فاجعل انتباهك عند ذلك الموضع، لا في تفتيش عام يستهلك يومك ولا يبيّن لك خطوةً تصلحها.

وقد يعينك التخطيط على الصدق: راجع عبارة قبل مجلس، ولا تعد بما لا تقدر عليه، ونظّم وقتك كيلا تحمل ضيقك على من ينتظرك. لكن لا تجعل الاستعداد بديلًا عن الفعل، ولا تقل إنك ستؤدي حقًّا واضحًا بعد أن تطمئن تمامًا إلى نفسك. أدِّ ما عليك، واستعن بالله على تحسين قصدك.

إذا بدأت، فامض في العمل. إن ظهر لك خطأٌ معلوم فأصلحه؛ وإن كان مجرد احتمال عابر فلا تحوّله إلى سبب لقطع العبادة أو إعادتها. وما أشكل عليك من حكم فاسأل أهل العلم، ولا تضع للعبادة احتياطًا من عندك. وادع الله أن يعينك على الصدق وحفظ اللسان، ثم خذ بالسبب الذي تقدر عليه.

قد يكون الإخلاص في هذه اللحظة جملةً حذفتها قبل الإرسال، أو حقًّا رددته، أو طاعةً أتممتها مع فتورك. لا تحتاج إلى أن يراك الناس وأنت تصلح قصدك؛ يكفي أن تعرف موضع خطوتك، وتستعين بالله، ثم تمضي.

الفصل ١٩

حين يتغير قصدك

قد تبدأ القراءة في صلاتك لله، ثم تنتبه إلى شخص يسمعك. يخطر لك أن يحسن ظنه بصوتك وعبادتك. لم تطلب هذا الخاطر أولًا، لكنه مر بقلبك. ماذا تصنع؟ هل تحكم أن الصلاة كلها فسدت؟ أم ترضى بالخاطر وتزيد في التصنع؟ أم تدفعه وتعود إلى قصدك؟

هناك فرق بين ما يعرض للنفس وما تختاره وتسترسل فيه. الخاطر الذي تكرهه وتدفعه ليس كالغرض الذي تنشئ العمل لأجله. وهذا التفريق مهم، لأن الخوف غير المنضبط قد يجعل الإنسان يرى مجرد ما يكرهه في نفسه دليلًا على أنه أراده.

قال النبي ﷺ:

> «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به أو تكلم».[17]

17صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، حديث رقم 6664.

في الحديث رحمة بحديث النفس العابر. ولا يستقل هذا الحديث ببيان جميع أحكام القصد والعزم والرياء؛ فهذه تُرد إلى مجموع أدلتها وتفصيل أهل العلم. والمقصود هنا ألا نساوي بين خاطر عابر يدفعه المرء وبين اختيار يتبناه.

ويذكر ابن رجب رحمه الله في شرح حديث النيات الفرق بين عمل بدأ رياء، ورياء طرأ فدافعه صاحبه، ورياء استرسل معه بعد بداية صالحة. وتتفاوت أحوال القصد والعمل، فلا يُطلق فيها حكم واحد دون تفصيل أهل العلم.[18] وما يعنينا حين ننتبه إلى خلل نعرفه أن نصلحه، وألا نصدر حكمًا على عبادتنا من مجرد فزعنا.

قد تلقي كلمة نافعة، ثم ترى إعجاب الحاضرين. تخطر لك إضافة قصة لا تعرف ثبوتها لأنها ستزيد تأثرهم. هنا تستطيع أن تصلح شيئًا واضحًا: لا تضفها. أكمل بما تعلم صحته. لم يمنعك من الخطأ نقص الفرصة، بل قرار اتخذته حين عرفت أنه لا يصح.

وقد يكون الامتحان حين يقل اهتمامهم. يشعر المتكلم أن الناس لم يعطوه ما كان ينتظره، فيقسو عليهم أو يترك إتمام ما جاء لأجله. وربما كانوا متعبين، أو كان الكلام طويلًا، أو لم يفهموا طريقته. الإخلاص يعينه أن يسأل عن نفعهم، لا أن يعاقبهم لأنهم لم يظهروا إعجابًا كافيًا.

---

18 **ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الأول: «إنما الأعمال بالنيات».**

وفي العمل الجماعي قد تبدأ راغبًا في الخدمة، ثم تستميلك مكانة صرت تحظى بها. ليس نافعًا أن تقول: ما دمت بدأت لله فلا شأن لما تغير. انتبه لما تعرفه الآن. هل تمنع مشاركة غيرك؟ هل تخفي خطأ لتحافظ على صورتك؟ هل تقبل أن يسند العمل إلى من هو أقدر؟ هذه مواضع تستطيع أن تصدق فيها.

ولا يلزم أن تعلن لمن حولك كل ما تجد في نفسك. قد تحتاج إلى استشارة خاصة، فتطلبها. لكن الاضطراب الداخلي لا يعالج دائمًا بشرحه أمام الجمهور. استغفر في سرك، وصحح ما تفعل، واحفظ حقوق من يعتمدون عليك. اجعل البيان بقدر الحاجة، لا رغبة في أن يعرفوا دقة محاسبتك.

وفي الصلاة خصوصًا، لا تقطع العبادة من تلقاء نفسك لأن خاطرًا أقلقك. ادفع ما لا تريده، وأكمل صلاتك على وجهها. وما اشتبه عليك حكمه فاسأل فيه أهل العلم. لا تجعل تكرار العمل طريقًا تلقائيًا كلما عادت الوساوس، فقد يزيدك ذلك حيرة من غير أن يصلح قصدك.

وقد تنشط في الطاعة مع غيرك نشاطًا لا تجده وحدك. ليس هذا وحده رياء. قد يعينك تعاونهم، أو تذكيرهم، أو تنظيمهم للوقت. ويختلف ذلك عن تحسين العبادة من أجل مدحهم. لا تنقل حكمًا على القلب من مجرد فرق في النشاط له أسباب محتملة.

ومن الرفق النافع أن تسمي الخطأ الذي تعرفه من غير أن تجعله وصفًا لازمًا لك في كل شيء. قل: في هذا الموقف طلبت المديح، وأحتاج إلى التوبة وإصلاح ما فعلت. لا تقل: أنا لا خير فيّ، فلا ينفع مني عمل. الجملة الأولى تدلك على مسؤولية، والثانية قد تصرفك عن الإصلاح كله.

وقد تعينك معرفة السبب المتكرر. إن كان النظر إلى التعليقات يشغلك عن صدق رسالتك، فخفف ملاحقتها. وإن كنت تتوسع في الحديث تحت تأثير الإعجاب، فأعد كلامك مسبقًا. وإن كنت تغضب عند غياب اسمك، فتعلم أن تذكر جهود غيرك بإنصاف. هذه وسائل تعين على المجاهدة، وليست ضمانًا يعفيك من الدعاء والمراجعة.

وكلما رجعت فلا تزكِّ رجوعك. قد يدخل العجب من أنك انتبهت إلى أمر لم ينتبه إليه غيرك. يكفيك أن تحمد الله أن دلّك على تقصيرك، وأن تعمل على إصلاحه. حاجتنا إلى ربنا لا تنتهي عند معرفة العيب، بل تبدأ معها حاجة إلى عونه على تغييره.

إصلاح القصد في أثناء العمل ممكن. لا تستسلم لما فسد، ولا تترك ما صح لأنك خفت عليه. ارجع إلى إرادة وجه الله، وأتم ما عليك، واطلب القبول. قد تتكرر المجاهدة، لكن تكرار الرجوع أرجى لك من الإصرار على الخطأ أو اليأس من مقاومته.

الفصل ٢٠

بعد أن ينتهي العمل

دفعت الصدقة، أو أتممت مساعدة، أو صبرت على أذى. انتهى الفعل، لكن نفسك قد تعود إليه بعد ذلك. تريد أن تحكي كم بذلت، وأن يعرف من حولك ما فعلت، وربما تنتظر أن يثنوا على صبرك كما أثنوا على إحسان غيرك.

ليس كل حديث عن الخير ممنوعًا. قد يحتاج العمل إلى تقرير، وقد يشجع المثال الصادق أناسًا على المساعدة، وقد يلزمك بيان جهدك لحفظ حق. لكن الحكاية تحتاج إلى نية وأمانة كما احتاج العمل إليهما. ماذا تريد أن يعرفه السامع، ولماذا تريد أن يعرفه؟

قد تقول إنك تتحدث بنعمة الله، ثم تروي الأمر نفسه في كل مجلس، وتضيف إليه ما يزيد صورتك حسنًا. قف عند هذه الزيادة. شكر الله لا يحتاج إلى الكذب، ولا إلى كشف ضعف إنسان، ولا إلى إظهار أنك أفضل ممن حولك. إن كان الحديث شكرًا فليكن صادقًا سالمًا من الأذى.

ومن أكثر ما يضر المعروف أن نعيده في الخصومات. تحسن إلى قريب، ثم لا يوافقك في رأي، فتذكره بما صنعت له. كأن قبول عطائك القديم أسقط حقه في مخالفتك أو

نصحك. تستطيع أن تكون محسنًا في أمر ومخطئًا في آخر، ولا يبيح الأول أن تحتمي به من إصلاح الثاني.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 264].[19]

صدر الآية يعيدنا إلى ما بعد البذل: لا يحفظ المرء معروفه إذا أتبعَه تذكيرًا جارحًا أو أذًى. فإذا علمت أنك آذيت بمنّك، فتوقف وتب، وأصلح ما تستطيع من أثر كلامك.

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ».[20]

---

19 الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.

20 صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم 2642.

فالمدح الذي يأتي بعد عمل الخير من غير طلب ليس هو إنشاءَ العمل لطلب المحمدة. وقد يفرح المؤمن بكلام حسن، لكن عليه أن يحذر من تحويل هذا الفرح إلى تعمد استجلاب الثناء أو تزيين الخبر عن نفسه.

ربما شكرك شخص في مجلس، فذكرك الشكر بأعمال أخرى لم يعلم بها. تستطيع أن تدع الأمر عند هذا الحد، وتستطيع أن تستدرج الحديث ليعرف المزيد. هذه لحظة بسيطة، لكنها فرصة للصدق. لا يلزم أن تُتم صورة فضلك في أذهانهم. ما لم يحتاجوا إليه من أخبارك، قد يكون تركه أسلم لقلبك وأرفق بمن يتعلق بهم.

وإذا احتجت إلى رواية تجربة نافعة، فافصل بين نفع التجربة وعرض نفسك. يمكنك أن تذكر الفكرة والخطوات التي تنفع، من غير تسمية المستفيد أو كشف ما يستحي منه. وقد لا تحتاج إلى نسبة القصة إليك أصلًا. اختر ما يحقق المصلحة ويحفظ الصدق، لا ما يزيد الإعجاب وحده.

ومن تمام العدل أن تصحح نسبة جهد حين يترتب عليها حق. إن نُسب عملك إلى غيرك في تقييم أو أجر أو ادعاء مضلل، فلك أن تبين الحقيقة بأدب. الإخلاص لا يطلب منك أن تقر باطلًا. لكن ليس كل غياب لاسمك في كلام عابر اعتداء يحتاج إلى رد.

وقد يحمي الإنسان عمله من حديث الناس ثم يغتر به في نفسه. يقول في سره إنه صار خيرًا من زملائه، أو أحق منهم بالتقدير. الخفاء وحده لا يعالج العجب. تذكر أن الله

هو الذي أعانك، وأنك لا تعلم خبايا أعمالهم، وأن لك من التقصير ما يشغلك عن تزكية نفسك عليهم.

ولا يعني هذا أن تحتقر كل ما فعلت. فرحك بأن الله وفقك إلى طاعة يمكن أن يكون باب شكر. الفرق بين الشكر والعجب أن الشاكر يعرف النعمة ويرد فضلها إلى الله، أما المعجب فينظر إلى نفسه نظرة استغناء واستعلاء. نحتاج إلى الأول، ونجاهد الثاني.

وبعد المراجعة يأتي وقت للمضي. بعض الناس يحبس نفسه في عمل انتهى، يعيد التفكير فيه حتى يضيع ما بين يديه. إن عرفت خطأ فأصلحه، وإن عرفت حقًّا فأده، ثم اسأل القبول وانتقل إلى واجبك التالي. لا تطلب من ذاكرتك علمًا بسريرتك لا يحيط به إلا الله.

وقد يكون من حسن ختام المعروف أن تشكر من أعانك عليه. المساعدون والأهل ومن دلّك على الحاجة شركاء في سبب الخير. لا تجعل الحديث عن نيتك ينسيك حقوقهم. اذكر فضلهم كما تحب أن يذكر الناس فضلك بالحق، وادع لهم ولو لم يعلموا.

ينتهي العمل وتبقى حاجتنا إلى الله. فلا نسترد ثمنه من الناس بحديث يؤذيهم، ولا نغتر به في أنفسنا، ولا نيأس بسبب نقص عرفناه. نصلح، ونستغفر، ونرجو القبول. ثم نبدأ عملًا آخر ونحن أصدق في معرفة ما نريد، وأرفق بمن يصل إليه إحساننا.

الفصل ٢١

حتى اللقمة

روى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

> «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ».[21]

تقرب كلمة «حتى» المعنى إلى حياتنا: ليس رجاء الأجر مقصورًا على عمل بعيد أو نادر؛ فقد يكون في نفقة البيت، وفي لقمة تقدمها لمن تحب.

تأمل مقدار الألفة في هذا العمل. طعام في البيت، وزوجان، ومعروف قريب. ثم يأتي ابتغاء وجه الله فيجعل العبد يرجو الأجر فيما كان يظنه عادة لا يلتفت إليها. لا يحتاج أن يغيّر حياته إلى مشهد غير مألوف حتى يجد بابًا للإخلاص.

وروى أبو مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

---

21 **صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 56.**

> «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ».[22]

والاحتساب أن يطلب العبد الأجر من الله في إنفاقه. يحب أهله وينفعهم، ويقصد مع ذلك أن يقوم بحقهم كما أمره ربه. فلا تتعارض المحبة الطبيعية مع الاحتساب إذا كان العمل صحيحًا والقصد صالحًا.

قد ينتهي يومك وتقول: لم أجد وقتًا لخير كثير. ثم تنظر فتجد أنك خدمت والدًا، وتابعت حاجة لابنك، وبذلت من كسبك لأهلك، وأديت أمانة. لا تجعل اعتياد هذه الأعمال سببًا لاحتقارها. تعلّم أن تحتسب فيها، وأن تحسن أداءها، بدل أن تنتظر دائمًا عملًا آخر خارج حياتك.

ولا يعني الاحتساب أن تخبر أهلك كل مرة أنك تتعبد بالنفقة عليهم. قد يصبح هذا الكلام نفسه منًّا يثقل عليهم. يكفي أن يعرف الله قصدك، وأن يصل إليهم الحق بكرامة. تريد أجره، فلا تجعل من تؤدي إليه حقه يسمع ما يشعره بأنه عبء لا يُحتمل.

وقد يكون مقدار المال مناسبًا، لكن طريقة البذل تحتاج إلى إصلاح. يعطي المرء ثم يهين، أو يذكر فضله عند كل خلاف، أو يجعل الضرورات وسيلة للتحكم. ليس الإنفاق

---

22 **صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 55.**

المالي تعويضًا عن كل إساءة. من طلب وجه الله حرص على أن تصحب النفقة معاملة يرضاها الله.

وعلى من يأخذ النفقة أن يشكر ولا يجحد الجهد. نرجو للمنفق الأجر، ولا نبيح لغيره أن يستهين بتعبه. يستطيع أهل البيت أن يتعاونوا، وأن يرتبوا الحاجات، وأن يسمع بعضهم بعضًا. ليست الموعظة بالإخلاص وسيلة لنكلف شخصًا فوق طاقته ثم نلومه إن طلب المساعدة.

وكثير من أعمال البيت لا ينتبه إليه الآخرون حتى يغيب. إعداد طعام، وتنظيف، ورعاية صغير، وسهر على مريض، ومتابعة تفاصيل متكررة. من قام بها يرجو الله فلا يحتقر عمله، ومن انتفع بها فلا يعدها شيئًا لا يستحق الشكر والمشاركة. الرحمة تبدأ من رؤية ما يتحمله من يعيش معك.

وقد تتلطف مع ضيف لأنك تريد إكرامه، ثم تضيق بمن في بيتك لأنهم حاضرون دائمًا. لا يلزم أن يبقى البيت على هيئة استقبال الضيوف كل ساعة، لكن القرب ليس سببًا لإسقاط حسن الخلق. من يحبونك لا يستحقون أقل نصيب من رفقك لأنك لا تخشى فقدهم سريعًا.

ومن الحكمة أن تعترف بتعبك قبل أن يتحول إلى أذى. تستطيع أن تقول إنك تحتاج إلى راحة، أو أن تطلب تقسيم المهام، أو أن تؤجل ما ليس ضروريًّا. الإخلاص ليس

ادعاء أنك لا تتعب. بل أن تصدق في قصدك وفي حدود قدرتك، وألا تحمل الآخرين نتيجة وعد لا تستطيع الوفاء به.

والإنفاق له حدود تحفظه من الخطأ. المال من حلال، والمصرف مشروع، ولا إسراف يضيع حقًّا، ولا تمييز ظالم. حسن النية يزيد العمل الصحيح خيرًا، لكنه لا يحوّل التجاوز إلى فضيلة. فإن أشكل عليك ترتيب الحقوق، فاسأل عنه بدل أن تختار ما يعجبك ثم تسميه كرمًا.

قد تكون أول خطوة في بيتك صغيرة: أن تؤدي حاجة بلا تبرم جارح، أو تسمع شكوى قبل أن تجيب، أو تساعد في عمل لم تكن تراه مسؤوليتك وحدك ولا مسؤولية غيرك وحده. لا تحتاج أن تنتظر اتفاقًا كاملًا في كل المسائل لتبدأ بما تقدر عليه من إحسان واضح.

وحين تفعل، استحضر نص الحديث: ابتغاء وجه الله قد يصحب لقمة في البيت. وهذا لا يقلل شأن الأعمال الكبيرة، لكنه يحفظك من إهمال الخير القريب. فلا تجعل من تحب آخر من يصل إليه خلقك الحسن لأن العالم خارج البيت أكثر تصفيقًا.

ربما لا يتذكر أهلك كل مرة اشتريت فيها طعامًا أو قضيت لهم حاجة، لكنك تستطيع أن ترجو ما عند الله. وهو رجاء لا يمنع الشكر والتعاون، بل يجعل المعروف أصدق وأقل

منًّا. فابدأ من بيتك، واطلب رضا ربك فيما تفعله كل يوم، ولا تحتقر عملًا صحيحًا لأن صورته مألوفة.

الفصل ٢٢

حبسهم العذر

روى أنس رضي الله عنه:

> «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ: إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ».[23]

بقي أولئك في المدينة، لكن العذر منعهم من الخروج. لم يغب عن علم الله صدق رغبتهم في الخير.

في هذا الحديث رجاء لمن حيل بينه وبين عمل يحبه. قد يمرض بعد أن كان قادرًا، أو يضيق ماله بعد سعة، أو يقوم على أمانة لازمة تمنعه من مشاركة كان يرجوها. ليس كل غائب عن عمل زاهدًا فيه، وليس كل من عجز عنه محرومًا من كل فضل.

23صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم 2839.

ونقف عند كلمة «العذر». الرحمة التي في الحديث لا تجعل التكاسل قدرة معذورة. من استطاع واجبًا فلا يتركه ثم يكتفي بأن يقول إن نيته طيبة. النية الصادقة والعذر الحقيقي غير أمنية يستريح إليها قادر لا يريد أن يبذل ما يستطيع.

وقد يصعب على من تغيرت صحته أن يقبل تغير قدرته. يتذكر عمله القديم فيحزن، ويقرأ أخبار المجتهدين فيشعر أنه لم يعد له مكان بينهم. يحتاج إلى أن يعرف أن الله يعلم حاله، وأنه لا يكلفه ما لا يطيق. لا يزدرِ رجاءه ولا يجعل المرض حكمًا على قربه من ربه.

وليس الحزن على فوات طاعة اعتراضًا بمجرده. قد يشتاق الإنسان إلى مسجد اعتاده، أو خدمة كان يفرح بها، فيتألم حين يعجز. يستطيع أن يسأل الله العافية، وأن يحزن لفوات ما يحب، وأن يحفظ مع ذلك أدب العبودية. لا يلزمه أن يتظاهر بأن التغير لا يوجعه.

وقد يبقى في قدرته خير لا يشبه ما مضى. كلمة صادقة، أو دعاء، أو نصح بقدر علمه، أو رفق بمن يرعاه. نذكره بهذه الأبواب من غير أن نلزمه بإثبات نفعه حتى نحترمه. المريض له حق الرحمة والرعاية، وليس عليه أن يعوض مرضه بإنجاز يرضي من حوله.

ومن بقي إلى جانب والد محتاج أو طفل لا يجد من يقوم عليه، قد يكون قائمًا بحق أسبق من تطوع فاته. ليس كل غياب عن نشاط ظاهر نقصًا في الهمة. حين نرى الناس

في أعمال الخير، فلنحفظ في أنفسنا احتمال أن للغائب أمانة لا نعرفها أو عذرًا لا يريد كشفه.

وأنت أيضًا لست ملزمًا بذكر تفاصيل مرضك أو شأن بيتك لكل من سأل. بيّن ما يلزم لتنظيم حق أو رفع تهمة، واحفظ ما عدا ذلك. لكن لا تترك من ينتظرك في مهمة حائرًا؛ الاعتذار الواضح والبلاغ في وقته من الأمانة، وإن بقيت تفاصيل عذرك خاصة.

وقد يؤلمك أن يتولى غيرك عملًا كنت تحبه. لا تستعجل اتهام نفسك بكل ألم، لكن انتبه ألا تحوله إلى تمني فشله. تستطيع أن تدعو له، وأن تفرح بنفع الناس، وأن تقدم ما تقدر عليه من مساعدة. لم يصبح الخير سيئًا لأنك لم تعد أنت من يقوم به.

ولا يلزم أن تدير كل شيء من بعيد لتطمئن إلى بقاء مكانك. قد يحتاج من تولى العمل إلى نصيحتك، لكنه يحتاج أيضًا إلى مساحة يتعلم فيها ويجتهد. قدم علمك بأمانة، ولا تجعل اختلاف طريقته عن طريقتك برهانًا على خطئه من غير نظر.

ومن صدق الرجاء أن تهيئ لما تستطيع إن زال العذر. لا تحتاج إلى وعود ضخمة تُتعبك. قد تنوي أن تعود إلى عادة صالحة بقدر يناسب حالك، وأن تبدأ بخطوة واقعية. أما إن بقي العذر، فاستمر في سؤال الله الخير ولا تعاقب نفسك على قدرة لا تملكها.

وفي التعامل مع الآخرين، لا تستعمل الحديث لإسكات حاجاتهم العملية. من عجز عن عمل قد يحتاج إلى تيسير الطريق إليه، أو وسيلة تناسبه، أو رعاية تعينه. لا نكتفي بأن

نقول له إن النية تكفي ثم نمنع ما نستطيع من المساعدة. نرجو له فضل الله، ونؤدي نحن حقه علينا.

وقد يجتمع في القلب رجاء للثواب وشوق إلى العمل نفسه. وهذا معنى جميل: أن يحب الطاعة لا صورتها أمام الناس. إذا جاءتك فرصة ممكنة، فخذ بها، وإن لم تتيسر فلا تيأس. لا نحدد من عندنا مساواة كل عاجز بكل قادر في كل حال؛ نؤمن بما جاء من الفضل ونحسن الظن بربنا.

أخبر النبي ﷺ أن الذين حبسهم العذر كانوا مع الخارجين في الطريق الذي سلكوه. لم تحملهم أقدامهم، لكن صدقهم لم يغب عن الله. فمن حُبس بعذر فلا يحتقر نيته، ومن قدر على خير فلا يتخذ النية عذرًا لتركه. الرحمة والصدق يجتمعان، وبهما يستقيم رجاؤنا وعملنا.

الفصل ٢٣

حين تصدق الأمنية

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ».[24]

يعلّق الحديث الفضل بصدق السؤال؛ فليس حديثًا عن أمنية تُقال لتُجمّل صورتنا، بل عن رغبة صادقة يعلم الله حقيقتها. ولفظه في سؤال الشهادة، فلا يُتخذ وحده إذنًا بتعمد تعريض النفس للضرر أو تجاوز حكم شرعي.

قد يرسم القلب صورة لما يرجوه، ثم يكتشف أن الطريق إليها أطول مما ظن. هنا يظهر سؤال نافع: ما العمل الممكن الذي يوافق هذه الأمنية اليوم؟ ليس المطلوب أن يحقق المرء كل مراده دفعة واحدة، ولا أن يحكم على نفسه بالنفاق كلما قصّر؛ بل أن يختبر صدق رجائه بخطوة في وسعه.

24صحيح مسلم، حديث رقم 1909.

قد تتمنى مالًا واسعًا لتعين به محتاجًا. لا يلزم أن تنتظر اتساع الرزق حتى تبدأ: أدِّ حقًا تعرفه، واحفظ أمانة اؤتمنت عليها، أو خصص من وقتك ما تقدر عليه. هذه الأعمال لا تثبت وحدها منزلة القلب، لكنها تخرج الخير من دائرة التمني إلى دائرة الفعل.

وقد تتمنى علمًا ينفع الناس، ثم تؤجل درسًا يتكرر موعده. بدل أن تكتفي بلوم نفسك، فتش عن العائق: أهو حقٌّ أولى يشغل وقتك، أم حاجة إلى تنظيم، أم أن الخطة أكبر من طاقتك؟ معرفة السبب تفتح بابًا للعمل؛ أما العتاب العام فيستنزف الهمة من غير أن يبدل العادة.

وربما تشتهي مشروعًا كبيرًا، لكنك تنفر من مهمة صغيرة لا يعرف الناس من أنجزها. لا تتهم نفسك سريعًا ولا تبرئها سريعًا؛ اسأل: هل أريد النفع، أم أريد صورتي وأنا أحققه؟ قد تجتمع في النفس دوافع، ومحاسبتها تبدأ بأن تقبل عملًا نافعًا لا يمنحك كل ما تخيلت من ثناء.

والبدايات المتواضعة ليست نقضًا للطموح. تعلم أصل المهارة، أو داوم على جهد قليل، أو أتقن مسؤولية صغيرة؛ فالنفع الواسع يحتاج غالبًا إلى علم وخبرة ووقت. خذ من الأسباب ما يلائم قدرتك، وميّز بين تدرج يقرّبك من مقصدك وتأجيل يكرر الوعد ولا يبدأ.

وقد يفتح الله لغيرك الباب الذي كنت تتمناه لنفسك. لك أن تسأل الله من فضله، وأن تفرح بالخير إذا وصل إلى غيرك. إن كان مقصدك نفع الناس، فليس من الصدق أن يتحول نجاح صاحبك إلى سبب للانتقاص منه. وإن وجدت في قلبك ضيقًا عابرًا، فلا تجعله حكمًا عليه؛ ادع له بالبركة، وخذ من تجربته ما ينفعك، وامض فيما تستطيع.

ونحتاج كذلك إلى التفريق بين خاطر يكرهه المرء ويدفعه، وبين رغبة يتعمد تغذيتها وينتظر فرصة العمل بها. لا تُسوِّ بينهما لمجرد أن كليهما مرّ بالقلب؛ فالأول قد يكون مما يجاهد الإنسان نفسه عليه، أما الثاني فيدعوه إلى مراجعة اختياره قبل أن يصير عملًا.[25]

نسأل الله أن يحبب إلينا الخير ويعيننا عليه، ثم نأخذ بالأسباب ونتجنب ما نعلم أنه يضعفنا. وإذا احتجنا إلى شريك أو معلم يساندنا، أخبرناه بما يخدم الخطة؛ أما تكرار وصف العزم طلبًا للإعجاب فلا يقوم مقام العمل. اختر اليوم خطوة صغيرة توافق خيرًا ترجوه: تعلمًا، أو أداء حق، أو حفظ أمانة. وإن منعك عذر، فاسأل الله بصدق وخذ بما بقي في وسعك؛ فهو أعلم بما عزم عليه القلب وما حال بينه وبين العمل.

---

25 **صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، حديث رقم 6664.**

الفصل ٢٤

الطاعة والمصلحة المباحة

تعمل لتكسب رزقك، وتحب مهنتك، وترجو أن تنفع الناس، ويسرك أن يقدّروا جهدك. هل يعني اجتماع هذه المعاني أنك لا تستطيع أن تحتسب في عملك؟ ليس الأمر بهذه البساطة. نحتاج أن نفرق بين مصلحة أباحها الله وبين عبادة نؤديها من أجل مدح الناس.

من تعلم مهارة ليكسب من حلال فقد طلب غرضًا مباحًا في أصله. ويمكنه أن يقصد مع ذلك إعفاف نفسه والقيام بحق أهله ونفع من يتعامل معهم. لا يلزمه أن يدعي أنه لا يريد الراتب حتى يبدو مخلصًا. الصدق في معرفة حاجاته خير من إنكارها ثم الغضب حين لا تتحقق.

أما أن يجعل الإنسان الصلاة أو الصدقة أو قراءة القرآن طريقًا إلى ثناء الناس، فذلك رياء، لا مصلحة دنيوية مباحة.

الحديث في العمل الذي أُشرك في قصده مع الله غيره. أما اجتماع الطاعة مع منفعة مباحة، أو وقوعها أمام الناس، فلا يكفي وحده للحكم على القصد؛ يُنظر في حقيقة العمل وما نعلمه من النية، ولا نتهم سرائر الناس.

وقد تجتمع مع العبادة منفعة دنيوية مباحة. يصوم المسلم لله، ويسره ما يجد من تنظيم أو نفع مباح، أو يسافر لطاعة ويعرض له كسب جائز. ومن جهة كمال القصد، فتمحّض الإرادة لوجه الله أعلى من اجتماعها مع مصلحة مباحة لا تنافي أصل العبادة؛ أما الرياء والسمعة فليسا من هذا الباب أصلًا.[26] ولهذه الصور تفصيل في كلام العلماء، ولا تستوي كلها في الحكم ولا في أثرها على الأجر.[27] ما نحتاج إليه هو أن لا نجعل كل منفعة تهمة، وألا نتخذ ذلك عذرًا لقصد فاسد نعرفه.

ومن الأوضح أن نسأل عند التعارض. تريد الربح، وتريد الأمانة؛ فماذا تختار إذا زاد الربح بالكذب؟ تريد أن ينجح مشروعك، وتعرف عيبًا يجب بيانه؛ فهل تخفيه حتى يبقى الإقبال؟ القرار هنا يكشف ما تحتاج إلى تصحيحه، أكثر من محاولة تقسيم كل شعور في قلبك إلى نسب لا تعلمها.

قد يعمل شخص بلا مقابل مالي، لكنه لا يحتمل أن يغيب اسمه. ويتقاضى آخر أجرًا على عمل نافع ويؤديه بأمانة ويحتسب فيه. عدم الراتب ليس دليلًا قاطعًا على

---

26 **خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، مبحث الإخلاص؛ ومحاضرة «الإخلاص 1».**

27 **ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الأول: «إنما الأعمال بالنيات».**

الإخلاص، ووجوده ليس حكمًا بالرياء. نحن نعرف ما يظهر من الحقوق والأعمال، أما النيات فيعلمها الله.

وقد تبدأ وظيفة وأنت لا ترى فيها إلا الكسب، ثم تتعلم أن تحتسب في أدائها. لا تحتاج إلى هدم حياتك أو ادعاء أن كل خطوة قديمة كانت عبادة قصدتها. يمكنك أن تصدق الآن: هذا رزق مباح أطلبه، وأريد أن أؤدي أمانته لله، وألا أظلم من أتعامل معهم. إصلاح ما يأتي خير من اختراع قصة جميلة عما مضى.

وفي التعامل مع الهدايا والمكافآت، لا يكفي سؤال النية وحدها. قد تكون الهدية ممنوعة بسبب الوظيفة أو الحق الذي يتعلق بها، ولو قال صاحبها إنه طيب القصد. وقد تكون مباحة لا شبهة في سببها. تعرف حكم الفعل أولًا، ثم تعتني بما تريد به. لا تحل النية الحسنة ما منعته الأمانة.

ولا يطلب الإخلاص أن تتنازل عن رزق حلال يحتاج إليه أهلك لتثبت أنك لا تحب الدنيا. تستطيع أن تطلب حقك، وأن تفاوض على أجر عادل، وأن تختار ما يناسبك من المباح. الذي لا يصح أن تجعل المنفعة سببًا للغش، أو أن تطلب بعبادتك منزلة عند الخلق.

كذلك فرحك بنتيجة نافعة جاءتك بعد عمل صالح لا يثبت وحده أنك فعلته من أجلها. قد يحبك الناس بسبب إحسان لم تطلب به محبتهم، وقد تأتيك فرصة لم تكن في حسابك. لا تجعل النتيجة اللاحقة حكمًا قطعيًا على بداية تعرف أنك أردت بها الخير.

وفي المقابل، لا تتمسك بنية قديمة لتبرر فعلًا تعرف أنه تغير. ربما بدأت ناصحًا، ثم صرت تخفي ما ينبغي بيانه حتى لا تخسر من يسمعك. لا يكفي أن تقول إن غرضك الأول كان حسنًا. أصلح قصدك الحاضر وسلوكك الحاضر، ولا تجعل الماضي شهادة تحميك من المراجعة.

إذا التبس عليك أمر، فاسأل سؤالًا محددًا. بيّن لأهل العلم صورة العمل ومصلحته وما يشكل عليك، بدل الاكتفاء بسؤال عام: هل أنا مخلص؟ لا يستطيع أحد أن يطلع على قلبك، لكن يمكنه أن يبين الحكم ويساعدك على فهم الخطأ الذي ينبغي تجنبه.

وبينما تتعلم، تمسك بما هو واضح: لا تكذب، ولا تضيع حقًّا، ولا تتصنع العبادة للناس، ولا تحتقر ما أباحه الله لك. جدد إرادة وجه الله فيما تتقرب به، واستغفر من تقصيرك. لا تحتاج إلى حل كل دقيقة من دقائق النية حتى تعمل بما عرفت.

إن القلب يحتاج إلى تربية، لا إلى حرب مع كل حاجة بشرية. نحب أهلنا، ونطلب رزقًا حلالًا، ونسعد بالنفع، ثم نضع هذه المعاني في موضعها الذي يرضي الله. ونرفض أن

تتحول عبادتنا إلى طلب مديح. بهذا التفريق نكون أقدر على الصدق؛ نعبد الله في حياتنا الحقيقية، لا في صورة ندعيها أمام الناس.

الباب ٤

أعمال حفظها الله لأصحابها

قد يكون العمل قريبًا من حياتنا حتى نظنه قليل الشأن: خدمة والدين، أو أمانة تؤدى، أو طعام يقدم لضيف. ثم تكشف لنا السنة أن للعمل المألوف شأنًا عظيمًا حين يصح ويصدق صاحبه في ابتغاء وجه الله.

في قصة أصحاب الغار بر وعفة وأمانة، وفي الأخبار صدقة أخفاها صاحبها، وضيف أكرمه بيت محتاج، وأبو طلحة يبذل أحب ماله، وأبو بكر رضي الله عنه يجمع في يوم أبوابًا من الخير. لا ينحصر الإخلاص في صورة واحدة من العبادة.

تدعونا هذه الأخبار إلى العمل، لا إلى انتظار موقف نادر يشبهها في كل تفصيل. ما الذي نستطيع أداءه اليوم لله؟ من القريب الذي يحتاج إلى برنا؟ وأي حق لم نرده؟ وأي معروف نقدر عليه ولا يحتاج إلى أن يعلم الناس به؟

الفصل ٢٥

أصحاب الغار: بر الوالدين

«بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا لَعَلَّ اللَّهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ .

فَقَالَ أَحَدُهُمُ اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَامْرَأَتِي وَلِيَ صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَىَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ فَجِئْتُ بِالْحِلاَبِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَىَّ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ . فَفَرَجَ اللَّهُ مِنْهَا فُرْجَةً فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ . وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَجِئْتُهَا بِهَا فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ . فَقُمْتُ عَنْهَا فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي

فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً . فَفَرَجَ لَهُمْ . وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ أَعْطِنِي حَقِّي . فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا فَجَاءَنِي فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي حَقِّي . قُلْتُ اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا . فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَسْتَهْزِئْ بِي . فَقُلْتُ إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا . فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ . فَفَرَجَ اللَّهُ مَا بَقِيَ .».[28]

هذا عمل في البيت، مع والدين كبيرين. لم يكن مجلسًا يسمع فيه الناس موعظة الرجل عن البر، بل خدمة أداها ورجا وجه الله بها. وعند الشدة ذكر هذا العمل ودعا به. في الخبر بيان لمشروعية أن يتوسل العبد إلى الله بعمل صالح أخلص فيه، يسأله الفرج ويرجو رحمته.

ونتعلم من القصة بر الوالدين والصدق في خدمتهما، ولا نجعل كل تفصيل فيها أمرًا نكرره من غير فقه. لا يجوز أن نفهم البر على أنه إضرار بمن تجب علينا رعايته. إذا

28صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم 2743.

تزاحمت الحقوق، احتجنا إلى معرفة الواجب وحفظ الجميع بحسب الاستطاعة. الاقتداء بالخير لا يكون بإهمال حق آخر أمر الله به.

والبر في حياتنا أوسع من لحظة مؤثرة نحب روايتها. فيه سؤال عن دواء، وموعد نتابعه، وطعام نيسره، وحضور يخفف وحدة. وقد تتكرر الحاجة حتى يتعب من يقوم بها. هنا نحتاج إلى نية تعيننا على الرفق، لا إلى صورة للبر نستحسنها حين لا تكلفنا شيئًا.

ربما يحب الإنسان تقبيل رأس والده أمام الضيوف، ثم يضيق إذا سأله السؤال نفسه في البيت مرات. وقد يحرص أن يعرف الناس أنه قريب من والدته، ثم لا يصغي إلى حديثها إذا لم يكن عنده فراغ. لسنا نبحث عن مظهر نحسنه، بل عن حق نحاول أداءه حين يراه الناس وحين لا يرونه.

وقد تكون خدمة الوالدين محببة سهلة، وهذا فضل لا ينقصها. ليس عليك أن تتمنى مشقة حتى يكون لعملك معنى. أحبّهما، وافرح بقربهما، واحتسب برهما. فإذا جاء تعب أو ضيق، فاسأل الله العون ولا تجعل ذلك سببًا للإساءة.

ومن الرفق أن تتعاون الأسرة على الرعاية. لا يصح أن يحمل أحد الأبناء ما لا يطيق ثم يلام لأنه طلب المساعدة. يمكن ترتيب الزيارات والمواعيد والنفقات بوضوح. نحتسب

الخدمة عند الله، ونؤدي في الوقت نفسه حقوق من يشاركنا، ولا نترك الأعباء تتراكم على الأهدأ طبعًا وحده.

وإذا لم يتذكر والدك ما فعلت له، فلا تجعل نسيانه ينسيك لمن فعلت. قد يكون المرض أو الكبر قد غيّر بعض حاله. أنت تحتاج إلى معرفة ما يعينه، وإلى مساندة تخفف تعبك، وإلى دعاء صادق. لا يلزم أن يسمع الناس كل ما تتحمله حتى يكون معلومًا عند ربك.

واحفظ كرامته حين تحسن إليه. ليس ضعف الوالد أو مرضه مادة تعرضها لتثبت برك. تستطيع أن تسأل عن علاج أو مساعدة ممن يحتاج إلى المعرفة، لكن لا تنشر ما يستحي منه بلا حق. البر أن تحميه من أذى الصورة والكلمة كما تحميه من تعب تستطيع دفعه.

ومن مات والداه وبقي يذكر تقصيرًا، فليست الحسرة وحدها هي ما بقي له. يستطيع أن يتوب، وأن يدعو لهما، وأن يؤدي ما بقي من حقوق على الوجه المشروع. لا يرد الماضي، لكنه يستطيع أن يصدق فيما يأتي. رحمة الله أوسع من أن تجعل ندمك سببًا لترك كل خير ممكن.

ولم يخبرنا الحديث أن هذا الرجل كان يعرف أنه سيحتاج إلى عمله يوم الغار. فلا نجعل العبادة وسيلة لشراء أمان من كل بلاء. نحن نطيع الله لأنه ربنا، وندعوه بما شرع، ونرجو الفرج. أما صورة الفرج ووقته فليستا مما نلزم به ربنا.

ربما كان أقرب نصيب لك من هذه القصة مكالمة تؤجلها، أو حاجة تعرفها ولم تقم بها، أو كلمة ضاق بها صدرك وتستطيع أن تستبدل بها رفقًا. لا تنتظر الغار لتتعلم قيمة ما بين يديك. باب البر حاضر، والنية يمكن أن تصلح الآن، والله يعلم ما تبذله ولو لم يسمع أحد خبرك.

الفصل ٢٦

أصحاب الغار: العفة

الشرح متصل بالحديث كاملًا في الفصل 25.

يلفت هذا الموضع إلى أن القدرة والتعلق لا يبيحان ما حرّم الله، وأن التراجع عن المعصية حين يتبين حدها اختيار يحتاج إلى مجاهدة. لا تُعرض الواقعة قصة حب، ولا تجعل الرغبة عذرًا لتجاوز حق أو حد شرعي.

وقد تأتيك النصيحة ممن لا تتوقع أن ينصحك. أصغر منك سنًّا، أو أقل منك مالًا، أو شخص لك عليه سلطة. الحق لا يقل شأنه لأن قائله في موقف ضعف. فإذا قال ما تعلم أنه صحيح، فلا تجعل قدرتك عليه سببًا لرد كلامه.

ونحن نحتاج إلى هذا في أنواع من المعاملات، لا في موقف واحد. قد يطلب صاحب منصب منفعة خاصة ممن يحتاج إلى توقيعه. وقد يجعل المساعدة مشروطة بعلاقة لا تجوز. وقد يستعمل سرًّا عرفه ليجبر صاحبه على ما لا يريد. في كل ذلك عليه أن يتذكر أن الله لا يغيب عن الموضع الذي يظن فيه نفسه أقوى من غيره.

ومن الصدق أن يتوقف الأذى فعلًا. لا يكفي أن تتراجع عن طلب محرم وتبقي وسيلة الضغط قائمة. لا تجعل صمتك عن سرٍّ منّة تطالب بمقابلها، ولا تطلب من الذي أخطأت

في حقه أن يطمئنك إلى حسن صورتك. أصلح ما عليك، واحفظ حقه في الأمان والبعد عن الأذى.

والعفة قد تشق على النفس. ليس وجود الرغبة دليلًا على كذب كل امتناع. قد تريد النفس أمرًا، ويختار صاحبها أن يتقي الله ويتركه. هذه مجاهدة تحتاج إلى عون، ولا ينبغي أن نجعل صعوبتها حجة للمضي في الحرام أو دليلًا على استحالة الإصلاح.

وقد يساعدك أن تبعد السبب الذي تعرف أثره فيك. لا تعد إلى تواصل يفتح عليك الباب نفسه وأنت تزعم أنك تختبر قوتك. ولا تحتفظ لنفسك بطريق سهل إلى المعصية ثم تتعجب من تكرر ضعفك. من الحكمة أن تحمي قرارك، وأن تطلب المساعدة المشروعة إذا احتجت إليها.

ولا تبحث عن فتنة كبيرة لتصنع منها موقفًا تفتخر به. العافية خير، والامتناع المبكر أيسر. قد يكون قرارك الصالح أن تجعل علاقة العمل واضحة، أو ألا تقبل خلوة محرمة، أو أن تمتنع عن كلمة تعلم أنها تجر إلى ما بعدها. لا يلزم أن يبلغ الخطر أشده حتى يكون لتركه معنى.

وإذا خسرت منفعة بسبب رجوعك، فلا تجعلها وحدها ميزان الصواب. المال الذي لا يحل لك ليس خيرًا تحتفظ به بأي ثمن. والمكانة التي لا تبقى إلا بظلم تحتاج إلى

مراجعة. اطلب الرزق والعوض من الله، ولا تجعل قدرتك على تحصيل الحرام حجة في تحصيله.

لم يذكر الرجل في دعائه أنه لم يضعف قط، بل ذكر رجوعًا اختار فيه ترك المعصية لله. هذا يردنا إلى التوبة من غير أن يهوّن الخطأ. نعترف بما لا يصح، ونتركه، ونندم، ونحفظ حقوق من تعلق بهم. ثم نرجو أن يتقبل الله رجوعنا.

قد يكون لك اليوم أمر تستطيع تركه، وقدرتك عليه هي التي تجعل الامتحان صعبًا. تذكر أن الامتناع عمل أيضًا إذا كان لله. لا يكتب الناس في سجلاتهم كل ما لم تفعله من شر، لكن ربك يعلم اختيارك. فاطلب عونه، واتخذ قرارك، ولا تساوم على حد عرفته لأن النفس لم تتوقف عن الرغبة فيه.

الفصل ٢٧

أصحاب الغار: أمانة الأجير

الشرح متصل بالحديث كاملًا في الفصل 25.

يوجه هذا المثال النظر إلى حفظ حق العامل، ولو غاب صاحبه أو لم يستطع المطالبة به في حينه. الأمانة لا تتوقف على وجود رقابة بشرية؛ المسلم يؤدي الحقوق خوفًا من الله، ويستعين بالتوثيق والأنظمة على منع النسيان والنزاع.

في الأمانة امتحان يظهر حين يغيب صاحب الحق. لا يراقب مالَه، وقد لا يعرف ما حدث له، وربما لا يستطيع إثبات ما يطالب به. فهل يبقى حقه محفوظًا في نفس من عنده المال؟ أم يرى الغياب فرصة ليأخذ ما ليس له؟

ما أحوجنا إلى هذا السؤال في حساباتنا المعتادة. مبلغ نسي صاحبه أنه دفعه، أو زيادة وصلت خطأ، أو عهدة انتهى وقتها، أو مصروف شخصي يمكن إخفاؤه في حساب العمل. قد لا يبدو الأمر كبيرًا، لكن الأمانة لا تبدأ عند مبلغ معين. ما ليس لك لا يصبح لك لأن صاحبه لم ينتبه.

والقصة لا تعطينا إذنًا عامًّا لاستثمار أموال الناس من غير حق. لكل مال وعقد ووكالة أحكامها، وقد يكون التصرف في الأمانة ممنوعًا. لا تأخذ مالًا مودعًا عندك ثم تعرضه

للخطر بحجة أنك ستنميه لصاحبه. الذي نتعلمه هنا حفظ الحق وعدم الاستيلاء على منفعة الغائب، أما التصرف المالي فمرجعه إلى حكمه الصحيح.

وقد يستسهل الإنسان أخذ الصغير لأنه يظن أن صاحبه لا يتأثر به. لكن الحق لا يقاس بشعورنا نحن عن غنى صاحبه. ربما كان غنيًّا ومع ذلك لا يحل لنا ماله، وربما كان المبلغ قليلًا لكنه أمانة واضحة. الإخلاص في هذا الموضع أن تطيع الله قبل أن يأتيك تهديد أو مطالبة.

وحين تعيد حقًّا، لا تقدمه كأنك وهبت صاحبه مالك. له أن يشكرك على أمانتك، لكنك لا تشتري بذلك سكوته عن أخطائك أو ولاءه الدائم. قولك إنك كنت تستطيع منعه لا يجعل امتناعك عن الظلم حقًّا في إذلاله. أنت تؤدي ما عليك لله، وترجو الثواب على أمانتك.

وقد لا يكون صاحب الحق حسن المعاملة. يلحّ أو يقسو أو يسيء الظن. تستطيع أن ترد الإساءة بالحق، وأن تبين ما يحفظك، لكن حقه المالي لا يتوقف على إعجابك بطبعه. لا تجعل غضبك منه سببًا للتأخير المتعمد أو اقتطاع ما لم يُؤذن لك فيه.

وثمة أمانات لا توضع في صندوق. كلمة استؤمنت عليها، أو بيانات خاصة، أو شكوى قالها صاحبها مستعينًا بك. قد يغيب عنك ثم تتهيأ فرصة للظهور بما عرفت. ليس كل خبر تعرفه صالحًا للنشر، وليس استحسان المجلس سببًا يسقط حق صاحبه في الستر.

والتوثيق يعين على الأمانة. اكتب ما يلزم، واضبط الحساب، ووضح حدود الصلاحية. ليس القلب الصالح بديلًا من إجراء يحفظ الناس من النسيان أو النزاع. قد تصدق اليوم ثم تنسى غدًا، وقد يقوم غيرك مقامك ويحتاج إلى معرفة الحقوق. إحسان التنظيم من إحسان أداء المسؤولية.

وإذا اكتشفت أنك أخذت شيئًا لا حق لك فيه، فابدأ برده. لا تؤخر الإصلاح حتى تجد موعظة أشد تأثيرًا. قد تحتاج إلى سؤال أهل العلم عن كيفية الرد أو الوصول إلى صاحبه، لكن أول الصدق أن تعترف بوجود الحق وأن تسعى فيه. الغموض في بعض الإجراءات ليس إذنًا بالبقاء على التعدي.

ومن أجمل ما في هذا الخبر أن الرجل لم يحتج إلى رقابة صاحب الأجر ليحفظه. وهنا نختبر أثر الإيمان في واقعنا: هل تؤدى الأمانة لأن الله أمر بها، أم لأنها قد تُكتشف؟ يمكن أن تكون الأنظمة جيدة، ونحتاج مع ذلك إلى قلب يخشى الله؛ ويمكن أن يكون القلب صادقًا، فيحرص على النظام الذي يحفظ الحقوق.

لا تنتظر مالًا كبيرًا يشبه ما في القصة. انظر إلى ما عندك اليوم: شيء استعرتَه، أو مبلغ يجب رده، أو معلومة ينبغي سترها، أو وقت التزمت بأدائه. أدِّ هذه الأمانة بصدق. لا يعرف الناس كل ما كان في قدرتك أن تخفيه، لكن الله يعلمه، وهو الذي ترجو رضاه.

الفصل ٢٨

صدقة خفية ودمعة صادقة

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».[29]

يجمع الحديث بين أعمال خفية وأعمال تظهر آثارها في الناس؛ فالعبرة بصدق القصد وموافقة العمل، لا بمجرد ظهوره أو خفائه. والصدقة المستورة والذكر في الخلوة صورتان من صور الإخلاص، وليستا حصرًا لأبوابه.

29صحيح البخاري، كتاب الزكاة، حديث رقم 1423.

في الصدقة الخفية يتعلم القلب أن النفع يمكن أن يصل من غير أن يزيد ذكر المعطي بين الناس. قد لا يتغير رأي أحد فيه، ولا يعرفه المستفيد أصلًا. ومع ذلك يريد أن تتم المساعدة. لأن من يرجو ثوابه يعلم العمل، ولا يحتاج إلى من يخبره به.

وربما كانت لك قدرة على أن تعين شخصًا بواسطة أمينة، أو أن تضع مالًا حيث يصل إلى مستحقه من غير إعلان. افعل ما تعرف مشروعيته، وتحَرَّ الوصول الصحيح، ثم دع قلبك يتعلم ألا يشترط أن يسمع صدى عطائه. ليس المطلوب لغزًا يعجز الناس عن حله، بل قصدًا صالحًا لا يبحث عن الإشادة.

ولا تبطل حقيقة الخفاء لأن موظفًا أو وسيطًا عرف ما يلزم معرفته. قد تحتاج إلى إيصال يحفظ الأمانة، أو يتطلب المشروع بيانًا لمن ائتمنك على المال. حقوق الناس في التوثيق لا تناقض إصلاح نيتك. الذي تجاهد فيه نفسك هو طلب الظهور، لا سلامة الحساب.

وذكر الحديث إمامًا عادلًا وشابًا نشأ في العبادة ورجلين تحابا في الله؛ ففيه أن أبواب القرب ليست محصورة في العمل المستور. قد يكون العمل ظاهرًا لحاجة أو مسؤولية، ويظل صاحبه مطالبًا بصدق القصد. الخفاء باب عظيم، لكنه ليس الباب الوحيد.

أما الرجل الذي ذكر الله ففاضت عيناه، فلم يكن يستعرض بكاءه على أحد. ذكر ربه فأثّر ذلك فيه. نقرأ هذا الفضل فنشتاق إلى قلب يحضر مع الذكر، لا إلى دموع نصنعها حتى نطمئن إلى صورتنا عن أنفسنا.

قد تجلس لذكر الله ثم تنشغل بمراقبة شعورك: لماذا لم أبك؟ هل قلبي قاسٍ؟ فتكون أكثر انتباهًا لعينك من انتباهك لما تقول. حاول أن تفهم الذكر وأن تعبد الله به. وإذا لم تأت الدموع، فلا تجعلها الشرط الوحيد الذي تحكم به على نفسك. أصلح ما تعلم من غفلتك، واسأل الله حياة قلبك.

والدمعة ليست إذنًا في تضييع العمل. قد يتأثر الإنسان بموعظة ثم يبقى على أذى يعرفه. نرجو أن يقوده التأثر إلى توبة ورحمة وأمانة. المقصود أن يقربنا الذكر من طاعة الله، لا أن نكتفي بلحظة وجدانية نبحث عن مثلها ولا نصلح ما بعدها.

وقد يدخل العجب إلى العمل الخفي. يخطر للإنسان أن الناس لو عرفوا عبادته لتغيرت منزلته عندهم، فيكثر تخيل ذلك. لا يفزع من مجرد خاطر يكرهه، لكنه لا يسترسل معه. لا تجعل الخبيئة عرضًا تقوم به أمام جمهور تتخيله في نفسك كلما احتجت إلى تعويض غياب الثناء.

وإن كان لك عمل تخفيه، فلا تحتقر من ظهر عمله. لا تعرف نيته، وربما كانت له مسؤولية أو مصلحة صحيحة في الإظهار. حب الخفاء لا يحتاج إلى اتهام الآخرين. من سلامة قصدك أن تشغل بما بينك وبين ربك من غير أن تبني فضلك على انتقاصهم.

وقد ينكشف عملك من غير قصد. يراك صغير وأنت تصلي، أو يعرف قريب أنك ساعدت، أو يذكرك صاحب الحاجة بخير. لا يعني ذلك أن عليك أن تضطرب أو تكذب لتنفيه. جدد نيتك، وأجب بما يلزم بصدق، ولا تتعمد توسيع الخبر لاغتنام فرصة المديح.

وقد تحتاج إلى من يشاركك في عمل خفي عجزت عن الاستمرار فيه وحدك. رعاية مريض أو نفقة لم تعد تطيقها. لا تجعل الحفاظ على الخفاء سببًا في ظلم نفسك أو قطع نفع يمكن استمراره بالمساعدة. الإخلاص أن تعمل لله بما تستطيع، لا أن تحافظ على صورة خاصة لا تسمح لك بطلب العون.

ابحث عن طاعة صحيحة تناسبك، قليلة كانت أو كثيرة، واجعلها لله. قد تكون دعاء لأخيك، أو صدقة، أو ذكرًا في وقت هادئ. لا تحمل نفسك ما لا تثبت عليه، ولا تضف لها عددًا أو فضلًا لم يثبت. العمل القليل الذي تحسنه وتداوم عليه باب رحمة.[30]

30صحيح البخاري، كتاب الرقاق، حديث رقم 6464.

الصدقة الخفية والدمعة الصادقة تذكراننا بأن علم الله كافٍ. ليس مطلوبًا أن يعلم البشر بكل ما نفعله، وليس جهلهم به نقصًا في علم ربنا. فإذا خلوت فاعبده، وإذا خرجت إلى الناس فاتقه، واسأله صدقًا يصحبك في الحالين.

الفصل ٢٩

حين لا تقع الصدقة كما توقعت

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ رَجُلٌ لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ. فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَىْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ. فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَىْ غَنِيٍّ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ. فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ».[31]

يعرض الخبر رجاءً لا جزمًا: «فلعله» و«فلعلها». فلا يثبت أن هؤلاء غيّروا أحوالهم بالفعل، ولا يسقط عن المتصدق واجب التحري في الأموال التي لها مصارف محددة. وفيه تذكير بأن جهلنا بعاقبة إحسان ما لا يبيح لنا ادعاء نتيجة لم ينقلها الخبر.

31صحيح البخاري، كتاب الزكاة، حديث رقم 1421.

ولا يعني ذلك أن نترك التحري. من يؤدي زكاة يسأل عن مستحقيها، ومن اؤتمن على مال مخصص لا يصرفه كيف شاء. الخطأ بعد اجتهاد غير الإهمال المتعمد، وحسن النية لا يصحح كل تصرف مالي. لكننا لا نحكم أيضًا أن كل عمل لم تجر نتيجته كما توقعنا خالٍ من كل نفع.

قد تضع جهدًا في مساعدة طالب، ثم لا ينجح في الموعد الذي رجوت. أو تقدم معروفًا ولا تعرف ماذا صنع به صاحبه. تستطيع أن تراجع طريقتك، وأن تتعلم من النتيجة، لكن لا تجعل توقعك الشخصي هو الحكم الوحيد على قيمة كل إحسان.

وفي القصة رحمة بالمخطئ من غير تهوين لمعصيته. السارق يحتاج إلى ترك السرقة، والمرأة تحتاج إلى ترك الفاحشة. وقد يكون العون سببًا يعين على الاستعفاف. لا نقول إنهما تركا ما كانا فيه فعلًا؛ لم يذكر الخبر تفاصيل ما وقع بعد ذلك. لكننا نتعلم ألا نيأس من إمكان رجوع من أخطأ.

وقد يضع المتصدق شروطًا في ذهنه لا تتعلق باستحقاق المال، بل بالصورة التي يريد أن يراها في الفقير. يريد إنسانًا لا يخطئ، ولا يخالف ذوقه، ويعرف كيف يشكره كل مرة. نحتاج إلى التمييز بين التحري المشروع وبين انتظار شخص كامل حتى نرحمه.

الحاجة لا تسلب الإنسان حقه في أن يبقى بشرًا له طبعه وأخطاؤه، كما أن الخطأ لا يبيح إعانته على المعصية. نستطيع أن نضع العون في موضع صحيح، وأن ننصح

برفق، وأن نختار وسيلة أقل ضررًا. لا نمنع كل خير لمجرد أن من يحتاج إليه لم يصبح كما نحب.

وقد تسمع بعد بذلك سخرية أو لومًا. في بعض الكلام معلومة نافعة، وفي بعضه قسوة لا تنفع. خذ التصحيح الصحيح، ولا تجعل السخرية وحدها تعلمك كيف تنظر إلى إحسانك. تستطيع أن تقول: أردت خيرًا، وسأحسن التحري في المرة القادمة، ولا حاجة إلى أن أترك العطاء كله.

والحمد لا يمنع الاعتراف بالخطأ. يمكنك أن تحمد الله، وأن تعتذر عن تقصير، وأن تصلح إجراءً، وأن تسأل عما ينبغي فعله. لا تتخذ النية الحسنة جدارًا يمنع التعلم. صاحب القصد الصالح أحق بأن ينتفع بالمعلومة التي تصلح عمله.

ومن جهة أخرى، لا تطلب ضمانًا يستحيل الحصول عليه قبل كل معروف. قد تبذل بعد تحرٍّ معقول، ثم تبقى أمور لا تعلمها. لا تستطيع أن تعرف كل ما في نفس الآخذ، ولا أن تتحكم في مستقبل حياته. عليك أن تتقي الله فيما تستطيع، وتؤدي الأمانة، ثم ترجو خير ما فعلت.

وقد لا تعود إليك رسالة شكر ولا حكاية تبين أثر الصدقة. إذا تحريت موضعها وأوصلتها، فلا تجعل نقص الخبر نقصًا في صدق عملك. الله يعلم حيث وصلت، ويعلم

غرضك منها. تستطيع أن تسأل للتعلم والمتابعة فيما تحتاج، من غير أن تجعل حياة المستفيد مفتوحة لك كلها لأنه أخذ معروفك.

وفي قصة الغني الذي وصلت إليه الصدقة تذكير بمن يملك المال أيضًا. قد يرى معروفًا يسيرًا من غيره فينتبه إلى ما عنده من قدرة. لا تحتقر مثالًا لأنه جاء على يد من هو أقل منك مالًا أو تجربة. قد يوقظك إلى باب كنت تعرفه ثم أهملته.

نبذل مع التحري، ونراجع من غير غرور، ونرجو من غير ادعاء. فإن لم تقع الأمور كما توقعنا، لم نجعل ذلك نهاية الطريق. ربما كان المطلوب تصحيح الوسيلة، وربما كان في العمل خير لم نره. نترك ما لا نعلمه لله، ونستمر فيما نعرف أنه من طاعته.

الفصل ٣٠

ضيف في بيت الأنصاري

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي. فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً. فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ ـ أَوْ عَجِبَ ـ مِنْ فَعَالِكُمَا». فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[32]

يجمع الخبر بين إكرام الضيف ومشاركة الزوجين في العمل، لكنه لا يجعل إضاعة نفقة واجبة أو الإضرار بالصغار قاعدة عامة. كانت الواقعة التي أثنى عليها الوحي؛ وتبقى أحكام الحقوق والاستطاعة معتبرة في كل حال.

---

32 **صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، حديث رقم 3798.**

في البيت حاجة، ومع ذلك وقع الإكرام. والأمر الذي يقرب من موضوعنا أن الضيف لم يُطالب بأن يرى مقدار ما تركه الزوجان له. أُطفئ السراج، ووصل الطعام إليه، ولم يتحول عشاؤه إلى مجلس يسمع فيه كم تحمل مضيفاه من أجله.

وإذ ذكر الخبر نزول الآية، فوجه التأمل فيه الثناء على الإيثار ووقاية الشح. لا تتحول صورة الواقعة وحدها إلى معيار وحيد للإخلاص، ولا إلى إذن بإسقاط حق ثبت في حال أخرى.

ويظهر في الخبر عمل الزوجة كما يظهر عمل زوجها. هيأت وأنامت وأطفأت وشاركت في الجوع. لا يصح أن نحكي الكرم كأنه عمل من وقف أمام الناس وحده، وننسى من حمل معه أسبابه. الإخلاص لا يحتاج أن يمحو تعب الآخرين ليبقي لصاحب الاسم صورة أوسع.

كم مرة يستضاف الناس في بيت، فيُشكر المضيف، ولا يلتفت أحد إلى من أعد الطعام ورتب المكان وتحمل العمل؟ من الإنصاف أن يعرف صاحب البيت هذا الجهد ويشكره، وأن يشارك فيما يستطيع. ليس كرمًا كاملًا أن يشتري المرء مديح الضيوف بإرهاق أهله ثم يجحد فضلهم.

وقد يحتاج من قام بالإعداد أن يبين قدرته قبل الاستضافة. يستطيع أن يقول إن الوقت لا يتسع أو إن العمل يحتاج إلى مساعدة. ليس هذا نقيض الإخلاص. الوضوح قبل الالتزام أرحم من موافقة ظاهرية يتبعها غضب يعاقب به من في البيت.

والضيف بدوره يراعي ما يستطيع مضيفه. لا يطلب ما يشق، ولا يقارن بيته ببيوت أخرى، ولا يجعل الإكرام اختبارًا للأثاث وكثرة الأصناف. من حسن الخلق أن يقبل المعروف بامتنان، وأن لا يحول القرب إلى استباحة لوقت الناس وجهدهم.

وربما كان الاقتصاد في الضيافة أصدق من التكلف. مائدة يسيرة بمال حلال، ووجه طيب، وحديث يحفظ الحقوق، خير من توسع لا يراد به إلا أن يقال إن أحدًا لم يسبق صاحبه. لا نقيس الإخلاص بحجم المائدة ولا بضيق البيت؛ نسأل عن القصد وعن صحة ما فُعل.

وقد يقدم الإنسان معروفًا ثم يفسده بذكر كلفته. يخبر الضيف بكل ما تعطل لأجله، وكل تعب حمله أهله، حتى يخرج متألمًا من حضوره. إن احتجت إلى تنظيم الزيارة القادمة، فبيّن ذلك برفق. أما المعروف الذي تم، فلا تحوله إلى مطالبة مستمرة بالاعتذار والشكر.

وما علمه النبي ﷺ من شأن الزوجين يذكرنا بعلم الله بالعمل الذي لم يعرفه الضيف على حقيقته. لا نحتاج أن نضمن انكشاف كل خير أخفيناه حتى نطمئن إلى قيمته. قد يعرفه الناس وقد لا يعرفونه، وربك لا يخفى عليه في الحالين.

وللإيثار صور نستطيعها من غير افتعال حاجة مؤذية. تتنازل عن شيء زائد يحتاج إليه غيرك، أو تفسح من وقتك لمحتاج، أو تقدم من كانت حاجته أشد في أمر يجوز لك تقديمه فيه. لا يشترط أن يكون الموقف كبيرًا حتى تجاهد فيه رغبتك وتطلب رضا الله.

إذا عاد إلى ذهنك البيت الذي أطفأ السراج، فتذكر أمرين معًا: سخاء لم يكن مجرد كلام، وكرامة حُفظت لمن أُطعم. حاول أن يكون إحسانك كذلك في قدر استطاعتك: نفعًا صحيحًا، ومشاركة عادلة لمن يعينك، وقصدًا لا يحتاج أن يثقل على الآخذ بذكر كل ما تحملت.

الفصل ٣١

أحب مال أبي طلحة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ. قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ». فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ».[33]

33صحيح البخاري، كتاب الزكاة، حديث رقم 1461.

يروي أنس استجابة أبي طلحة لآية الإنفاق من أحب المال، وسؤاله عن موضع الصدقة، وتوجيه النبي ﷺ إلى الأقربين. ثم نقرأ دلالة الخبر على البذل المصحوب بالعلم ومراعاة الحقوق، دون أن نجعل صورة القصة أمرًا عامًا بالتخلي عن كل مال محبوب.

في القصة مال ما زال محبوبًا، لا شيء انتهت رغبة صاحبه فيه. سمع أبو طلحة الآية، فاستجاب بعطاء مما يحب. لم يقف عند الإعجاب بالمعنى، ولم يؤجل أثره إلى وقت يفقد فيه المال قيمته عنده.

وقد يسهل علينا أن نخرج ما لم نعد نحتاج إليه. وهذا قد ينفع وله موضعه، لكن الآية توسع عنايتنا: هل نستطيع البذل من شيء نحبه، حين يكون البذل مشروعًا وفي قدرتنا؟ ليس المطلوب أن يكره الإنسان ما في يده، بل ألا تمنعه محبته له من طاعة الله.

ولا تدعنا القصة إلى التخلي عن كل مال محبوب من غير نظر إلى الحقوق. قد يكون عليك دين أو نفقة لازمة، وقد يكون حفظ مالك لأهلك هو الواجب في حالك. تعلم حكم ما تريد، ولا تجعل الحماسة سببًا لقرار تندم عليه لأنه أضاع أمانة. صدق البذل يصحبه فقهه.

ويستوقفنا أن أبا طلحة طلب توجيه النبي ﷺ في موضع الصدقة. أراد الخير، ولم ير أن حرارة رغبته تغنيه عن معرفة الأنفع. وهذه خصلة نحتاج إليها؛ فقد نملك المال والنية الحسنة، ونحتاج مع ذلك إلى مشورة تصلح طريقة الإنفاق.

أشار عليه النبي ﷺ بالأقربين. قد يكون الخير الذي تبحث عنه بعيدًا حاضرًا في أسرتك وقربك. لا تقل حاجة القريب شأنًا لأنها مألوفة، ولا يصير البذل أرفع لأن صورته جديدة. انظر إلى ما شرع الله وإلى مواضع الحاجة، ثم ضع عطاءك حيث ترجح المصلحة الصحيحة.

وفي الصدقة على القريب امتحانات خاصة. قد يختلف معك، وقد يعرف من حياتك ما لا يعرفه الغريب، وقد لا يقابلك بالثناء كل مرة. لا تجعل المعروف وسيلة لشراء موافقته. إن وهبت فاهب على وجه صحيح، وإن أقرضت فوضح الحق، ولا تترك العلاقة محكومة بشروط خفية لم يفهمها الطرف الآخر.

وما خرج منك لله لا ينبغي أن يتحول بعد ذلك إلى تهديد. تذكير الآخذ دائمًا بأن هذا كان أحب مالك قد يفسد عليه الانتفاع به. إن احتيج إلى ذكر الحقيقة، فاذكرها بصدق وفي موضعها، ولا تستعمل مقدار تضحيتك سلاحًا في كل خصومة.

قال أبو طلحة إنه يرجو برها وذخرها عند الله. فهذا رجاء في الثواب لا ينافي الإخلاص. أعطى لله ورجا ما عنده. لا نطلب من المعطي أن ينقطع عن رجاء الجنة والقبول ليكون صادقًا، وإنما نطلب أن لا يجعل ثناء البشر غاية عبادته.

وقد لا تملك بستانًا، لكنك تملك ما تبدأ به. مال يسير، أو أداة نافعة، أو قدرة على خدمة، أو وقتًا يمكن أن تبذله في وجه صحيح. لا تجعل كبر مشهد القصة يحجب عنك المعنى الممكن. المطلوب أن تعمل بما تقدر عليه، لا أن تصنع لنفسك موقفًا يشبه مال غيرك.

ومن الصدق أن تؤدي المعروف حين تلتزمه. قد تتأثر بآية أو حديث، وتعلن وعدًا، ثم يبرد حماسك. لا تحمل نفسك وعودًا فوق القدرة، لكن ما التزمت به على وجه صحيح فاعتن بأدائه. دع البذل يكون أصدق من الإعلان عنه، لا أن يبقى الإعلان أجمل أجزائه.

وإن وجدت تعلقًا شديدًا بما تحب، فلا تهرب من معرفته. قد يكون في نفسك بخل تحتاج إلى مجاهدته، وقد تكون لديك حاجة حقيقية ينبغي حفظها. فرق بينهما بعلم وصدق، ولا تسمّ كل خوف بخلًا ولا كل امتناع حكمة. اسأل من تثق بعلمه حين يختلط الأمر عليك.

بَيْرُحاء في هذا الخبر ليست اسم مال فقط؛ إنها مثال على استجابة انتقلت من السماع إلى الفعل. يسمع المؤمن أمر ربه، ويتعلم موضعه، ثم يعمل. فلنبحث عن نصيب من هذه الاستجابة في حياتنا، من غير تهور ولا منّ، راجين أن يكون ما بذلناه لله وحده.

الفصل ٣٢

أبو بكر: يوم من الخير

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ».[34]

يذكر الحديث اجتماع أربع طاعات في يوم أبي بكر، ثم يبين النبي ﷺ فضل اجتماعها. هذا خبر فضل، وليس وصفًا تفصيليًا لكل زيارة أو نفقة؛ وما ثبت فيه يكفي لبيان تنوع أبواب البر.

الصيام طاعة يمسك فيها الإنسان لله. واتباع الجنازة حق وتذكير بالآخرة. وإطعام المسكين نفع يصل إلى محتاج. وعيادة المريض مواساة وقرب. أبواب مختلفة، لا يحتاج بعضها إلى أن يلغي بعضًا حتى تكون حياة العبد لله.

34 **صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم 1028.**

ومن الخطأ أن يفهم الاهتمام بالقلب على أنه تقليل من قيمة الأعمال. انظر إلى هذا اليوم؛ الإيمان يحمل صاحبه على صيام وإطعام وزيارة واتباع جنازة. ما في القلب نرجو أن يظهر في الطاعة والرحمة، لا أن يبقى دعوى نستغني بها عن السعي.

ويعلمنا جواب أبي بكر معنى آخر: لم تكن معرفة الناس بعمله عيبًا في ذاتها. سُئل فأجاب. ليس الإخلاص أن نمتنع عن كل بيان، ولو كان الجواب مطلوبًا في موضعه. وقد يكون ذكر العمل سببًا لتعليم أو تشجيع أو أداء شهادة، ويبقى على صاحبه أن يصدق في نيته.

لا نعلم من هذا الحديث أن أبا بكر أراد أن يعدد فضائله بين الناس؛ الذي أمامنا سؤال من النبي ﷺ وجواب. وعلينا ألا نحول خوفنا من الرياء إلى قاعدة تمنع ما جاءت السنة بصحته. نعلم أن للخفاء فضلًا، وأن للبيان مواضع، وأن القصد هو ما نصلحه في الحالين.

وقد نضيق على أنفسنا بحصر الخير في باب واحد نحبه. يكثر إنسان من نافلة يطمئن إليها، ثم لا ينتبه إلى محتاج قريب يستطيع إعانته. وقد يبذل للناس ولا يعطي عبادته حقها. تنوع هذا اليوم يوسع نظرنا، من غير أن يلزمنا أن نجمع كل صورة منه في كل يوم.

ولا تجعل الفضل النبوي مجرد خانات تكملها لتعلن لنفسك الجنة. نؤمن بالوعد كما جاء، ونحرص على الأعمال بشروطها وحقوقها، ونرجو القبول. لا نزكي أنفسنا ولا نجعل الغرض من زيارة المريض أن نستعمله لإتمام قائمة، وهو يحتاج إلى رحمة حقيقية في وقت مناسب.

فعيادة المريض مثلًا تحتاج إلى مراعاة حاله. لا نثقل عليه بالبقاء، ولا نسأله عما يحرجه، ولا ننشر ما عرفناه من مرضه بلا حق. وإطعام المحتاج يحتاج إلى مال حلال وحسن معاملة. كل باب من الخير له أمانة، وليس اسمه وحده كافيًا.

وقد يمر يومك وفيه فرص صغيرة واضحة، لكنك تنتظر فراغًا كاملًا لتبدأ. تتخيل أنك ستصبح أكثر إحسانًا حين تقل المسؤوليات، أو يزيد المال، أو يأتي مزاج مناسب. ثم تفوتك كلمة رحمة أو صدقة ممكنة أو اتصال بقريب. لا تجعل المستقبل يمنعك من الخير الذي في يدك.

ولا يعني هذا أن تملأ يومك حتى تضيع ما عليك أو ترهق من حولك. ربما كان واجبك أن تبقى مع مريض لا يستطيع أن يترك، أو أن تؤدي عملًا ائتمنت عليه. لا تبدل حقًّا لازمًا بتنوع تراه أجمل في الصورة. تعلم ترتيب الأعمال، وخذ من الحديث الهمة لا الاضطراب.

وحين تقرأ فضل أبي بكر، فلا تقل إن الخير انتهى بأهله السابقين. نحبهم ونعرف لهم سبقهم، ونتعلم ما نستطيع من هديهم. لا نزعم أننا نبلغ منزلتهم بمجرد مشابهة بعض الأفعال، لكن لا نحرم أنفسنا الاقتداء لأن الفارق بيننا وبينهم كبير.

اسأل عن حاجة قريبة تستطيع أن تقوم بها اليوم. وربما كان السؤال الأهم: أي واجب أؤخره وأنا أزيد في نافلة أحبها؟ إذا عرفت، فابدأ بالإصلاح. لا يحتاج كل عمل إلى إعلان، ولا يحتاج كل إعلان صحيح إلى خوف يعطله. كن أمينًا في موضعك، وارجُ ما عند الله.

صيام، وجنازة، ومسكين، ومريض. كلمات قليلة في الخبر، وأعمال حقيقية في حياة صاحبها. هكذا نرجو أن ينمو الإخلاص: يقربنا من ربنا، ويحسن به عملنا مع عباده. فنسأل الله قلبًا صادقًا وهمة على الخير، وعملًا لا يصبح أجمل عندنا بسبب ما يقال عنا.

الباب ٥

ما يفسد الإخلاص

يبدأ الانحراف خافتًا: نعمل ونحن نرجو رضا الله، ثم تعرض للقلب رغبة في أن يرانا الناس أو يتحدثوا عنا. وربما نعجب بما فعلنا حتى ننسى فضل الله علينا. معرفة هذه الآفات باب علاج، لا ذريعة إلى الخوف من كل طاعة وتركها؛ فمن عرف موضع الخلل أمكنه أن يتوب منه، ومن سأل الله العون بقي محتاجًا إلى مجاهدة نفسه.

الرياء يتعلق بما نريد أن يراه الناس، والسمعة بما نريد أن يسمعوه عنا، والعجب بما نظنه في أنفسنا وأعمالنا. قد تجتمع هذه الآفات، وقد يجد الإنسان بعضها دون بعض. وفي كل حال يبقى له عمل يؤديه، وقلب يصلحه، ورب يرجع إليه؛ فلا يغتر بما مدحه الناس به، ولا ييأس مما عرفه من تقصيره.

الفصل ٣٣

فقد قيل

عن سليمان بن يسار قال: «تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلٌ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».[35]

35صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم 1905.

«فقد قيل». كلمة تستحق الوقوف. قد يبذل المرء عملًا طويلًا ليحصل على ذكر عابر في مجلس، ثم يسمع المديح فيظن أنه بلغ الغاية. لكن السؤال الأهم يبقى: هل أراد بهذا العمل رضا الله؟ وهل أداه على الوجه الذي يحبه؟

لم يذم الحديث العلم ولا قراءة القرآن ولا الإنفاق. وإنما حذر من أن نفعل هذه القربات طلبًا للشهرة. فلا يكون خوفنا منه سببًا لترك الخير، بل سببًا لإصلاح النية فيه. نقرأ لنهتدي، ونتعلم لنعمل ونعلم، ونعطي ابتغاء رضا الله ورحمة بعباده، ونسأله أن يتقبل منا.

ولا يختص هذا التحذير بأصحاب المنابر أو الأموال الكثيرة. ربما غيّر إنسان صلاته من أجل شخص واحد، أو بذل معروفًا ليفوز بإعجاب من يحبه. العبرة بما يقصده، لا بعدد من يرونه ولا بمقدار ما يملكه.

ويظهر الامتحان حين تختار بين عمل يحتاج إليه الناس ولا يظهر فيه اسمك، وآخر أقل نفعًا لكنه يجلب ثناءً أكبر. العمل الظاهر ليس خطأ في ذاته؛ فربما كان أنسب لقدرتك أو أشد حاجة. أما إذا تركت الأنفع لمجرد أنه لا يشهرك، فقد عرفت موضعًا يحتاج إلى إصلاح.

وفي طلب العلم امتحان قريب: أتسأل لتفهم، أم ليعرف الحاضرون أنك تحفظ السؤال وجوابه؟ أتشرح ما يحتاج إليه السامع، أم تكثر عليه المسائل ليعجب بعلمك؟ راجع قصدك من غير أن تترك التعلم والتعليم، واجعل حاجة من أمامك أهم من رغبتك في أن يراك واسع المعرفة.

وكذلك المتصدق: قد يتفقد حاجة الفقير، وقد ينشغل بمن سيعرف صدقته أكثر من انشغاله بوصولها. وربما استحيا أن يعطي مبلغًا يسيرًا أمام الناس، مع أنه يستطيع إعطاءه في الخفاء. لا تحتقر ما تقدر عليه، ولا تحمل نفسك ما لا تطيق لتنال وصفًا بالكرم. أعط مما أحل الله لك، واطلب منه القبول.

ولا يبيح لنا الحديث أن نحكم على نية عالم أو قارئ أو متصدق. الله يعلم السرائر، ونحن لا نعلم منها إلا ما أخبرنا به أصحابها. من ظهر عمله قد يكون صادقًا، وقد يكون الخفاء أصلح لآخر. نحاسب أنفسنا بما نعرف، وننصح في خطأ ظهر، ولا نحول الوعيد إلى تهمة نرمي بها من نختلف معه.

ومن رحمة الله بنا أن نسمع هذا التحذير ونحن قادرون على التوبة. ما زال في العمر مجال لتصحيح القصد، ولرد حق، ولعمل نرجو به ما عند الله. لا نحتاج إلى أن ندافع عن كل ما مضى؛ بل إلى أن نصدق فيما نستطيع إصلاحه الآن، وأن نستغفر لما علمناه وما لم نعلمه من تقصيرنا.

قد يمدحك الناس غدًا، وقد لا يذكرونك. فلا يكن الفرق بين الحالين هو الذي يقرر استمرارك في الطاعة. احمد الله على الخير، واقبل النصيحة، وأحسن ما تستطيع. وعندما تسمع الثناء، فاسأل ربك قبول العمل؛ فهذا ما نحتاج إليه حين ينتهي كلام الناس، ونلقى الله بما قدمنا.

الفصل ٣٤

حين نعمل ليرانا الناس

الرياء أن يقصد الإنسان بعبادته أن يراه الناس فيمدحوه أو يعظموه. قد يصلي، أو يقرأ القرآن، أو يتصدق، ويكون ما يريده هو منزلته عندهم. إنه يؤدي عملًا صورته طاعة، لكن قصده اتجه إلى ثناء الخلق. ولهذا كانت العناية بالنية جزءًا من العناية بالعبادة، لا أمرًا نؤجله إلى ما بعد إتقان ظاهرها.

نحن المحتاجون إلى رحمة الله وقبوله، وهو سبحانه غني عنا وعن أعمالنا. فلا نجعل العبادة التي أمرنا أن نخلصها له وسيلة إلى إعجاب أحد بنا.

يكون الرياء أحيانًا واضحًا لصاحبه؛ يعلم أنه لم يكن ليفعل العمل لولا حضور الناس. وقد يتسلل إلى عبادة بدأها لله، فيزيد فيها من أجلهم: يقرأ على حال، ثم يرى من يرجو ثناءه فيتعمد تغيير أدائه لهذا الغرض. متى عرف من نفسه هذا القصد، دفعه ورجع إلى العبادة التي أرادها لله.

لكن وجود الناس لا يثبت الرياء. نصلي في الجماعة، ونتعلم بينهم، ونعطي أمامهم حين تدعو الحاجة. وربما أحسن الإنسان عمله لأن حضور غيره ذكّره بما ينبغي، لا لأنه أراد

مديحه. لذلك لا نحكم على كل نشاط ظاهر بأنه رياء؛ وإنما ننظر فيما نعلم من قصد أنفسنا.

والخاطر العابر ليس كالنية التي يتعمدها صاحبها. قد يخطر لك أن فلانًا يراك، فتكره الالتفات إليه وتعود إلى صلاتك. فلا تعد هذا الخاطر سببًا لإعادتها أو تركها؛ فمقاومة ما يفسد النية غير الرضا به. وقد بيّن ابن رجب الفرق بين الرياء الذي يُدفع وبين ما يسترسل الإنسان معه.[36]

من العلاج أن تعرف ما تفعله في العبادة. حين تقرأ، حاول أن تفهم ما تقرأ. وحين تصلي، تذكر أنك تقف بين يدي الله. وحين تتصدق، انظر إلى حاجة من تحسن إليه. هذا لا يجعل المرء معصومًا من الرياء، لكنه يعينه على أن يعود إلى غرض صحيح كلما وجد في نفسه التفاتًا إلى المديح.

ومن أنفع ما يربي القلب عبادة تخفيها عن الناس: دعاء في خلوة، أو صدقة لا تحمل اسمك، أو إحسان لا تحكيه بعد أن تفعله. لا يلزم أن تصبح حياتك كلها أسرارًا؛ يكفي أن يكون لك عمل لا تنتظر من أحد أن يعرفه. واحذر أن تصير الخبيئة نفسها موضوعًا تتحدث به لتنال ثناءً على إخفائها.

---

36 **ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الأول: «إنما الأعمال بالنيات».**

وتأمل ما يغذي رغبتك في الظهور. إن كنت تكثر النظر في تعليقات الناس بعد كل عمل، أو تسأل مرارًا: ماذا قالوا عني؟ فخفف ما يشغلك بذلك. لا حاجة إلى ترك وسيلة نافعة؛ استعملها لغرض محدد، ثم عد إلى عملك بدل أن تقضي وقتك في انتظار الإعجاب.

وفي العبادة الظاهرة تجنب الزيادة التي تعلم أنك لا تريد بها إلا نظر الناس. لا تنسب إلى نفسك خشوعًا لم تجده، ولا تتكلف هيئة لتوهمهم بكثرة عبادتك. تستطيع أن تكون صادقًا من غير أن تكشف عيوبك؛ فليس من الصدق أن تفضح نفسك، وإنما ألا تصنع للناس عنك خبرًا غير صحيح.

أما العمل الذي يحتاج إلى إعلان، فأدِّ ما يحتاج إليه. قد تتولى جمع تبرعات، فيلزمك بيان المال ومصارفه، أو تشارك في تعليم، فيحتاج الناس إلى معرفة من يعلمهم. حفظ الأمانة ليس رياءً بمجرد ظهوره. صحح نيتك، وبيّن المعلومات اللازمة، واترك المبالغة التي لا تضيف للناس نفعًا.

ولا تفسر كل فتور تشعر به وحدك بأنه رياء. قد تتعب أو تمرض أو يقل نشاطك، وقد تعينك الصحبة الصالحة على الطاعة. هذه أحوال تحتاج إلى فهم ورفق. عالج السبب الذي تعرفه، ولا تلزم نفسك بحكم لا دليل عليه. وفي الوقت نفسه لا تبرر قصدًا فاسدًا واضحًا بأنه مجرد اختلاف في النشاط.

إذا عرفت أنك أردت الثناء، فتب إلى الله. لا تؤجل التوبة لأن الاعتراف يؤلمك، ولا تستسلم لفكرة أنك لا تصلح للطاعة. غيّر ما تستطيع تغييره، واستعن بربك، وواصل الخير. نحن نحتاج إلى قلوب ترجع حين تخطئ، لا إلى ادعاء أننا لم نخطئ قط، ولا إلى يأس يمنعنا من الرجوع.

الفصل ٣٥

حين نحب أن يسمعوا عنا

ربما فعلت معروفًا في الخفاء، ثم وجدت بعد أيام رغبة في أن يعرف الناس به. يأتي ذكر الصدقة في مجلس، فتبحث عن مدخل تحكي منه صدقتك، لا لحاجة في الكلام، بل لتسمع كلمة عن كرمك أو صلاحك. هنا يظهر معنى السمعة: أن يطلب الإنسان بحديثه عن عمله ثناء الناس وتعظيمهم له.

قال رسول الله ﷺ: «مَن سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، ومَن يُرائي يُرائي اللَّهُ به».[37]

يحذرنا الحديث من أن نجعل العبادة طريقًا إلى طلب الذكر والثناء. والعمل الذي قصدنا به الله يحتاج إلى صدق يحفظه من التفاخر بعده، كما احتاج إلى صدق حين بدأناه. وليس انتهاء الفعل نهاية حاجتنا إلى إصلاح القلب.

ولا يعني ذلك أن كل حديث عن الخير ممنوع. قد تعلم غيرك من تجربة مررت بها، أو تجيب عن سؤال، أو تشهد بما يلزم بيانه، أو تشكر نعمة الله عليك. الفرق في الغرض

37صحيح البخاري، كتاب الرقاق، حديث رقم 6499.

وطريقة الكلام. تحدث بما ينفع، واحفظ الصدق وحقوق الناس، ولا تتخذ الفائدة القليلة عذرًا لتفصيل طويل لا غاية له إلا مدح نفسك.

قبل أن تحكي، اسأل نفسك: ما الذي يحتاج إليه السامع؟ قد تعطيه الفائدة من غير ذكر مقدار ما بذلت أو طول ما تعبت، وقد يحتاج إلى معرفة تجربتك كاملة فتذكرها بقدر الحاجة. المواقف ليست سواء؛ والميزان أن تصدق مع نفسك في سبب كلامك.

ومن أخطاء الحكاية أن تكون الوقائع صحيحة، ثم ترتبها لتوهم بأكثر مما وقع. قد تقول إنك بقيت في المسجد وتترك السامع يظن أنك قضيت الليل فيه، أو تذكر مالًا أوصلته فتدعه يعتقد أنه من مالك. إن علمت أنه فهم ما لم يحدث، فلا تستبق هذا الفهم لأنه يعجبك. بيّن الحقيقة ببساطة.

وفي الأعمال المشتركة يظهر هذا الخلل حين تُروى جهود جماعة كأنها جهد شخص واحد. فمنهم من تبرع، ومنهم من تابع، ومنهم من حمل المشقة، ثم لا يذكر المتحدث إلا نفسه. من الإنصاف أن تحفظ لهم حقهم. تستطيع أن تفرح بنجاح شاركت فيه، وأن تقول بصدق ما فعلت، دون أن تنقص من عمل الآخرين.

وقد نحكي حاجة من أحسنا إليه لنثبت مقدار إحساننا. نذكر دينه أو مرضه أو خلافًا في بيته، ولم يأذن لنا أن نكشف ذلك. ليست رغبتنا في تشجيع الصدقة سببًا كافيًا

لكشف ما يكره صاحبه ظهوره. يمكن أن نذكر الحاجة العامة أو نطلب الإذن فيما يلزم، ونترك من التفاصيل ما يمس كرامته ولا حاجة إليه.

تخيل أنك سمعت خبرًا عن رجل ساعد أسرًا محتاجة. يمكنك أن تفرح وتدعو له. وقد تجد في نفسك حاجة إلى أن تقول فورًا: وأنا ساعدت مثلها أو أكثر. توقف قليلًا. ليست كل مناسبة للثناء على غيرك مناسبة للحديث عنك. دع له فرحته، ولا تخف أن يضيع عملك لأن المجلس لم يعرفه.

وإن بدأت الكلام ثم انتبهت إلى رغبتك في المديح، فاختصر وصحح. ولا حاجة إلى أن تجعل المجلس اعترافًا طويلًا بما في قلبك. إن نسبت إلى نفسك ما ليس لك، فبيّن وجه الحق. وإن كشف كلامك أمرًا لا يحل كشفه، فاعمل على إصلاح الأذى بقدر استطاعتك، واستغفر الله، وتعلم أن تكون أحفظ للسانك.

وقد يعتاد المرء أن يشرح للناس نيته بعد كل عمل: لماذا فعل، ولماذا أخفى، وكيف قاوم حب الظهور. المشورة نافعة حين يحتاج إلى من يعينه، لكن الحديث الدائم عن دقة محاسبته قد يتحول إلى طلب ثناء جديد. صدق المجاهدة لا يتوقف على معرفة الناس بمقدارها.

ومن الراحة أن تستطيع حضور مجلس لا تكون أنت موضوعه. تسمع، وتسأل عن أحوال من معك، وتشكر خيرهم، وتتحدث حين يكون لك كلام نافع. لا ينقص قدرك لأن

اسمك لم يُذكر، ولا يضيع إحسانك لأنك لم تحكه. أعط الآخرين من الإصغاء ما تحب أن يعطوك، وارجُ من الله الأجر في حسن صحبتك لهم.

وحين يروي غيرك عملًا صالحًا، فلا تتعجل الحكم على نيته. قد تكون له حاجة صحيحة إلى البيان، وقد لا تعرف من قصته ما تعرفه أنت عن نفسك. إن ظهر كذب أو أذى، فانصح في الخطأ المعلوم. أما ما أخفاه القلب فالله أعلم به. إصلاح حديثك أولى من الانشغال بتخمين سبب حديث كل من حولك.

الفصل ٣٦

العجب بما فعلنا

من الجميل أن تفرح حين يوفقك الله لعمل صالح. تحفظ ما تيسر من القرآن، أو تؤدي أمانة، أو تساعد محتاجًا، فتحمد الله على فضله. لكن هذا الفرح قد يتغير إلى عجب بالنفس: تنظر إلى عملك فتراه دليلًا على فضلك، وتنسى حاجتك إلى توفيق الله ومغفرته، وربما احتقرت من لم يعمل مثلك.

الفرق بين الشكر والعجب واضح في أثر كل منهما. الشاكر يقول بصدق: هذا من فضل الله، وأسأله أن يتقبل مني. والمعجب يطمئن إلى نفسه ويستكثر ما قدم، كأنه لم يعد بحاجة إلى إصلاح. وقد لا يقول ذلك بلسانه، لكن يظهر أثره حين تُذكر له هفوة أو يُطلب منه الاعتذار عن حق ضيّعه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32]. نحن نعرف بعض ما فعلناه، ولا نعلم هل قُبل منا، ولا ما يكون عليه آخر أمرنا. هذا يدعونا إلى التواضع وسؤال الثبات، لا إلى إنكار كل خير ولا إلى أن نقول عن أنفسنا ما نعلم أنه غير صحيح.

قال رسول الله ﷺ:

> «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ». قال رجل: إنَّ الرجلَ

> يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسنًا، ونعلُه حسنةً. قال: «إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ».[38]

يبين الحديث أن الكبر ليس مجرد محبة الهيئة الحسنة؛ بل فسره النبي ﷺ برد الحق واحتقار الناس. قد يلبس المرء لباسًا حسنًا وهو متواضع، وقد يلبس البسيط وهو متعالٍ؛ فالعبرة بما يصنعه القلب عند ظهور الحق وبما يلقاه به صاحبه من الناس.

تأمل حالك عندما ينصحك من هو أصغر منك سنًا أو أقل خبرة. إن أخطأ فمن حقك أن تبين خطأه، وإن أصاب فهل تقبل قوله؟ أم ترفض لأنك ترى نفسك أرفع من أن يصحح لك؟ قبول الحق لا ينقص علمك ولا خبرتك، وإنما يمنعك من اتخاذهما عذرًا للبقاء على الخطأ.

ومن صور العجب الاغترار بإحسان مضى: ساعد أهله سنوات، أو خدم عملًا نافعًا، ثم رأى أن من حقه أن يقصر اليوم دون أن يراجعه أحد. المعروف السابق لا يبيح ظلمًا جديدًا. ومن شكر نعمة الطاعة أن يستقيم بعدها، لا أن يحتج بها على من يطالبه بحق أو يذكره بواجب.

38صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم 91.

ومن علاج العجب أن تتذكر ما أعانك الله به. تعلمت لأنك وجدت من يعلمك، وعملت لأن الله أعطاك صحة وقدرة ووقتًا، وأنفقت لأنه رزقك. لا يلغي هذا جهدك، لكنه يمنعك من نسيان فضله. كم من خير كنت تحبه ولم تستطع فعله، ثم تيسر لك بأسباب لم تصنعها وحدك.

وتذكر أيضًا ما لا يعرفه الناس من تقصيرك. لا لتفضحه، ولا لتحتقر نفسك، بل لتبقى صادقًا في تقديرها. ربما مدحوك على خُلُق تظهره في مجلس، وأنت تعرف حاجتك إليه في بيتك. اجعل المديح تذكيرًا بأن تستقيم في الخفاء، لا سببًا لتصدق أنك قد بلغت ما يظنونه فيك.

وقد يتخذ العجب صورة أخرى: أن ترى نفسك أفضل لأنك لا تتكلم عن أعمالك، ثم تزدري من يتحدثون. حتى إخفاء العمل لا يمنحك علمًا بقلوبهم. افرح بما أعانك الله عليه من ستر، واسأله الإخلاص، ودع عنك المفاضلة بين نفسك والناس فيما لا تعلم. ليس علاج الرياء أن نقع في احتقار الخلق.

ولا نعالج العجب بإلغاء الثقة بما نقدر عليه. لك أن تقبل مسؤولية تحسن أداءها، وأن تذكر خبرتك حين تحتاج إلى بيانها، وأن تسعى إلى تطوير عملك. التواضع أن تعرف قدرتك وحدودها، وتطلب العون، وتقبل المراجعة. أما إنكار كل قدرة فقد يمنع نفعًا تستطيعه، وليس هذا هو المقصود بتربية القلب.

وإذا أخطأت، فليكن اعتذارك عن خطأ محدد. قل: تأخرت في حقك، أو لم أتحقق من الخبر، أو أسأت في عبارتي. ثم أصلح ما تستطيع. لا تكتف بكلام عام عن كثرة عيوبك إذا كنت لا ترد الحق إلى صاحبه. الصدق في إصلاح خطأ واحد أنفع من وصف طويل للتواضع لا يتبعه عمل.

كلما وفقك الله إلى خير، فاحمده واطلب منه القبول. وكلما عرفت تقصيرًا، فتب إليه ولا تيأس. وبين الشكر والاستغفار مجال واسع للعمل الصالح: لا تنسب الفضل كله إلى نفسك، ولا تنكر رحمة الله بك. أنت عبد يحتاج إلى ربه قبل الطاعة وفي أثنائها وبعدها، وهذه الحاجة لا تنتهي بكثرة ما عملت.

الفصل ٣٧

لا تترك الطاعة خوفًا من الرياء

يخشى بعض الناس الرياء حتى يصير خوفهم سببًا لترك الطاعة. يريد أحدهم أن يقرأ القرآن، ثم يقول: سيظنون أني أريد إعجابهم. أو يُطلب منه تعليم ما يحسنه فيعتذر لأنه لا يضمن سلامة نيته. الخوف من فساد القصد يحتاج إلى علاج، لكنه ليس في نفسه دليلًا على أن ترك الخير هو العلاج الصحيح.

الواجب لا يسقط لأن الناس يرونك. تؤدي الصلاة في وقتها، وترد الأمانة، وتنفق النفقة الواجبة، ولو علموا بذلك. وإذا وجدت ميلًا إلى مدحهم، فجاهد هذا الميل وأدِّ ما عليك. نحن لا ننتظر قلبًا لا تعرض له خواطر حتى نطيع الله؛ إنما نطيعه ونسأله أن يصلح قلوبنا في طاعته.

أما النوافل، فإخفاء بعضها قد يكون أعون على الإخلاص، وإظهار بعضها قد تدعو إليه مصلحة. تصدق من غير إعلان حين يتيسر، وشارك باسمك حين يحتاج العمل إلى معرفة من يقوم به. انظر إلى حالك وحاجة العمل، ولا تتخذ قاعدة واحدة تمنعك من كل خير ظاهر أو تلزمك بإظهار كل ما تفعل.

أنت في زيارة وقد حان وقت الصلاة، فتستحي أن تقوم خشية أن يظن بعض الحاضرين أنك تريد أن تبدو صالحًا. لا تحتاج إلى خطاب عن حرصك ولا إلى اعتذار عن صلاتك؛ قم بهدوء وأدِّها. إنما طلبت رضا الله، وليس بيدك أن تمنع كل تفسير يخطر لغيرك.

ويعرض الخوف نفسه في التعليم: تعرف جوابًا نافعًا، لكنك تخشى أن تُمدح على معرفتك. بيّن الحق بقدر علمك، وقل فيما لا تعلم: لا أعلم. المقصود ألا تتصدر لما لا تحسن، وألا تمنع علمًا يحتاج إليه غيرك لمجرد احتمال الثناء. وصدقك في بيان حدود علمك عون على سلامة نيتك.

ومما يريح القلب معرفة الفرق بين الخاطر والاختيار. قد يخطر لك أن الناس سيعجبون، ثم تكره أن يكون هذا غرضك وتعود إلى طلب رضا الله. هذه المدافعة غير العمل لأجل إعجابهم. وقد شرح ابن رجب أن الرياء العارض إذا دفعه صاحبه لا يضره، بخلاف الاسترسال معه؛ وفي تفاصيله أحوال لا تُجمع في حكم واحد.[39]

لا تفتش بعد كل حركة عن خاطر جديد. يكفيك أن تقصد الطاعة وتدفع القصد الفاسد الذي تعلمه. فإن بقيت الشكوك تتكرر ولا تنتهي إلى شيء معلوم، فلا تسلّم لها قيادة

39**ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الأول: «إنما الأعمال بالنيات».**

عبادتك. أما إذا عرفت أنك تتعمد الاستعراض، فصحح ذلك وتب. الانصراف عن الشك ليس عذرًا للإصرار على خطأ واضح.

ومن الوسائل المعينة أن تقلل ما لا يحتاج إليه العمل من الإعلان. لا تضف إلى التعليم حكايات عن كثرة قراءتك، ولا إلى الصدقة وصفًا لمشقتك، ولا إلى النصيحة حديثًا يرفعك فوق المنصوح. قد تستطيع أداء الخير كاملًا بكلام أقل عن نفسك، فتسلم للناس فائدته ويكون أحفظ لقلبك.

واحذر أن يصير خوف غيرك من الرياء وسيلة لإبعاده عن الطاعة. إذا أقبل شاب على خير، فأعنه وذكّره برفق، ولا تستقبله بسؤال اتهام عن صدق نيته. قد يحتاج إلى تشجيع وتعليم أكثر مما يحتاج إلى تحذير متكرر. نجمع له الرجاء والخوف، وندعوه إلى تصحيح القصد مع الاستمرار في العمل.

وإن اتهمك إنسان بما ليس فيك، فلا تكشف له كل أعمالك الخفية لتثبت الإخلاص. إن كان في فعلك خطأ ظاهر فصححه، وإن كان اتهامًا للقلب بلا بينة فلا تدخل في خصومة لا تنتهي. الله يعلم ما أردت، وأنت محتاج إلى رضاه أكثر من حاجتك إلى أن يقتنع كل أحد بوصفك لنفسك.

وتذكر أن كثيرًا من حقوق الناس لا يؤدَّى إلا بينهم. رعاية أهلك، ومساعدة جارك، وتعليم ولدك، وإتقان عملك؛ كلها أعمال قد تُرى وتُشكر. لا تهرب منها طلبًا لعالم لا يراك

فيه أحد. تعلم أن تحسن وأنت بينهم، وأن تحفظ نيتك بقدر ما تستطيع، وأن تستغفر كلما قصرت.

لا تؤخر بداية الخير حتى تطمئن إلى نفسك اطمئنانًا كاملًا. ابدأ بما شرع الله، وتعلم، وجدد نيتك، واسأله العون. إن عرفت ضعفًا أصلحته، وإن مدحك الناس لم تجعل المدح غايتك. بهذا يكون الخوف من الرياء معينًا على الإخلاص، بدل أن يصبح سببًا لترك الطاعة التي نريد أن نخلص فيها.

الفصل ٣٨

حين يأتيك ثناء لم تطلبه

قيل لرسول الله ﷺ: «أرأيتَ الرجلَ يعملُ العملَ من الخيرِ ويحمدُه الناسُ عليه؟» قال: «تلك عاجلُ بُشرى المؤمنِ».[40]

يرفق هذا البيان بقلب خاف أن يكون كل سرور بالثناء رياءً. قد تعمل لله، ثم يعلم الناس فيشكرونك، فتفرح بكلامهم؛ وهذا غير أن تبدأ العمل من أجل أن يقولوا عنك ما تحب.

المهم أن تميز بين السبب الذي عملت لأجله وبين شيء حسن جاء بعد العمل. ساعدت لأنك أردت نفع صاحبك ورضا الله، ثم سمعت شكره. لا يلزم أن تنكر سرورك أو تتهم كل ما مضى. احمد الله، واشكر لصاحبك حسن كلامه، وابق محتاجًا إلى سؤال القبول؛ فالثناء وحده ليس شهادة بأن العمل قد قُبل.

وربما تغير القصد بعد تجربة المديح: فعلت الخير أول مرة دون انتظار، ثم صار اختيارك في المرة التالية متعلقًا بتكرار الثناء. هنا تحتاج إلى مراجعة جديدة، لا إلى

40صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم 2642.

الحكم بأن الماضي كله كان فاسدًا. ما فرحت به بعد الفعل لا تجعله الغاية التي تختار الفعل من أجلها بعد ذلك.

ويكشف غياب الشكر شيئًا من حالك. ربما حزنت قليلًا ثم واصلت ما عليك، وربما ربطت كل معروف بوعد ضمني أن يمدحك الناس. المشاعر وحدها لا تعطي حكمًا نهائيًا على النية، لكنها قد تنبه إلى حاجة للإصلاح. اسأل نفسك عما ستفعله بعد الشعور، لا عن وجود الشعور وحده.

ومن حسن المعاملة أن نشكر من أحسن إلينا. لا يصح أن نجحد جهد أهلنا وزملائنا، ثم نطالبهم بالإخلاص إذا تألموا. العامل يجاهد نفسه ليريد الله، ونحن نجاهد أنفسنا لنكون أوفياء منصفين. يمكن للزوج أن يرجو الأجر في رعاية أسرته، ويمكن لأسرته أن تشكره وتعينه، ولا تعارض بين الأمرين.

وللثناء حدود تحفظ صاحبه. أرشد النبي ﷺ من احتاج إلى مدح إنسان أن يقول ما يعلم، وألا يزكي على الله أحدًا.[41] فبدل أن نجزم بنقاء سريرته، نصف إحسانه الذي رأيناه. نشكره على أمانة أو تعاون أو رفق، ونرجو له الخير، ولا نجعله فوق الخطأ أو فوق حق الآخرين في مراجعته.

41صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم 3000.

وإذا مدحك أحد بما لم تفعل، فصحح الخبر بلطف. قد ينسب إليك عملًا اشترك فيه كثيرون، فاذكرهم. وقد يظن أنك بذلت مالًا كنت أمينًا على إيصاله، فبيّن ذلك. ليس المطلوب أن تنكر دورك الصحيح، وإنما ألا تستبقي فهمًا خاطئًا لأنه يرفعك في أعين الناس.

وهناك فرق بين طلب المديح وطلب الحق. قد ينسب عملك إلى غيرك، ويترتب على ذلك ضياع أجر أو فرصة تستحقها. لك أن تطلب الإنصاف بصدق وعدل. فلا يكن الحديث عن الإخلاص سببًا للسكوت عن الظلم، ولا تتخذ مظلمة مهنية ذريعة إلى الانتقام أو الكذب. احفظ حقك وأصلح نيتك معًا.

وقد تحب أن يعرف أهلك تعبك؛ وهذا احتياج إلى المودة والتعاون، لا يحكم عليه بمجرده أنه رياء. اطلب منهم مساعدة أو تقديرًا من غير أن تمنّ عليهم بكل ما فعلت. كن واضحًا فيما تحتاج إليه، وابق رفيقًا؛ فالمصارحة الهادئة خير من إحسان يتبعه غضب لأن الآخرين لم يفهموا ما أخفيته عنهم.

وحين يكثر ثناء الناس، تذكر أنك تعرف من نفسك ما لا يعرفون. لا تكذب حسن ظنهم بالتقصير المتعمد في الخفاء. اجعل ما قالوه داعيًا إلى مزيد من الصدق، لا سببًا للاطمئنان إلى أنك قد صرت كما وصفوك. وقد ينفعك أن تدعو لهم بدل أن تعيد كلامهم في نفسك طول اليوم.

أما النقد، فليس كل نقد نقيضًا للقبول عند الله. قد يكون صحيحًا فتتعلم منه، وقد يكون جائرًا فلا تظلم بسببه. ثناء الناس وذمهم أخبار تحتاج إلى وزن بالحق، لا أحكام نهائية على قلبك. استفد من ملاحظاتهم في عملك، ولا تصيّر محبتهم الغرض الذي تعبد الله لأجله.

لك أن تفرح بالكلمة الطيبة، وأن تبقى عبدًا يرجو المغفرة. ولك أن تحزن من جفاء ثم تؤدي ما عليك. لا نحتاج إلى قلوب تدعي أنها لا تتأثر، بل إلى قلوب لا تتخذ تأثرها عذرًا للمعصية. إذا جاء الثناء فاحمد الله، وإذا غاب فاسأله الثبات، وفي الحالين قل بصدق: يا رب، تقبل مني.

الفصل ٣٩

حين ينصحك أحد

ينبهك شخص إلى خطأ وقع منك، فتجد في نفسك ضيقًا. ربما كانت طريقته قاسية، أو شعرت بالحرج أمام الحاضرين. لا يشترط أن تزول هذه المشاعر فورًا، لكن يبقى سؤال لا ينبغي أن يضيع معها: هل ما قاله صحيح؟ إن كان صحيحًا، فإصلاحه نفع لك، ولو تمنيت أن يقال بطريقة أرفق.

قال الله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: 135]. من الصدق مع الله أن نقبل الحق حين يوافقنا وحين يكون علينا. ليس الإخلاص أن نحب الكلام عن العدل فقط؛ بل أن نرد مالًا، أو نصحح خبرًا، أو نعتذر، حين يتبين أن هذا هو العدل المطلوب منا.

تصور أنك كتبت رقمًا خطأ في تقرير، فنبهك زميل أمام الآخرين. تستطيع أن تصحح الرقم، ثم تطلب منه أن تكون الملاحظات الشخصية بينكما. لا تتخذ خطأه في الأسلوب حجة لبقاء رقم تعلم أنه غير صحيح. وفي الوقت نفسه لا يلزمك أن توافق على إهانة أو أن تسكت عن تكرارها.

وأشد النصيحة على النفس ما جاء ممن لا ترتاح إليه؛ فهي تحب أن يكون الحق مع من تحب. لكن صدق الطلب يظهر في قبول الصواب ممن جاء به. قل: أصاب في هذه المسألة، من غير أن توافقه في كل شيء. لا يخسرك الإنصاف ما تعلمه من حق، وإنما يحفظك من رده بسبب صاحبه.

ومن الأخطاء أن نحتج بحسن نياتنا على كل ملاحظة. تقول لمن تأذى بكلامك: لم أقصد إزعاجك. قد يكون هذا صحيحًا، لكنه لا يغني عن الاعتذار أو تصحيح الفهم. بيّن قصدك، واعترف بما وقع من أذى، ولا تتخذ سلامة ما أردت سببًا لإهمال ما يحتاج إليه من خاطبته.

وليس المطلوب أن تقبل كل اتهام. إن نُسب إليك ما لم تفعله، فلك أن تنفيه وتبين الحقيقة. التواضع لا يلزمك باعتراف كاذب، ولا يمنعك من السؤال عن الدليل. فرق بين الدفاع عن حق وبين الدفاع عن خطأ تعلمه. الأول عدل، والثاني يحتاج إلى توبة ولو سميته حفظًا لكرامتك.

وربما احتجت إلى مهلة حتى تهدأ وتفهم. أخبر من ينصحك أنك ستراجع الأمر، ثم راجعه فعلًا، ولا تستخدم التأجيل لنسيان الملاحظة. اسأل من تثق بعلمه إن أشكلت المسألة، واذكر له الوقائع كما حدثت، لا كما تحب أن يسمعها؛ فالمشورة المبنية على قصة ناقصة قد تثبتك على الخطأ بدل أن تصححه.

وحين تنصح أنت، تذكر أن من أمامك بشر يتألم كما تتألم. عالج الفعل الذي تعرفه، ولا تجزم بما في قلبه. قل: هذا التصرف أضر بفلان، أو هذه النسبة غير دقيقة. ولا تقل بلا بينة: إنك لا تريد إلا الشهرة. النصيحة أمانة، وليست فرصة لتفريغ غضبك أو لإظهار أنك أعرف منه بقلبه.

ولا تطلب من المنصوح أن يبالغ في شكرك حتى تصدق أنه انتفع. قد يحتاج إلى وقت، وقد يصحح بهدوء، وقد يتعلم من شخص آخر. إن كنت تريد له الخير، فافرح بوصوله إليه، ولو لم ينسبه لك. وربما كان أصدق ما في النصيحة أن تصلح بينه وبين الحق دون أن تطلب لنفسك منزلة عنده.

وفي بيوتنا نحتاج إلى أمان يسمح بالاعتذار. إذا اعترف ولد أو زوج أو أخ بخطأ، فلا تحوّل اعترافه إلى حجة تذكّره بها كلما اختلفتما. طالب بالإصلاح، واحفظ له فرصة التوبة. كثرة التشهير بالخطأ قد تدفع الناس إلى إخفائه، أما العدل والرحمة فيعينانهم على مواجهته دون ضياع الحقوق.

ومن علامات المراجعة الصادقة أن يظهر أثرها في عملك. غيّر المعلومة، وأدِّ الأمانة، وارجع إلى من أسأت إليه. لا يكفي أن تقول إنك تحب النصيحة ثم يتكرر الخطأ نفسه لأنك لم تتخذ خطوة لإصلاحه. وقد تعود فتقصر، فتحتاج إلى محاولة جديدة؛ المهم ألا يتحول تكرار الضعف إلى عذر لترك المجاهدة.

لا يلزم أن تخرج من كل نقاش وأنت المصيب. يكفيك أن تطلب ما يرضي الله، وأن ترجع حين يظهر لك الصواب. إنصافك لمن نبهك لا يصغرك، واعتذارك الصادق لا يضيع فضلك. احمد الله على من أعانك، واسأله أن يرزقك قلبًا يقبل الحق، ولسانًا يؤديه برفق، وعملًا يصدق هذا القبول.

الفصل ٤٠

حين ينجح غيرك

يسهل أن نفرح لنجاح إنسان بعيد، ويصعب الفرح أحيانًا حين ينجح من بدأ معنا: زميل نال فرصة تمنيناها، أو صديق أتقن ما حاولنا إتقانه، أو قريب أثنى الناس على إحسانه. ويصعد في النفس سؤال: لماذا هو وليس أنا؟ هذه لحظة تحتاج إلى صدق ورفق، حتى لا يتحول الضيق إلى ظلم.

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».[42] نحب لأنفسنا الخير، ونتعلم أن نحبه لإخواننا أيضًا. ليس المطلوب أن نترك السعي أو نكره تفوقنا، بل ألا نرى نعمة غيرنا مصيبة لنا. يمكن أن نجتهد لننجح، وأن ندعو لمن سبقنا بالبركة، وأن نتعلم مما أحسن فيه.

وقال رسول الله ﷺ: «لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالًا فسلّطه على هَلَكَتِه في الحق، ورجلٌ آتاه الله الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلّمها».[43]

---

42 **صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 13.**

43 **صحيح البخاري، كتاب العلم، حديث رقم 73.**

المراد بالغبطة أن تتمنى مثل هذا الخير من غير أن تتمنى زواله عن صاحبه. ترى خيرًا عند أخيك، فتسأل الله أن يرزقك مثله، لا أن يسلبه ما أعطاه. بهذا يتحول إعجابك بعمله إلى دافع نافع لك.

إن وجدت في نفسك ضيقًا، فلا تغذه بانتقاص صاحب النعمة. لا تبحث عن خطأ يخفف عليك سماع مدحه، ولا تنقل عنه خبرًا لم تتحقق منه، ولا تمنع شهادة تعرف صحتها. قد لا تتغير مشاعرك كلها في لحظة، لكنك تستطيع أن تمنع لسانك ويدك من الظلم، وتسأل الله أن يصلح قلبك.

وفي عمل الخير قد تختبئ المنافسة وراء عبارات تبدو نصحًا: نراجع مبادرة غيرنا بشدة، ونتساهل مع أخطائنا المشابهة، ونسر إذا تعثرت ثم نقول إننا نخشى على الناس منها. قف مع نفسك: إن كان فيها خطأ، أفتريد إصلاحه أم بقاءه حتى يثبت أنك أفضل؟ الجواب الصادق يساعدك على تعديل قصدك وكلامك.

ولا يعني هذا منع النقد الصحيح. قد تنصح في مشروع لا تقوده، وتكشف ضررًا يجب منعه، وتطلب حقًا ضاع منك. افعل ذلك بعلم وعدل، واذكر ما له وما عليه. صحة اعتراض واحد لا تبيح لك المبالغة، ولا تحوّل حسنات المخالف إلى أخطاء لمجرد أنها تضايقك. اطلب الإصلاح، لا التشفي.

اختارت جماعة شخصًا غيرك لقيادة عمل نافع. إن كانت طريقة الاختيار ظالمة، فناقشها بوضوح. وإن كان أهلًا للمهمة، فاسأل عما تستطيع تقديمه من خبرة أو وقت أو نصيحة. لا تشترط لنفع الناس أن تكون أنت المسؤول الذي يظهر اسمه، ولا تفسد ما تستطيع إعانته.

وقد تحزن لأنك بذلت جهدًا ولم تبلغ مثل ما بلغ غيرك. هذا لا يلزم أن يكون حسدًا. لك ظروف وقدرات ومسؤوليات، وله غيرها. انظر إلى ما تحتاج إلى تعلمه وما تستطيع تحسينه، ولا تحكم من مقارنة واحدة على قيمة حياتك كلها. ربما كان لك خير كثير في بيتك أو عملك لا يظهر في خبر نجاح قصير.

ومن الخطوات القريبة أن تهنئ بصدق. لا تضم إلى التهنئة تذكيرًا بأنك ساعدته، ولا سؤالًا يهون ما فعل. قل الكلمة الطيبة التي يستحقها، وادع له في غيبته. وإن شق ذلك في البداية، فجاهد نفسك. ليس معنى المجاهدة أن تتصنع المحبة وتضمر الأذى، بل أن تبدأ بما يعينك على ترك الأذى وإصلاح المحبة.

وحين تحتاج إلى التعلم منه، فلا يمنعك الحرج. اسأله عن طريقة نافعة، واستفد من خبرته، واشكره. ربما اكتشفت أن انشغالك بالمقارنة حرمك علمًا قريبًا. من يطلب رضا الله ينتفع بالخير على يد غيره كما يحب أن ينتفع الناس على يده؛ وليس عليه أن يكون دائمًا المعطي أو المعلم.

وفي الأسرة احذر أن تورث أبناءك المقارنة المؤذية. شجع أحدهم دون إذلال الآخر، واذكر جهد كل واحد، وعلمهم أن يفرحوا لبعضهم. ولا تستخدم نجاح الأخ لتذكير أخيه بأنه أقل منه. يمكن للمنافسة أن تشجع العمل، لكن الرحمة والإنصاف يحفظانها من أن تفسد المودة بينهم.

كلما صدق طلبنا لرضا الله، سهل علينا أن نرى الخير خيرًا ولو جرى على يد غيرنا. لا نزعم أن هذا يتحقق دون مجاهدة، ولا نمنح أنفسنا شهادة بسلامة القلب. نبدأ بموقف محدد: تهنئة صادقة، أو شهادة عادلة، أو مساعدة نستطيعها. ثم نسأل الله أن يحبب إلينا الخير لإخواننا كما نحبه لأنفسنا.

الباب ٦

الإخلاص في بيوتنا وأعمالنا

لا ينتظر الإخلاص عملًا نادرًا. ففي البيت أهل ينتظرون رفقنا، وفي العمل أمانات تختبر صدقنا، وحولنا أناس يبلغهم النفع بما نعرف أو نملك. تمر هذه الأعمال المألوفة كل يوم، وربما غاب عنا ما نرجوه بها من رضا الله؛ فإذا صلحت النية وأحسنّا الأداء، اتسعت الحياة كلها للاحتساب.

لكن الاحتساب لا يستر إهمال الحقوق. فمن أراد وجه الله لم يظلم من يعمل معه، ولم يفضح من تصدق عليه، ولم يقصر في أهله ثم يكتف بكثرة إحسانه إلى الغرباء. هنا تظهر تربية القلب: صدق في التفاصيل، ورحمة بمن لا يقدر على مكافأتنا، وخير يستمر ولو قل الشكر.

الفصل ٤١

خيرك لأهلك

سأل الأسودُ عائشةَ رضي الله عنها: «ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟» قالت: «كان يكون في مِهْنَةِ أهله» — تعني خدمة أهله — «فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة».[44]

لم تمنعه منزلته من خدمة أهله، ولم تكن عنايته بهم غفلة عن عبادته. يذكرنا هذا الهدي بأن أقرب الناس إلينا ليسوا أقل استحقاقًا لرفقنا وخيرنا.

نحرص أحيانًا على مساعدة ضيف، ولا نرى تعب من أعدّ له الطعام. ونحسن الاستماع إلى غريب، ثم نضيق بحديث أهلنا لأن حاجاتهم تتكرر. الألفة نعمة، لكنها لا تسقط قيمة الخدمة؛ فمن يعيشون معنا يحتاجون إلى الرحمة كل يوم، لا في المناسبات التي يراها الناس وحدها.

لأعمال البيت إيقاع يعيد نفسه: يُعد الطعام فيؤكل، ويُنظف المكان فيحتاج إلى تنظيف، ويُرعى الصغير فيعود إلى البكاء. يوهم هذا التكرار بعضنا أن العمل يضيع، مع

44 **صحيح البخاري، كتاب الأذان، حديث رقم 676.**

أن الخير تحقق فعلًا: شبعوا وارتاحوا وشعروا بالعناية. تلك منافع حقيقية، وإن لم يبق منها شيء يُعرض على الآخرين.

اجعل خدمة أهلك طاعةً وإحسانًا. لا تفتقر النية إلى كلمات طويلة قبل كل مهمة؛ يكفي حضور المعنى في قلبك. حين تقضي حاجة والديك، أو تعين زوجك، أو تلاطف ولدك، تذكر أن في البيت أعمالًا ترجو بها الأجر كما ترجوه في صدقة تعطيها خارجه.

وقال أنس رضي الله عنه: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أُفًّا قط، ولا قال لي لشيء: لِمَ فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟».[45]

عشر سنين من المعاشرة، لا موقف واحد أمام الزائرين. يدعونا هذا إلى مراجعة كلامنا مع من يساعدوننا: هل نجعل الخطأ العابر سببًا للإهانة؟ وهل نصبر حين لا نخاف ردًّا ممن أمامنا؟

الرحمة لا تسكت عن كل خطأ؛ نعلّم، ونبين ما نحتاج إليه، ونضع حدودًا عادلة من غير تجريح. قل إن أمرًا يحتاج إلى إصلاح، ولا تختصر صاحبه في وصف أنه لا ينفع في شيء. فرق كبير بين توجيه يعين على التعلم وكلمة تجعل الإنسان يخجل من نفسه كلما تذكرها.

---

45 **صحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم 2309.**

ويبدأ الإنصاف من توزيع أعباء البيت. لا يجوز أن نطالب أحدًا باحتساب كل شيء ثم نعفي أنفسنا من المشاركة. اسأل عما تقدر عليه، واتفق مع أهلك على ما يناسب طاقتهم وظروفهم. وربما كانت المساعدة اليسيرة وقت التعب أبلغ في المودة من هدية تأتي بعد تجاهل طويل للحاجة.

وإن كنت أنت المتعب، فتكلم بوضوح. قل إنك تحتاج إلى راحة أو مساعدة، بدل أن تستمر فوق طاقتك ثم تغضب لأنهم لم يفهموا. احتساب الأجر لا يمنع المصارحة، ولا يلزمك بكتمان كل حاجة. اطلب حقك برفق، وابق راغبًا في رضا الله بما تؤديه لهم.

واحذر أن تكون ألين مع البعيد وأقسى مع القريب بحجة أن أهلك يعرفون حقيقتك. الصدق ليس أن نطلق كل غضبنا في البيت. من أحب رضا الله راقب لسانه مع من يألفهم، لا مع من يخشى حكمهم عليه فقط. ربما كان كف كلمة جارحة في بيتك أصدق امتحان لما تحدث الناس به عن حسن الخلق.

يكثر الإنسان أحيانًا من خدمة الآخرين، ثم يترك في بيته واجبات لا يؤديها أحد عنه. الخير خارج البيت مهم، لكن ترتيب الحقوق يحتاج إلى علم وعدل. لا تختَر دائمًا ما يجلب شكرًا ظاهرًا وتترك ما يلزمك لأنه مألوف. اعرف ما وجب عليك أولًا، ثم توسع في التطوع بقدر استطاعتك.

ومن حسن النية حسن التدبير. لا تعد الناس بضيافة أو خدمة ثم تحمل أهلك تبعات وعدك دون اتفاق. ولا تظن أن رغبتك في الكرم تعفيك من النظر في الوقت والمال والطاقة. الكريم يرفق بمن يعينونه، ويشكرهم، ولا يجعل إحسانه إلى ضيوفه سببًا لإرهاقهم أو إحراجهم.

ابدأ باعتذار عن نبرة، أو مشاركة في مهمة أهملتها، أو وقت تصغي فيه دون هاتف. لا تستصغر هذه الخطوات لأنها لا تبدو إنجازًا كبيرًا؛ فإصلاح المعاشرة يقع غالبًا في أفعال قريبة قابلة للتكرار، لا في وعود واسعة لا يعرف أهلنا كيف سيظهر أثرها في يومهم.

وإذا أحسنت فلا تجعل معروفك حجة تعيدها في كل خلاف. ناقش المسألة الحاضرة بإنصاف، ولا تجمع سنوات الخدمة لتلزم من أمامك بالسكوت. لك حق في التقدير، ولهم حق في كلام لا يمنّ عليهم. كلنا نحتاج إلى من يرى تعبنا، وإلى أن نتعلم طلب ذلك من غير إيذاء.

ادخل بيتك وفي قلبك رجاء أن تكون خيرًا لأهلك. قد تتعب وتقصر، فتستغفر وتصلح. وقد لا تجد الرد الذي تتمناه، فتطلب ما لك بأدب وتؤدي ما عليك. هذه المجاهدة ليست بعيدة عن الإخلاص؛ إنها موضع من مواضعه القريبة، حيث يعرفك الناس أكثر، وحيث تستطيع أن تبدأ اليوم.

الفصل ٤٢

نربي أبناءنا لله

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا. فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحدًا. فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: مَن لا يرحم لا يُرحم».[46]

لم تكن المودة ضعفًا في التربية، ولا كان إظهار الرحمة نقصًا في مكانة الكبير. يحتاج الأبناء إلى الحب كما يحتاجون إلى التعليم.

نريد لأبنائنا الصلاح والنجاح، وهذا رجاء حسن. لكن ماذا نحمل داخل هذا الرجاء؟ أنريد خيرهم حقًا، أم نريد أيضًا أن يثني الناس على تربيتنا؟ يجتمع في النفس حب صادق ورغبة في المديح، وهنا يلزم أن تتقدم مصلحة الابن على ما نتمنى سماعه عن أنفسنا.

46صحيح البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 5997.

يكشفها غضبنا من خطأ وقع أمام الأقارب، ثم تساهلنا في مثله إذا لم يعرفه أحد. عندها قد يفهم الابن أن المهم ألا يحرجنا، لا أن يصدق مع الله. احفظ ستره، وعالج الخطأ في ظهوره وخفائه، وبيّن له أن رضا الله لا يتغير بتغير من يشاهدنا.

يحفظ صغيرك سورة، فتفرح به وتريد أن يسمعها كل زائر. التشجيع حسن، لكن انتبه إلى حاله: لا تحول كل مجلس إلى اختبار لنجاحك، ولا توبخه إن ارتبك. دعه يفرح بما تعلم، واشرح له معنى ما يقرأ، وعلمه أن القرآن هداية وعبادة قبل أن يكون مناسبة للمديح.

ولا يحتاج الطفل بعد كل ثناء إلى سؤال مخيف عن نيته. قل له إن الله يحب هذا الخير، وإننا نفعله رجاء رضاه، سواء عرفه الناس أم لم يعرفوه. شجعه على الفعل الصحيح، من غير أوصاف عن طهارة قلبه لا تعلمها؛ فالتوجيه الهادئ المتكرر أرفق من تهمة لا يفهمها.

ومن التربية لله أن نفرق بين حكم الدين ورأينا الشخصي. قد تفضل لولدك دراسة أو عملًا أو طريقة في المعيشة، وتكون لك خبرة تنصحه بها. لكن لا تجعل كل ما تفضله واجبًا شرعيًا، ولا كل ما يخالف ذوقك معصية. بيّن أسباب رأيك، واستمع إليه، وارجع إلى العلم حين يحتاج الأمر إلى حكم.

ومن اعتذارنا يتعلم الأبناء. قد تكون محقًا في تصحيح سلوكهم، لكنك أخطأت في العبارة أو العقوبة. قل ذلك وأصلح ما تستطيع؛ فالاعتذار لا يسقط مسؤوليتك، بل يعلمهم أن الكبير والصغير يرجعان إلى الحق. ولن ينتفعوا بحديثك عن التواضع مثلما ينتفعون برؤيتك تقبله في موقف حقيقي.

وحين يتعثر الابن، لا تجعل المحبة مكافأة لا ينالها إلا الناجح. يحتاج إلى أن يعرف أنك تنصح وتصحح وتبقى رحيمًا به. إن كان مخطئًا، فلا تسمّ الخطأ صوابًا، لكن لا تختصره كله في خطئه. أعنه على خطوة ممكنة، واذكر ما أحسن فيه، ولا تكرر المقارنة التي تجعله يظن أن مكانه في قلبك أقل.

ينشغل الوالدان أحيانًا بمظهر صلاح الأبناء أمام الناس عن حاجتهم إلى سؤال هادئ. فالولد الذي يؤدي ما يطلب منه ربما أخفى حيرة لا يجرؤ على ذكرها. استمع دون سخرية، ولا تعد مجرد السؤال دليل فساد. ابحث معه عما ينفعه، ودعه يجد فيك معينًا على فهم الدين والعمل به.

ومن الأمانة أن نحفظ خصوصيتهم. ليس كل موقف مؤثر في صلاة الطفل أو بكائه أو توبته مادة للنشر. فكر في حاجته إلى الأمان، وفيما قد يشعر به حين يكبر. يمكن أن نفرح بصلاحه ونشجع غيره دون أن نجعل لحظاته الخاصة متاحة لكل أحد. ليس مقدار ما نعرضه من حياتهم دليلًا على مقدار عنايتنا بهم.

تبذل ما تستطيع، ولا ترى النتيجة التي ترجوها سريعًا. التربية صبر ودعاء ومراجعة، والهداية بيد الله. لا تعد تأخرها دليلًا على ضياع كل الجهد، ولا سببًا لترك النصح. تعلم ما تحتاج إليه، واستشر من يفهم الحال، وغيّر الأسلوب الذي تبين لك أنه يزيد البعد.

ولا تحمل الأبناء مسؤولية إكمال ما فاتك في حياتك. لهم قدرات وميول مباحة قد تختلف عن ميولك. تستطيع أن توجههم إلى النافع وتحذرهم من الضرر، لكن رغبتك في أن تراهم نسخة منك ليست هي ميزان كل اختيار. من حبك الصادق أن تعينهم على الخير الذي يستطيعونه، لا على صورة تريح مقارنتك بالآخرين.

في دعائنا لهم نحتاج إلى صدق يتجاوز النجاح الظاهر. نسأل الله أن يهدي قلوبهم، ويصلح أعمالهم، ويرزقهم رحمة وصدقًا وعفة. ونسأله لنا صبرًا وعدلًا وحكمة. لا ندعو فقط أن يفعلوا ما نريد؛ فقد نخطئ فيما نريد، ونحتاج معهم إلى هداية ربنا وتصحيح نظرنا.

ليعرف أبناؤنا أننا نحب لهم رضا الله، وأننا معهم في التعلم والمجاهدة. لسنا كاملين، وهم لن يكونوا بلا خطأ. لكن في البيت الرحيم يستطيع المخطئ أن يعود، والسائل أن يفهم، والمحسن أن يفرح دون غرور. تلك معانٍ نرجو أن نربي عليها أنفسنا ونحن نربيهم، وأن يجعل الله عملنا فيها خالصًا له.

الفصل ٤٣

الأمانة في العمل

ينتهي الاجتماع ويبقى أمامك عمل لا يراقبك فيه أحد: أتتمه بصدق، أم تكتفي بما يبدو جيدًا عند عرضه؟ في هذا الاختيار الصغير يظهر أثر الإيمان في يومك. ليست الأمانة حديثًا نقوله في المسجد وحده؛ إنها وقت التزمت به، ومعلومة ائتُمنت عليها، وحق ينتظر صاحبه أداءه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].[47]

من الأمانة أن تعرف ما عليك، وأن تبذل في أدائه ما تستطيع، وألا توهم من يتعامل معك بما لم تفعل. وقد تحتسب في عملك كفاية نفسك وأهلك ونفع الناس، مع طلب الرزق الحلال الذي تحتاج إليه.

47الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.

طلب الراتب ليس عيبًا في النية. أنت تعمل بعقد معلوم، ولك أجرة معلومة وحقوق محفوظة؛ غير أن الحاجة إلى الراتب لا تبيح الكذب أو الغش. اطلب زيادة أو فرصة أفضل، وابق أمينًا في المهمة التي بين يديك. الاحتساب يزيد حرصك على الحق، ولا يلغي حقك في المقابل المشروع.

ومن الاختبار أن تعرف خطأ في تقرير فتخفيه لأن ظهوره يحرجك. تأخير الحقيقة قد يدفع غيرك إلى قرار مبني على معلومات غير صحيحة. إصلاح الخطأ مبكرًا أنفع من حمايته حتى يكبر: قل ما وقع وما يمكن فعله، ولا تنقل المسؤولية إلى زميل غائب لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

وربما كان الرقم صحيحًا، لكن عرضه منفردًا يوهم بنتيجة تعلم أنها غير صحيحة. الأمانة ليست صحة كل كلمة منفردة فحسب، بل صدق المعنى الذي تقصد إيصاله. إن كان من حق من أمامك معرفة جزء يؤثر في قراره، فلا تتعمد إخفاءه لتنال ثناء على إنجاز لم يتحقق كما صورته.

ولا يعني الصدق أن تكشف أسرار العمل لكل أحد. أوصل المعلومة إلى من له حق فيها، واحفظ خصوصية الناس. إذا التبست عليك مسؤولية الإبلاغ أو حدود الكتمان، فاسأل من يعرف الحكم والواقع. لا تستخدم السرية لحماية خيانة، ولا تستخدم الرغبة في التصحيح ذريعة إلى كشف ما لا حاجة إلى كشفه.

والعامل الأمين يحتاج إلى نظام واضح يعينه. معرفة المسؤوليات، وتوثيق الاتفاقات، ومراجعة المال، وتحديد مواعيد التسليم، أمور تحفظ الحقوق. ليست المراجعة اتهامًا للقلوب؛ فقد ينسى الصادق ويخطئ المجتهد. قبولك للتدقيق يعينك على إصلاح ما لم تنتبه إليه، ويجعل ثقة الناس مبنية على وضوح لا على المجاملة وحدها.

وإن كنت مسؤولًا عن غيرك، فلا تجعل الحديث عن الإخلاص وسيلة إلى تكليفهم بما ليس عليهم دون رضاهم. أدِّ الأجر في حقه، وأنصف في توزيع العمل، وبيّن ما تطلب. لك أن تشجع التعاون، لكن من يطلب حقه لا يصير قليل الإيمان بمجرد ذلك. الأمانة مطلوبة ممن يأمر كما هي مطلوبة ممن ينفذ.

ومن الخير أن تعلم زميلًا ما يحتاج إليه، وأن تترك لمن يخلفك معلومات واضحة، وأن تمنع خطأ قبل وقوعه. قد لا يظهر اسمك في نتيجة العمل، لكنك تعرف النفع الذي قدمته وترجو أجره. لا تحبس معرفة نافعة لتبقى وحدك من يستطيع أداء المهمة، إلا ما وجب حفظه عن غير المخول به.

قد يلح عليك أن تبدو قادرًا على كل شيء، فتقبل ما لا تعرف أو تعد بوقت لا تطيق الوفاء به. الصدق في حدود قدرتك أفضل من حماس يضر بالآخرين. قل ما تحتاج إلى تعلمه أو إلى مساعدة فيه؛ فالاعتراف بهذا ليس ضعفًا في الأمانة، بل من أول ما يحفظها.

وحين تخطئ، لا تجعل نيتك الحسنة جوابًا عن كل ضرر. بيّن ما حدث، وساعد في التصحيح، وتعلم ما يمنع تكراره. حسن القصد مهم، لكنه لا يعوض إهمال أسباب تعلمتها ثم تجاهلتها. والإخلاص يدعوك إلى الإتقان فيما تقدر عليه، وإلى السؤال فيما تجهله، لا إلى الاكتفاء بأنك لم ترد السوء.

يسبقك غيرك أحيانًا إلى مكافأة أو ترقية. لك أن تسأل عن المعايير وتطلب العدل، لكن لا تفسد عملك انتقامًا، ولا تضر بعميل أو مراجع لا ذنب له فيما وقع. ضع مطالبتك بحقك في موضعها، وإن احتجت إلى الانتقال إلى عمل آخر فافعل بصدق ووفاء بالتزاماتك.

ولا تنس بقية حياتك. ليس من حسن القصد أن ترهق نفسك باستمرار حتى تضيع واجبات أهلك وصحتك وما يلزمك من عبادة. اطلب تنظيمًا يعينك على التوازن، واعتذر عما لا تطيق. يمكنك أن تكون جادًا في عملك دون أن تجعل تقييمك فيه هو الحكم الوحيد على قيمة نفسك.

عند نهاية اليوم، راجع ما تستطيع إصلاحه من مهمة أو وعد، ثم اسأل الله البركة والقبول. قد لا يكون يومك مليئًا بأحداث كبيرة، لكن فيه فرصًا للصدق والعدل والنفع. أدِّها لله بقدر استطاعتك، ولا تستصغر أمانة حفظتها لأن أحدًا لم ينتبه إلى أنك كنت قادرًا على خيانتها.

الفصل ٤٤

نعمل معًا

قال النبي ﷺ: «الخازن المسلم الأمين الذي يُنفِّذُ ـ وربما قال: يُعطي ـ ما أُمر به كاملًا موفَّرًا طيِّبٌ به نفسه، فيدفعه إلى الذي أُمر له به، أحد المتصدقين».[48]

لم يكن المال بالضرورة ماله، لكنه شارك بأمانته وحسن أدائه. وفي هذا ما يفتح رجاءً لمن يعملون في إيصال الخير، ولا يملكون أن يقدموا المال كله من عندهم.

يسهل أن نرى المتبرع، وننسى من بحث عن المحتاج، ومن حفظ المال، ومن حمله، ومن تابع وصوله. الخير يشترك فيه أناس كثيرون، ولكل منهم مسؤولية. فلا تحتقر دورك لأنك لا تظهر عند التسليم، ولا دور غيرك لأن الناس يلتفتون إليك أكثر؛ الله يعلم العمل الذي خفي عنهم كما يعلم ما رأوه.

وتأمل صفات الخازن في الحديث. هو أمين، يؤدي كاملًا، ويعطي من أُمر له، ويطيب نفسه بالعطاء. ليست البشارة لمجرد وجوده في مكان خيري. فإذا أنقص المال، أو أخره

48صحيح البخاري، كتاب الزكاة، حديث رقم 1438.

بغير حق، أو غير مصرفه بحسب هواه، فقد أخل بما ائتُمن عليه. اسم الخير لا يجعل كل تصرف يقع تحته صحيحًا.

يصل المال أحيانًا إلى صاحبه ومعه كلام يؤذيه: يسأله العامل بأسلوب مهين، أو يذكره مرارًا بفضل الجهة عليه، أو يشترط شكرًا ظاهرًا. المحتاج يحتاج إلى المنفعة وإلى كرامته معًا. تحقق من استحقاقه واطلب المعلومات اللازمة دون أن تجعله يعتذر عن حاجته أو يسترضيك لينال ما خُصص له.

وفي العمل المشترك يحفظ الوضوح المودة. من المسؤول عن القرار؟ ومن يتابع التنفيذ؟ وما حدود ما يحق لكل واحد التصرف فيه؟ الاتفاق على ذلك ليس جفاء بين الإخوة، بل وقاية من نزاع سببه اختلاف الفهم. الحماسة وحدها لا تكفي إذا كان كل شخص ينتظر من الآخرين ما لم يتفقوا عليه.

ربما تعلقت بفكرة اقترحتها، ثم عدلها الفريق إلى ما يرونه أنفع. إن كان لك اعتراض صحيح فبينه وناقش بوضوح؛ وإن ظهر أن التعديل يحسن العمل، فلا تتمسك بالأول لمجرد أنه اقتراحك. من صدق محبتك للخير أن تقبل ما يزيد نفعه، ولو جاء التحسين على يد غيرك.

والقائد يحتاج إلى أن يفرح بنمو من يعملون معه. دربهم، وأعطهم ما يحتاجون إليه من معرفة، وساعدهم على تحمل المسؤولية. لا تجعل بقاءك ضروريًا في كل تفصيل هو

هدفك. قد يكون من أعظم نفعك أن يستمر العمل بعدك بخير، لا أن يتعطل كلما غبت ليعرف الناس مقدار حاجتهم إليك.

ومن حق العامل أن يُشكر على ما أحسن، وأن تُنسب إليه مساهمته بصدق. لا يصح أن يقال له: اعمل لله، ثم تُنسب أعماله عمدًا إلى شخص آخر. الإخلاص لا يبيح سرقة الجهد. اشكر الناس بإنصاف، وإن كنت أنت صاحب الجهد فاطلب تصحيح النسبة بقدرها، دون أن تجعل الخصومة سببًا لهدم نفعهم.

تُعهد إليك مهمة صغيرة في ظنك، كترتيب أسماء أو مراجعة رقم أو الاتصال بمستفيد. أحسنها؛ فقد يتوقف عليها نفع كبير. لا تختَر دائمًا ما يراك فيه الآخرون، وتترك ما يحتاج إلى صبر لا يلحظونه. قيمة المهمة ليست في كثرة الحديث عنها، بل في الحق الذي تؤديه والنفع الذي تحققه.

وإذا وجدت خطأً في الفريق، فحبك له لا يلزمك بالسكوت. انصح عبر الطريق المناسب، وميز بين الهفوة والخيانة، ولا تبن حكمك على إشاعة. قد تكون المراجعة مؤلمة، لكنها تحفظ العمل حين تكون صادقة عادلة. وفي المقابل لا تجعل خلافًا شخصيًا سببًا لنشر كل ما تعرفه من أسراره.

وقد تُنقل من دور أحببته أو يُختَر له غيرك. لك أن تسأل وتتعلم وتطلب الإنصاف، لكن تألمك لا يبيح تعطيل مصالح لا ذنب لأصحابها. سلّم ما عندك بصدق، واحفظ ما وجب

حفظه، واستعن بالله على ما تجد. أداء الأمانة ساعة الضيق أصدق من وفاء لا يظهر إلا حين تكون راضيًا.

ولا تمنح الفريق وعودًا لا تملك الوفاء بها. إن تغيرت قدرتك، فأخبر من يعتمد عليك مبكرًا. وإن احتجت إلى الاعتذار، فاعتذر بوضوح بدل أن تغيب ويبحثوا عنك. حسن القصد يشمل احترام وقت الآخرين وجهدهم، كما يشمل الحماسة لخدمة من خارج الفريق.

ونحتاج في التعاون إلى رحمة تقبل التعلم. من أخطأ خطأ يمكن إصلاحه، فأعنه على إصلاحه، ولا تجعل كل هفوة سببًا لإسقاطه. ومن تكرر منه الضرر، فضع له حدودًا مناسبة. لا تكون الرحمة إهمالًا، ولا تكون المحاسبة إذلالًا. الغرض أن يصح العمل ويأمن الناس، لا أن يثبت أحد أنه أقوى من غيره.

لك نصيب من الخير فيما تؤديه بأمانة، ولو لم يكن المال مالك أو الفكرة فكرتك. فلا تصغر دورك، ولا تكبره على حساب شركائك. اعمل في موضعك، واشكر من يعينك، واسأل الله أن يصلح نياتكم جميعًا. نرجو أن يجمعنا على طاعته، وأن يحمينا من أن يفرقنا طلب المديح عن خير نستطيع فعله معًا.

الفصل ٤٥

خير يجري على يد غيرك

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «إني أُبدِعَ بي فاحملني». فقال: «ما عندي». فقال رجل: يا رسول الله، أنا أدلُّه على من يحمله. فقال رسول الله ﷺ: «من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله».[49]

لم يملك الدال أن يقضي الحاجة وحده، لكنه عرف من يستطيع، فبذل ما عنده من معرفة.

كم من خير قريب يقع بهذه الصورة: لا تقدر على النفقة، لكنك تعرف جهة موثوقة تعين صاحب الحاجة؛ ولا تعرف جواب السؤال، لكنك تدل السائل على من يعلمه؛ وتعجز عن حل مشكلة، وتعرف أول خطوة صحيحة فيها. فلا تجعل عجزك عن الأمر كله سببًا لترك الجزء الذي تقدر عليه.

---

49 **صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم 1893.**

ويحتاج التعليم إلى هذه السعة. فمن حق السائل أن يصل إلى جواب أمين، لا أن يبقى متعلقًا بك وحدك. إذا عرفت من هو أعلم بالمسألة فدل عليه، وإذا لم تعلم فقل ذلك. لا يضيع فضلك لأن طالب العلم انتفع بغيرك؛ فقد كنت سببًا في وصوله إلى ما يحتاج إليه.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]. الدعوة تحتاج إلى علم بما نقول. لا نعوض قلة العلم بكثرة الحماسة، ولا نجعل خوفنا من أن نبدو جاهلين سببًا لجواب نختلقه. كلمة «لا أعلم» أصدق من قول يطمئننا إلى صورتنا ويضلل السائل.

تعرف الجواب أحيانًا فتطيله أكثر مما يحتاج. يسأل مبتدئ عن حكم قريب، فتذكر له خلافات وألفاظًا لا يفهمها لأنك تحب أن يراك واسع الاطلاع. راجع حاجته؛ فليس كل تفصيل زيادة في النفع. قد يكون البيان المختصر الواضح أرحم به، وتبقى الزيادة لوقتها.

وقال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذن وأقام فصلى، ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، والآية التي في الحشر: ﴿اتَّقُوا

اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ}. تصدق رجل من دينار، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره ـ حتى قال ـ ولو بشق تمرة». قال: «فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت». قال: «ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».[50]

بادر الأنصاري إلى صدقة مشروعة، فاقتدى به غيره، وكان لظهور المبادرة نفع لمن احتاجوا. ودلالة الحديث هنا على بدء الناس بالفعل المشروع وإحياء بابه، لا على اختراع عبادة لا أصل لها.

تدلنا القصة على أن القدوة قد تكون علنية. نبدأ بما شرع الله وندعو إليه، لا نبتكر عبادة جديدة ثم نحتج بحسن غرضنا. تتبرع أمام الناس لتشجعهم وتجاهد نفسك على الإخلاص، ويكون الإخفاء أصلح في حال أخرى. الميزان هو النفع المشروع وصدق القصد، لا الظهور والخفاء وحدهما.

---

50 **صحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم 1017.**

ومن أمانة التعليم حفظ نسبة ما ننقل. إذا أخذت قولًا من عالم، فانسبه إليه في موضعه. وإذا استفدت فكرة من زميل، فلا تقدمها كأنها لم تخطر إلا لك. ذكر فضل الآخرين لا ينقص إضافتك الصحيحة، ويعلم من يسمعك أن العلم تعاون، وأن الوصول إلى الحق أهم من الانفراد بالفضل.

يسبقك من علّمته أحيانًا إلى معرفة جديدة. لا تضق بذلك؛ اسمع منه، وتثبت مما يقول، واقبل صوابه. لعل ما تعلمه ثمرة لما أعنته عليه. ومن أجمل ما يشهده المتعلم أن معلمه لا يمنعه من النمو، ولا يرى قبول الحق منه نقصًا في مكانته.

وربما صلح حال أخيك على يد شخص آخر بعد أن نصحته طويلًا. افرح بإصلاحه، ولا تطالبه بأن يقر بأسبقية كلامك. ربما احتاج إلى وقت، أو فهم العبارة الثانية أوثق، أو تهيأت له أسباب لم تكن من قبل. إن كان غرضك خيره، فقد جاء الخير الذي كنت ترجوه له.

وقد يتأخر أثر ما تعلّم. لا تعرف ماذا بقي في قلب السامع، ولا متى يعمل به. لا تجعل قلة الشكر سببًا لقسوتك عليه، ولا تنسب إليه سوء النية لأنه لم يتغير كما أردت. أحسن البيان، وراجع الأسلوب، واصبر بقدر ما تستطيع. أنت مأمور بالبلاغ النافع، ولست مالكًا لقلوب الناس.

وإذا تبين خطأ في تعليمك، فارجع عنه بوضوح. لا تحاول إخفاءه بزيادة الكلام أو بتغيير السؤال. قل إنك أخطأت، وبيّن الصواب، وأوصل التصحيح إلى من يحتاج إليه. قد يصعب هذا على النفس، لكنه من خير ما تعلمه للناس: أن حق الدين والمعلومة أسبق من المحافظة على صورة المعلم.

ولا تشترط أن يبقى اسمك مع كل أثر لعملك. قد تنقل كلمة صحيحة، فينقلها غيرك، وينتفع بها من لا يعرفك. احفظ حقوق النقل حيث تلزم، لكن لا تجعل فقدان المديح هو الذي يقلقك أكثر من فقدان المعنى. نرجو أن يبقى الخير نافعًا وإن غاب اسم من بدأه عن ذاكرة من انتفعوا به.

أمامك معرفة يسيرة قد تفتح بابًا لغيرك. دل عليها بأمانة، ولا تعد بما لا تعلم، ولا تربط المساعدة بأن يعود إليك صاحبها بالشكر. اسأل الله أن ينفع بك، وأن ينفعك بمن حولك. من واسع فضله أن جعل للدلالة على الخير أجرًا، فلم يقصر رجاءه على من يملك تنفيذ كل خير بنفسه.

الفصل ٤٦

قبل أن تنشر

تنتهي من كتابة كلمة نافعة، فتتتابع الأسئلة: هل ستنتشر؟ من سيعجب بها؟ وهل يذكر الناس اسمك؟ التفكير في الوصول ليس خطأً كله؛ فقد تريد أن تبلغ الفائدة أكبر عدد. لكن حين يصير المديح أهم من صحة ما تنشر، حان أن تسأل من جديد: ما الذي أريد تحقيقه حقًا؟

ابدأ بالمادة نفسها: أصحيح الخبر؟ وهل نقلت كلام صاحبه بأمانة؟ وهل يجوز إظهار ما فيه من أحوال الناس؟ هذه الأسئلة تسبق إعجاب الجمهور. لا يصير الخبر غير الصحيح عملًا صالحًا لأنك أردت به نصرة قضية تحبها، ولا تصير الإهانة نصيحة لأن عنوانها يبدو دينيًا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6].[51]

51الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.

قد نكون أحوج إلى التحقق حين يوافق الخبر غضبنا. تفرح بما يسيء إلى مخالفك فتستعجل نقله، ولو جاء مثله فيمن تحب لطلبت الدليل. اطلب الدليل في الحالين؛ فالعدل لا يتغير بتغير صاحب الخبر.

ومن أعظم الأمانات نسبة الكلام إلى النبي ﷺ. تستحسن عبارة، لكنها ليست حديثًا، أو يكون لها لفظ صحيح غير المنشور. تحقق قبل النقل؛ فالانتشار والصورة الجميلة لا يثبتان النسبة. وإذا لم تعرف صحتها، فاسأل أو أمسك عن نسبتها إليه. ويمكن بيان المعنى الحسن دون دعوى حديث لم يثبت.

يصِح أصل الكلام أحيانًا ثم يغيره الاختصار: تحذف قيدًا من فتوى، أو تنقل جزءًا من جواب على واقعة خاصة، فيفهم الناس حكمًا عامًا لم يقله صاحبه. الأمانة تشمل من السياق ما يحتاج إليه الفهم. فلا تنتق ما يثير الانتباه وتترك ما يمنع الخطأ لأنه أقل جذبًا للمشاهدين.

وفي تصوير الإحسان حقوق لا يجوز نسيانها. من تتصدق عليه ليس وسيلة لنجاح صورتك. قد يوافق لأنه يخشى أن تُحرم عنه المساعدة، أو لا يتصور أين ستصل اللقطة. لا تضغط عليه، وابحث عما يحقق الفائدة دون كشفه. يمكن أن تدعو إلى العطاء بذكر الحاجة، دون عرض وجه صاحبها وأدق ما يمر به.

وقد يكون إعلان التبرع مطلوبًا لحفظ الأمانة أو تشجيع غيرك. بيّن ما يحتاج إليه المقام، ولا تزد ما يكشف خصوصيات الناس. ليس كل نشر رياءً، وليس كل كتمان إخلاصًا. لكن من صدق القصد أن تقبل طريقة أقل ظهورًا إذا كانت أحفظ لمن تحسن إليه وتحقق النفع نفسه.

وبعد النشر راقب ما يأخذ وقتك. متابعة الأسئلة وتصحيح الفهم عمل نافع، أما تكرار النظر في الأرقام انتظارًا للمدح فيستنزف القلب. حدد وقتًا يناسب مهمتك، ثم عد إلى بقية يومك؛ فلا تؤجل حقوق أهلك وصلاتك وعملك حتى يطمئن قلبك إلى مقدار التفاعل.

والانتشار ليس دليلًا كافيًا على الصواب ولا على القبول عند الله. قد ينتشر خطأ لأنه مثير، وقد تبقى كلمة صادقة بين عدد قليل. استفد من وسائل تحسين الوصول، لكن لا تضخم الخبر ولا تظلم أحدًا لأجلها. جودة العمل تشمل صدقه وأثره النافع، لا عدد من شاهدوه وحده.

وإذا تبين خطأ منشور، فصححه. قد يكفي حذف شيء قبل انتشاره، وقد يحتاج الضرر إلى بيان واضح يصل إلى من سمعوه. انظر فيما يرفع التضليل، ولا تجعل المحافظة على مكانتك سببًا لبقاء الناس على فهم تعرف خطأه. الاعتذار الصادق أكرم من دفاع طويل لا تقبله أنت لو صدر من غيرك.

يصبح لك جمهور يحب منك رأيًا معينًا، ثم تتعلم ما يدعوك إلى تصحيحه فتخشى غضبهم. لا تحتقرهم ولا تستفزهم، لكن اشرح ما تبين لك بأدب. إن كنت تريد لهم الخير، فلا تقدم رضاهم المؤقت على أمانة العلم؛ وربما كان في رجوعك درس في الصدق أكبر من بقاء صورة لا تخطئ.

ومن حسن استعمال الوسيلة أن تعرف متى تصمت. فليس كل رأي محتاجًا إلى إعلان، ولا كل خلاف إلى تعليق، ولا كل غضب إلى جملة يقرأها الناس. الانتظار حتى تهدأ أحفظ للعدل أحيانًا، وسؤال المتخصص خير من جواب متعجل يحفظ حضورك في كل موضوع.

ولا تحمل نفسك على ترك كل وسيلة نفع لأن فيها امتحانًا للنية. تعلم أن تستعملها بصدق، وقلل ما يفسد عليك قلبك، وابتعد حين تعرف أن الضرر يغلب. تختلف الحاجة والقدرة بين الناس؛ فلا تجعل تجربتك حكمًا عامًا على الجميع، ولا تقيس صلاح قلبك بمقدار حضورك أو غيابك عن الشاشة.

قبل أن تنشر، اسأل الله أن يجعل كلامك حقًا نافعًا. ثم تحقق، وأنصف، واحفظ ستر من لا يجوز كشفه، وانشر أو أمسك بحسب ما تعلم. وبعد ذلك لك حياة واسعة لا تختصرها التعليقات. أحسن إلى من أمامك، ولو لم تُلتقط صورة، وقل كلمة خير لمن يسمعها منك وحده، وارجُ في هذا كله رضا الله.

الفصل ٤٧

حقوق الناس لا تسقط

قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار».[52]

هذا تحذير لمن يجمع العبادة مع ظلم الناس، ثم يظن أن كثرة ما فعل تغنيه عن رد حقوقهم. الصلاة والصدقة خير، لكنهما لا تعطياننا إذنًا بالإساءة. من أراد رضا الله حفظ حقه وحق عباده، وإذا أخطأ رجع. لا نجعل حديثنا عن طيبة قلوبنا جوابًا لمن تأذى بأفعالنا.

52صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم 2581.

يجتمع في الإنسان خير كثير ومظلمة تحتاج إلى إصلاح. الاعتراف بها لا يمحو محاسنه، بل يعينه على حفظها من عاقبة الظلم. فلا يقل: كيف تطالبونني وقد فعلت كذا وكذا؟ الحق المطالب به ينظر فيه لذاته؛ إن ثبت فأدّه، وإن لم يثبت فبيّن الحقيقة دون إهانة صاحبه.

وقال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم؛ إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه».[53]

ما زال في الدنيا مجال للرد والاعتذار والإصلاح. لا تؤجل حقًا تستطيع أداءه لأن الاعتراف به يحرجك. المال الذي تعيده اليوم خير من أن تبقى تتذكره وتستغفر دون أن تبذل ما تقدر عليه لرده.

اعرف أولًا ما عليك: دين معلوم، أو مال أخذته بغير حق، أو خبر كاذب نشرته، أو عمل نسبته إلى نفسك. لكل مظلمة طريق إصلاحها؛ فالمال يُرد، والخبر يُصحح، والنسبة تعاد إلى صاحبها. وإذا التبس وجه الإصلاح، فاسأل أهل العلم مع بيان الحال، ولا تتبع طريقة تزيد الضرر.

---

53 **صحيح البخاري، كتاب المظالم، حديث رقم 2449.**

ومن ذلك كلام سيئ لم يبلغ صاحبه. قد تختلف صورة الإصلاح باختلاف ما قيل وما يترتب على إخباره. لا تتعجل بكشف يؤذيه لمجرد أنك تريد راحة نفسك، ولا تجعل احتمال الأذى عذرًا للبقاء على الظلم. ارجع إلى من يفتي بعلم، واعمل بما يلزمك من توبة وإصلاح ودعاء وبيان في موضعه.

وفي الاعتذار قدم حق من أمامك على رغبتك في أن تبدو حسنًا. قل بوضوح ما أخطأت فيه، ولا تجعل الاعتذار شرطًا أن يعترف هو بخطأ أكبر. قد تكون له أخطاء تناقشها في وقت مناسب، لكن خطأه لا يمحو ما عليك. الصدق يبدأ حين نتحمل مسؤولية ما نعرف أننا فعلناه.

ولا تطلب منه أن ينسى الأذى في اللحظة نفسها. قد يحتاج إلى وقت أو إلى ضمان يتوقف معه الضرر. ليس الاعتذار تصرفًا يمنحك حق الدخول إلى حياته كيف تشاء. احترم الحدود المشروعة، وأدّ ما عليك بالطريق المناسب، ولا تكرر الاتصال أو الظهور إذا كان في ذلك أذى جديد لا حاجة إليه.

يريد المخطئ أحيانًا أن يعلن توبته، ثم يضيق إذا بقي المتضرر يطلب حقه. لكن التوبة لا تجعل مطالبة صاحب الحق عدوانًا. رد المال وفاء، وإصلاح النسبة عدل، لا منّة تستوجب المديح. احمد الله أن أعانك على الرجوع، واترك لصاحب الحق ما يملكه من عفو أو مطالبة مشروعة.

ولا نضغط على المظلوم باسم صفاء القلب. للعفو فضله، لكن الدعوة إليه لا تبدأ بإعفاء الظالم من الإصلاح. قد يحتاج المظلوم إلى حماية أو إنصاف أو توقف للأذى. أعنه على ذلك، ثم ذكّره بالعفو برفق حين يكون له موضعه. لا تجعل تأخره في المسامحة تهمة دينية تزيد وجعه.

وتكشف الأيام التالية صدق الاعتذار: هل تغير الفعل؟ هل حفظت الوعد؟ هل توقفت عن ذكر الخطأ بطريقة تلوم بها من تأذى؟ قد تضعف وتحتاج إلى مزيد من المجاهدة، لكن الاعتذار ليس عادة لفظية تعود بعدها مطمئنًا إلى الأذى نفسه. من أراد الإصلاح بحث عما يمنع التكرار.

وإن عجزت عن أداء حق مالي دفعة واحدة، فلا تكذب في قدرتك ولا تتجاهل صاحبه. بيّن ما تستطيع بصدق، واتفق على ما يجوز ويلائم الحال، واسع في الوفاء. العجز الحقيقي يحتاج إلى صبر وسعي، وليس إذنًا بالفرار من كل سؤال. وربك يعلم من يحاول الوفاء ومن يتخذ العجز حجة للمماطلة.

وقد يكلفك رد الحق شيئًا من المال أو المكانة. هذا مما يشق على النفس، لكنه يذكرها بمن تطلب رضاه. لا نحتاج إلى أن يصفق الناس لتصحيحنا، بل إلى أن نبرأ من ظلم نعرفه. افعل الواجب في موضعه، واستتر فيما يجوز ستره، ولا تستعمل الستر لمنع حق أو استمرار خيانة.

ارجُ رحمة الله وأنت تعمل على رفع الظلم، لا وأنت تؤخره عمدًا. صلّ واستغفر وتصدق، ورد ما تستطيع من الحقوق. لا نفصل هذه الأعمال عن بعضها حتى تخدعنا طاعة عن معصية مستمرة. نريد قلبًا يحب الله فيرحم عباده، ويخاف لقاءه فينصفهم، ويخطئ فيعود، ويجد في الرجوع أملًا لا عذرًا للتأجيل.

الفصل ٤٨

رحمة بمخلوق ضعيف

قال رسول الله ﷺ: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي. فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر».[54]

لم يكن الإحسان مقصورًا على من يعرف كيف يشكر صاحبه. مخلوق يحتاج إلى ماء، ورجل أدرك حاجته وبذل في سقيه جهدًا، فجاء الخبر النبوي بالمغفرة له.

هذا مما يوسع رجاءنا في أبواب المعروف. تمر بحاجة قريبة فلا تراها عملًا يستحق العناية، لأن صاحبها لا ينطق ولا يملك مكافأتك. لكنها ليست صغيرة عند الله لمجرد أنها لا تُحكى في المجالس. افعل ما شرع من إحسان، ولا تنتظر لكل خير صورة كبيرة أو اسمًا معروفًا.

54صحيح البخاري، كتاب المساقاة، حديث رقم 2363.

تذكر الرجل عطشه حين رأى عطش الكلب. لم يقل: لقد شربت، فلا شأن لي بغيري. وما نمر به من حاجة قد يعيننا على فهم حاجة من حولنا. من عرف التعب أقدر على مراعاة المتعب إذا انتبه، ومن عرف الوحدة يستطيع أن يرفق بمن لا يجد من يحدثه. العبرة أن يتحول الفهم إلى إحسان مناسب.

ولست مضطرًا إلى المرور بكل ألم حتى ترحم. يكفي أن تستمع وتنظر إلى الحاجة بعناية. فالكبير قد يستحي من الشكوى، والطفل يعجز عن الشرح، والحيوان الذي صار تحت رعايتك لا يتكلم. السؤال عن حاجتهم وتعلم ما يلزم لهم أمانة، فلا تنتظر ظهور الضرر.

والقوة على الضعيف ليست إذنًا بإيذائه. لا تخفه للتسلية، ولا تعذبه لأن أحدًا لا يستطيع منعك. وما ائتُمنت على رعايته يحتاج إلى طعام وماء وعناية مناسبة. إن لم تقدر على ذلك، فاطلب من يعين أو يتولى الرعاية على وجه صحيح، بدل أن يبقى ضعيفًا يتضرر بعجزك وإهمالك.

والرحمة اليوم ربما كانت منع أذى لا بذل مال: تكف من يعبث بحيوان، أو تزيل سببًا لخطر تقدر على دفعه، أو تخبر جهة مختصة بحالة تحتاج إلى عناية. اختر الوسيلة الآمنة المناسبة، ولا تقلد صورة النزول في البئر إن كانت تعرضك للخطر؛ المقصود الإحسان، لا إعادة تفاصيل القصة في غير موضعها.

ونحن نصدق أن الله غفر للرجل لأن النبي ﷺ أخبر بذلك. أما أنفسنا فنرجو لها القبول ولا نجزم بما لم نخبر به. لا تجعل القصة سببًا للتهاون في الصلاة أو حقوق الناس، كأن فعلًا معينًا يتيح إهمال بقية الدين. بشائر الرحمة تزيدنا رغبة في الطاعة، ولا تعطينا إذنًا بالظلم.

وقد يُظهر الإنسان عمل رفق ليعلم غيره، وقد يخفيه، والنية تحتاج إلى إصلاح في الحالين. لا تجعل التصوير أهم من راحة المخلوق أو سلامته. إن احتاج إلى عون عاجل، فابدأ بالعون. وليس كل ما يصلح مادة مؤثرة للنشر يصلح أن يُفعل على تلك الهيئة إذا كان يزيد خوف الضعيف أو ألمه.

ومن معاني الإخلاص أن نعطي حيث لا ننتظر ردًا. من أحسنت إليه ربما لم يعرف اسمك، وربما عجز عن التعبير؛ فيذكرك ذلك بأن الخير لا يحتاج دائمًا إلى شكر مسموع. لا نزعم الإخلاص لمجرد غياب المكافأة، لكننا نجد هنا مجالًا نعود فيه إلى طلب رضا الله ونترك انتظار المقابل.

والرحمة لا تلزمك بأن تحمل ما لا تطيق من أحوال العالم. قد ترى حاجات كثيرة، فلا تقدر إلا على القليل. افعل الممكن على وجهه، ولا تجعل عجزك عن الجميع سببًا لترك القريب. وفي الوقت نفسه احفظ ما عليك من حقوق، واطلب المشورة حين تتزاحم الحاجات، حتى لا يضيع واجب بسبب اندفاع غير محسوب.

وإذا عرفت في نفسك قسوة، فابدأ بكف الأذى وبعمل رحمة تستطيع فعله. لا تنتظر دمعة أو شعورًا قويًا حتى تحسن. قد تكون مراعاة حاجة صغير أو كبير، أو حسن معاملة من يعمل عندك، خطوة عملية تعينك على التغير. واسأل الله أن يلين قلبك، وأن يعلمك كيف ترحم من جعل لك قدرة على نفعه.

تأمل ما بين يديك من نعم يسيرة في نظرك. ماء تشربه متى أردت، وطعام تجده، وأمان تعود إليه. شكرها يكون بحمد الله، وبحسن استعمالها، وبالرفق بمن يفقد ما تستطيع إعانته عليه. لا ننتبه إلى قيمة النعمة عند فقدها فقط؛ نستطيع أن نتعلم ذلك ونحن نتمتع بها.

رجع الرجل إلى الماء من أجل مخلوق عطشان، وبقي خبره يذكرنا بسعة فضل الله. فخذ منه رحمة تتحول إلى فعل، ولا تحتقر معروفًا مشروعًا تقدر عليه. قد يكون خيرك اليوم في بيتك، أو في مكان عملك، أو عند مخلوق ضعيف لا يستطيع أن يشكرك. والله يعلم ما صنعت، وهو الذي نرجو رحمته وقبوله.

الباب ٧

حين تخالف الطاعة رغبتنا

يسهل اختيار الخير حين يوافق ما نحب. أما حين يطلب منا الحق أن نعفو ونحن متألمون، أو نعترف بخطأ نخشى عاقبته، أو ننصف من نخالفه، فيشتد امتحان الإخلاص. عندئذ لا يكفي الكلام الجميل عن النية؛ لا بد أن يتحول ما عرفناه إلى عمل، وأن نستعين بالله على ما يشق علينا.

لا يطلب منا أن تختفي مشاعرنا، ولا أن نتظاهر بأننا لا نحزن ولا نغضب؛ إنما المطلوب ألا تقودنا إلى ظلم أو كذب أو تضييع أمانة. وفي أخبار الصحابة وهدي النبي ﷺ ما يقرب المعنى: نفوس ترجع إلى الحق، وألسنة تحرسها التقوى، وحقوق يقدمها المؤمن على رغبته في المديح والانتصار لنفسه.

الفصل ٤٩

ألا تحب أن يغفر الله لك؟

قال الله تعالى:

> ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22].

تنهى الآية أصحاب الفضل والسعة عن أن يجعلوا الغضب سببًا لقطع ما كانوا يبذلونه لذوي القربى والمساكين والمهاجرين. ثم تفتح للقلب بابًا أوسع من حساب الإساءة وحدها: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. فالعبد المحتاج إلى مغفرة ربه يتعلم أن يعفو ويصفح عما يملك العفو عنه، وأن يبقى إحسانه عبادةً لا مكافأةً مشروطة برضا الناس عنه.

لا يكفي كلام عن فضل التسامح. يبدأ الإنسان بالإحسان وهو ما يزال يجاهد أثر ما أصابه: يكف أذاه، ويؤدي الحق، ويترك الانتقام المحرم، ثم يسأل الله أن يطهّر قلبه مما بقي فيه. رجاء المغفرة لا ينكر الألم، لكنه يمنعه من أن يصير قائدًا إلى الظلم.

العفو لا يسمي الإساءة إحسانًا؛ فالكذب يبقى كذبًا، والظلم يجب أن يتوقف. تستطيع أن تعفو عن حق تملكه، وأن تبين في الوقت نفسه أن الفعل لا يجوز تكراره. الرحمة لا تغير الحقائق، وإنما تدعونا إلى النظر فيما نملك تجاوزه طلبًا لرضا الله.

ولا نطالب من يتعرض لأذى مستمر أن يعيد العلاقة المؤذية دون حماية. أحوال الناس تختلف، وطلب الحق المشروع له موضعه. قد تحتاج إلى حدود، أو إلى وساطة أمينة، أو إلى مساعدة تحميك. نرجو لك فضل العفو حيث ينفع، ولا نجعل تألمك تهمة ولا نضغط عليك بما يزيد الضرر.

ومن عوائق العفو أن نطلب بعده شهادة بكرم أخلاقنا؛ نسامح، ثم نعيد القصة ليتذكر الآخرون أننا كنا أقدر على الرد. إذا اخترت العفو لله، فلا تحوله إلى منّة جديدة. قد يلزم ذكر الواقعة لحفظ حق، لكن تكرارها لاستحصال الشكر يفسد صفاء العلاقة ويكشف حاجة القصد إلى المراجعة.

وقد تُعطي قريبًا ثم يخالفك في رأي أو اختيار مباح، فتظن أن معروفك يوجب طاعته لك في كل شيء. المال لم يشتر قلبه ولا قراره. لك أن تنصحه وأن تطلب ما لك من حق، لكن لا تجعل النفقة وسيلة لإلزامه بما لا يلزمه. المعروف الذي نرجو به الله أكرم من أن يتحول إلى وسيلة ضغط.

ابدأ بخطوة لا يعرفها إلا الله: امنع نفسك من شماتة، أو صحح خبرًا كاذبًا عن من أساء إليك، أو ادع له بالهداية. وربما ناسب أن تعيد صلة أو معروفًا قطعته لمجرد الغضب. اختر ما يصلح لحالك بعلم، ولا تحمل نفسك وعدًا كبيرًا تعجز عن الوفاء به.

وحين تعفو، لا تشترط أن تعود كل مشاعرك كما كانت. قد يبقى حذر له سببه، وتحتاج الثقة إلى أفعال متتابعة. يمكنك أن تكف الأذى، وتؤدي الحق، وتفتح من المعروف ما يناسب الحال. الله يعلم ما تبذله من مجاهدة، وليس عليك أن تصف للناس مقدار ما عانيته حتى يعترفوا بفضلك.

تبقى دعوة الآية قريبة من كل قلب يرجو المغفرة: إن كنت تحب عفو الله، فانظر فيما تملك أن تعفو عنه، وفي المعروف الذي قطعه الغضب، وفي الحق الذي تستطيع أداءه دون أن تفتح باب ضرر جديد. نسأل الله أن يرزقنا رجاءً يعيننا على الصدق والعدل والعفو، وأن يحفظنا من ظلم غيرنا باسم ألمنا، ومن إذلال أنفسنا باسم التسامح، وأن يدلنا على ما يرضيه في كل حال.

الفصل ٥٠

الصدق مع التقصير

قال رسول الله ﷺ:

> «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا».[55]

لا يعرض الحديث الصدق كلمةً منفردةً تقال عند الامتحان ثم تنتهي، بل طريقًا يقود إلى البر، وتكرارًا يصنع في صاحبه وصف الصدِّيق. ويعرض الكذب كذلك طريقًا متدرجًا: يبدأ بخبر غير صحيح، ثم يحتاج صاحبه إلى خبر آخر يحميه، حتى يألف لسانه وقلبه ما يبعده عن البر. لذلك لا يكون علاج التقصير باختراع عذر أجمل منه، بل بتسميته كما هو والبدء في إصلاحه.

55صحيح البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6094.

والصدق لا يكون سهلًا دائمًا؛ تخشى لومًا أو خسارة ثقة أو تغير معاملة. لكن الكذب الذي يرفع الحرج لحظة يبقي عليك عبء حمايته، ويحجب عمن تضرر معرفة ما يحتاج إليه. حين يلزمك البيان، قل الحق بقدره، ولا تتخذ خوفك من العاقبة إذنًا للتضليل.

تفوتك مهمة، فيلوح عذر لا يستطيع أحد اختباره. أو تتأخر في حق، فتقول إن أمرًا منعك وأنت تعلم أنك أهملته. لا تكن مهارتك في الاعتذار أكبر من حرصك على الوفاء. قل إنك قصرت، واعرض طريقة مناسبة للتصحيح، من غير جلد للذات ولا سرد لما لا حاجة إليه.

والصدق لا يقتضي أن تخبر كل إنسان بكل ذنب ستره الله. هناك حق يلزم أداؤه وبيان يلزم في موضعه، وهناك مجاهرة لا تحقق إصلاحًا. لا تخلط الأمرين. استتر فيما يشرع ستره، وتب إلى الله، ورد حقوق الناس، واسأل أهل العلم إن أشكل عليك ما يلزم قوله وكيف يؤدى.

ومن الصدق أن نسمّي التقصير تقصيرًا. لا نروي ما حدث كأنه اختيار حكيم أسيء فهمه، ولا نبحث عن عبارة تزين التأخير. بعض ما مضى كان خطأ، وفضل الله علينا أن يهدينا إلى التوبة منه، لا أن ننجح في تغيير اسمه.

وتخاف أحيانًا أن يختصرك الناس في خطئك. لا تملك أفكارهم، لكنك تملك أن تصدق في الحاضر: وضح ما يلزم، وأصلح ما تقدر عليه، ولا تعد إلى الكذب لأن رأيهم بطيء التغير. الثقة تحتاج إلى وقت، وليست كل علاقة تعود بمجرد الاعتذار، لكن الصدق يبقى مطلوبًا.

ومن يسمع اعترافًا عليه أن يجمع العدل والرحمة، ويحفظ الحقوق بوسائل مشروعة، لا أن يستعمل صدق صاحبه لإذلاله أو تهديده طول حياته. ليس كل اعتراف إذنًا بنشر الخطأ، ولا كل تقصير يقتضي العقوبة نفسها؛ بل ينظر في الحق والضرر وطريق الإصلاح، ويُسأل أهل العلم والاختصاص فيما يشتبه.

وبعد الاعتراف تأتي معالجة السبب: إن كنت تؤجل فابدأ بما يمنع التأجيل، وإن وعدت فوق قدرتك فكن أدق في وعودك، وإن اعتمدت أن غيرك سيكمل عنك فناقش مسؤوليتك بوضوح. التوبة ليست شعورًا مؤثرًا ينتهي دون تغيير في السلوك الذي أعادك مرارًا إلى الخطأ نفسه.

وقد تواجه بعد الرجوع من يذكّرك بماضيك بسوء. لا ترد عليه بكذب عن نفسك، ولا تيأس لأن بعض الناس لا يحسنون المعاملة. اطلب ما لك من حق، واحفظ حدودك، وواصل الإصلاح. أنت تريد رضا الله، وهو يعلم رجوعك وما تبذله، ولا يضيع علمه بك لأن شخصًا أبى أن يعترف بتغيرك.

ومن الصدق أن تميز ما تعلمه مما تظنه. لا تعترف بتفاصيل غير ثابتة لمجرد التخلص من ضغط، ولا تحمل غيرك خطأك، ولا تحمّل نفسك خطأ غيرك. اذكر الحقيقة كما تعرفها، وقل فيما يحتاج إلى مراجعة إنه يحتاج إليها. التوبة لا تقوم على رواية غير صحيحة، حتى لو بدت شديدة في ذم النفس.

ونحن نرجو فضل الله ونسلك أسباب التوبة، ولا نشترط أن تزول آثار كل خطأ سريعًا في الدنيا. قد تبقى مسؤولية مالية، أو تحتاج الثقة إلى زمن، أو يلزم اعتذار وتصحيح. الصدق لا يمحو الواجبات، لكنه يضع القدم على طريق البر بدل أن يزيد الخطأ بكذب جديد.

قل الحق الذي يلزمك، واستغفر، واعمل على الوفاء. لا تنتظر أن يسهل الاعتراف تمامًا؛ فقد يكون صعبًا وتقدر عليه مع الاستعانة بالله. من صدق طلبه لرضا ربه لم يجعل إعجاب الناس عذرًا دائمًا للكذب. ولعل أول ما تحتاج إلى إصلاحه اليوم عذر تعرف أنه غير صحيح، وتستطيع أن تستبدل به كلمة صادقة.

الفصل ٥١

عمر: عطاء يستمر

جاء في صحيح البخاري:

> «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَصَابَ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَأْمِرُهُ فِيهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ قَالَ: إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا، وَتَصَدَّقْتَ بِهَا. قَالَ: فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ أَنَّهُ لَا يُبَاعُ وَلَا يُوهَبُ وَلَا يُورَثُ، وَتَصَدَّقَ بِهَا فِي الْفُقَرَاءِ وَفِي الْقُرْبَى، وَفِي الرِّقَابِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالضَّيْفِ، لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَيُطْعِمَ غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ».[56]

اجتمع في هذا العطاء مقصد صالح وترتيب يحفظه من العبث: حُبس الأصل، وجُعل نفعه في وجوه البر المسماة، وضُبط حق من يتولاه فلا يتخذه مالًا يجمعه لنفسه. وهذا أصل من أصول الوقف: مال يبقى أصله ويصرف نفعه في الجهة الموقوف عليها. وليس

56صحيح البخاري، كتاب الشروط، حديث رقم 2737.

كل تبرع وقفًا بالمعنى الفقهي، ومن أراد إنشاء وقف احتاج إلى معرفة أحكامه وضبط ما يلتزم به ضبطًا صحيحًا.

في سؤال عمر معنى قريب من الإخلاص: يملك المال ويحبه، ويريد البر، ثم يرجع إلى النبي ﷺ فيما يصنع. فالقدرة على الإنفاق لا تغني عن التعلم؛ ربما خفيت حاجة، أو كانت هناك طريقة أنفع، أو شرط يجب حفظه. ومن صدق النية قبول التوجيه، ولو خالف الصورة الأولى التي أحببناها للمشروع.

تبدأ عملًا خيريًا، ثم تشق عليك مشاركته مع غيرك: تريد كل قرار أن يمر بك، وكل نجاح أن يُذكر باسمك. بعض الإشراف واجب بحكم الأمانة، لكن اسأل عن القدر الذي يحتاج إليه العمل فعلًا. لا تشترط لاستمرار نفع الناس أن يبقوا محتاجين إلى حضورك في كل تفصيل.

وتوثيق الحقوق يحفظها لك ولغيرك. بيّن المال المخصص، والجهة المستفيدة، ومن يتولى، وحدود التصرف. لا تضق بالسؤال لأن نيتك طيبة؛ فالخلاف يقع بين أناس يريدون الخير حين لا يكون الاتفاق واضحًا. التنظيم الصادق يبقي المودة، ويمنع سوء الفهم من إفساد ما بدأ بمحبة.

والأمانة مطلوبة ممن يدير المال كما هي مطلوبة ممن يقدمه. لا يتصرف في المال المخصص كأنه ملكه الخاص، ولا يعطي من يحب دون اعتبار للشروط. وقد يكون له

مقابل مشروع معلوم، فلا نجعل كل مقابل تهمة. الميزان أن يؤدي الحق، ولا يأخذ ما لم يؤذن له فيه، ولا يخلط بين مصلحته ومصلحة من ائتُمن عليهم.

ومن وجوه النفع أن تعلم من يكمل بعدك، وأن تحفظ ما يحتاج إليه من معلومات، وأن تهيئ انتقالًا أمينًا للمسؤولية. قد لا تسمى هذه الأعمال وقفًا شرعيًا، لكنها تعين على دوام خير مشروع. لا تحبس المعرفة التي يلزم بذلها لتثبت أنك وحدك القادر على النجاح، ولا تمنع من هو أقدر من أداء ما ينفع الناس.

يختلف الناس في وضع اسم المتبرع على مشروع، ولا نعلم النية من وجود الاسم أو غيابه. ربما كان للتعريف حق أو حاجة، وربما تحول إلى طلب شهرة. أصلح غرضك، واصدق في النسبة، ولا تجعل الاسم شرطًا يضر بالمستفيدين. ومن حق المشاركين ألا تمحى جهودهم ليبدو العطاء كله لشخص واحد.

وإذا ظهرت مشكلة، فأصلحها بدل أن تخفيها خوفًا على السمعة. محبة الناس للعمل لا تعفيه من المراجعة. قد تحتاج إلى بيان منضبط يحفظ الحقوق والخصوصية، لا إلى نشر كل شيء. لكن السكوت عن خلل يتكرر ويأكل المال ليس وفاء للخير الذي تقول إنك تحميه.

ولا يحتاج كل من يريد العطاء إلى مشروع كبير. قد يكون الخير الممكن صدقة منتظمة من مالك الحلال، أو مشاركة في عمل موثوق، أو تعليمًا تقدمه لمن يحتاج. اختر ما

تقدر على الوفاء به دون تضييع واجب. لا تستدين لتبدو صاحب مشروع عظيم، ولا تحقر القليل الذي تستطيع أن تفعله بأمانة ودوام.

والاستمرار يحتاج إلى مراجعة الحاجة. ربما كان وجه نفع مناسبًا ثم تغيرت ظروفه، فتحتاج إلى سؤال أهل العلم والخبرة عما يجوز من تعديل. لا تتصرف في حق مقيد لمجرد أنك ترى غيره أجمل، ولا تتمسك بخطأ ظهر حفاظًا على فكرتك. حسن القصد يطلب الصواب ويقبل تصحيحه.

ومن الدروس القريبة أن نفرح بالخير بعد أن يخرج من أيدينا. إن تولاه أمين آخر فأحسن، فاحمد الله. وإن لم يعرف المستفيدون اسمك، فلا تجعل ذلك سببًا للندم على العطاء. ما رجوت به وجه الله لا يحتاج إلى أن يذكرك كل من وصل إليه نفعه حتى يكون لك رجاء الأجر.

سأل عمر عن مال يحبه، فصار ذلك المال نفعًا يرجوه عند الله. فاسأل أنت عن أفضل ما تستطيع فيما بين يديك: وقت أو مال أو علم. أحسن اختياره وحفظه، واستعن بمن يعرف، ولا تجعل حسن البداية يغنيك عن أمانة الاستمرار. نرجو من الله أن يتقبل ما بذلنا، وأن يبقى من خيره ما ينفع عباده.

الفصل ٥٢

العدل مع من نكره

قال الله تعالى:

> ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

تأمر الآية المؤمنين أن يقوموا لله ويشهدوا بالعدل، وألا يحملهم بغض قوم على تركه. قد نختلف ونغضب ونكره فعلًا، لكن هذا لا يبيح الكذب على صاحبه أو سلب حقه. وأمر الله بالعدل لا يختص بمن نرتاح إليهم؛ فالذي يعلم أعمالنا خبير بما نقول ونصنع في حال الرضا والغضب.

وهنا يمتحن الإخلاص في الحكم والشهادة. تقول إنك تريد رضا الله، ثم تجد الحق هذه المرة مع من لا تحب. هل تحفظ له حقه، أم تبحث عن سبب يعفيك من الاعتراف؟ تسهل نصرة العدل حين ينفعك، لكن صدقك يظهر حين يلزمك بما تخالفه رغبتك.

تصور أنك تشهد في خلاف بين قريب لك وشخص آخر. تعلم أن قريبك أخطأ في أمر محدد، لكنه ينتظر أن تقف معه. محبتك له لا تجيز شهادة غير صحيحة. تستطيع أن

تحبه وتعينه على الوفاء والاعتذار، وتبقى صادقًا فيما تعرف. ليست النصرة أن تتركه يظلم وأنت تمنحه عذرًا لمجرد قرابته.

والعدل لا يعني توزيع الخطأ بالتساوي حتى يبدو الكلام متوازنًا. قد يكون أحدهما ظالمًا والآخر مظلومًا، فلا تخترع ذنبًا للمظلوم لتهدئة المجلس. وقد يخطئ شخص في مسألة ويصيب في أخرى، فاحفظ الأمرين. من حقه ألا يمحى صوابه، ومن حق الناس ألا يستر صوابه ما يحتاج إلى إصلاح من خطئه.

وفي العمل قد تملك تقييم زميل أغضبك. ضع أمامك ما يخص المهمة: جودة الأداء، والوفاء، والتعاون، وما ثبت من الوقائع. لا تغير التقييم لترد كلمة لم تعجبك. وإن وجدت أن غضبك يمنع الإنصاف، فاستعن بمراجعة عادلة. المسؤولية لا تمنحك حق استعمال مصالح الناس في تصفية خلافك معهم.

يأتينا خبر سيئ عن شخص نخالفه فنصدقه بسرعة، ثم يتبين أن مصدره غير موثوق فنبحث عن طريقة لإبقائه. هنا يلزم التوقف: لا يصير الخبر حقًا لأنك تتمنى ذلك. احذف ما لم يثبت، وبيّن خطأ ما نشرته، ولا تقل إن مخالفك يستحقه لأخطاء أخرى.

وإذا كان النقد في مسألة دينية، فالعلم والإنصاف أولى. انقل القول كما قاله صاحبه، وافهم حجته قبل الرد، ولا تنسب إليه نية لا تعلمها. قد يكون مخطئًا ويحتاج إلى بيان،

لكن البيان لا يحتاج إلى زيادة جارحة. نصرة الحق لا تقوم على كلمات نرضى بها لأن الجمهور الذي معنا يصفق لها.

والإنصاف لا يمنع حماية المظلوم. ليس المطلوب أن يهدأ الجميع في الظاهر ويبقى الضرر كما هو. سمّ الأذى بما ثبت منه، واعمل على وقفه بالطريق المشروع، واحفظ من لا يستطيع الدفاع عن نفسه. الرحمة بالمعتدي لا تعني إعفاءه من العدل، كما أن رد عدوانه لا يجيز الاعتداء عليه بما لم يأذن به الله.

وللغضب أحكام ورسائل يحسن تأخيرها حتى نهدأ. لا ترسل كل ما كتبته أول مرة؛ اقرأه واسأل: أفيه خبر لم أتحقق منه؟ هل جرحت من لا علاقة له؟ هل زدت وصفًا لا أقبله لو قيل عني؟ قد تمنع هذه الوقفة ظلمًا يحتاج بعده إلى اعتذار وتصحيح.

أما الحماية العاجلة فلا تؤخرها بحجة انتظار هدوئك. إن كان ضرر حاضر تستطيع دفعه بحق، فافعل. المقصود أن تمنع الغضب من تجاوز الحد، لا أن تصير مترددًا عن أداء واجب واضح. وفي الحالات التي تحتاج إلى حكم أو إجراء متخصص، ارجع إلى من له العلم والولاية المناسبة، ولا تنفرد بما لا تحسنه.

ومن الصدق أن تغير رأيك إذا ظهر لك ما لم تعلمه. ليس أول حكم قلته عهدًا يلزمك الدفاع عنه إلى النهاية. قل إن المعلومة الجديدة غيرت فهمك، وصحح ما بنيته على

السابق. قد ينزعج من يريد لك انتصارًا دائمًا، لكن من يحب لك الخير يفرح بأنك لم تقدم صورتك على الحقيقة.

ولا تنقل خصومتك إلى أهل الشخص وأصحابه. قد تكره فعله، ولا يكون لزوجته أو أولاده أو زملائه ذنب فيه. احفظ لكل واحد حقه، ولا تجعل كثرة من يتأذون من ردك دليل قوة. قوة المؤمن في التزام الحق، لا في قدرته على إيصال الأذى إلى أوسع عدد ممكن.

ولا يرضى عنك دائمًا من نصحته أو توقعت منه الشكر. لكن عدم رضاهم ليس دليلًا كافيًا على أنك أصبت أو أخطأت. راجع الدليل والوقائع، واقبل تصحيحك؛ فالإخلاص لا يعطيك عصمة في الحكم، وإنما يدعوك إلى طلب الصواب والتواضع لما يظهر منه.

حين تغضب، تذكر أنك ما زلت عبدًا لله، وأن من تخالفه له حقوق لا يلغيها غضبك. قل الصدق، ولا تزد في العقوبة، ولا تمنع خيرًا واجبًا. نسأل الله أن يجعل محبتنا وبغضنا منضبطين بطاعته، وأن يعيننا على إنصاف من يشق علينا إنصافه؛ ففي هذه المواقف نحتاج إلى عونه أكثر مما نحتاج إلى براعة الرد.

الفصل ٥٣

الأمانة في البيع

وفي رواية صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه:

> «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي».[57]

يبين الخبر أن العيب الذي يؤثر في اختيار المشتري لا يُستر عنه. من يشتري يبني قراره على ما يعلم، فلا نتعمد أن نظهر له الحسن ونخفي ما يؤثر في اختياره. قد لا تكون العبارة المعلنة كذبًا صريحًا، لكنها قد تصنع فهمًا غير صحيح بإخفاء ما يلزم بيانه. الصدق في البيع يتعلق بحقيقة المعاملة، لا بجمال الإعلان وحده.

وكسب المال بالحلال غرض مشروع. للتاجر أن يربح، وللعامل أن يأخذ أجره، وللمشتري أن يطلب ما يناسب حاجته. لكن الربح لا يبيح الغش، كما أن الحاجة إلى

57صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم 102.

شراء أرخص لا تبيح الكذب. نريد الإخلاص في العمل، ومنه أن لا نجعل الرزق عذرًا لمخالفة أمر من نطلب منه الرزق.

تعلم في سلعة عيبًا لا يظهر عند الفحص السريع، فتحدثك نفسك أن المشتري لم يسأل، أو أن غيرك لا يبين مثله. هذه الأعذار لا تبيح إخفاء ما يؤثر في رضاه أو في وصف السلعة. وأما ما يلزم بيانه في كل صورة وما يترتب على العيب من خيار أو ضمان، فيختلف باختلاف السلعة والشرط والعقد؛ فاسأل من يفهم الحكم والحال عند الاشتباه.

ويكون الغش في الخدمة كما يكون في السلعة: تعد بنتيجة لا تملك ضمانها، أو بموعد تعلم أن الوفاء به بعيد، ثم تقول إنك كنت متفائلًا. تفاءل، لكن ميّز بين الالتزام والرجاء؛ فمن أمامك يرتب شأنه على وعدك، وحسن ظنك لا يعوض ضرره إذا بنيت الوعد على ما تعلم أنه غير منضبط.

وفي الوصف التجاري احفظ معنى الكلمات. لا تكتب «مضمون» ثم تتعامل مع الضمان كأنه مجاملة، ولا تعلن ميزة تعرف أن معظم المشترين لن ينالوها دون أن تبين شرطها. يمكن أن يكون الإعلان جذابًا وصادقًا معًا. وما يحتاج إلى تضليل كي ينجح يحتاج إلى إصلاح في أصله أو طريقته، لا إلى تبرير ديني.

وقد يُطلب من العامل قول عبارة يراها غير صحيحة، ويخاف على عمله إن رفض. هذه مشقة تحتاج إلى حكمة وسؤال، لكنها لا تجعل الكذب مباحًا بلا حد. اطلب صياغة

أمينة، وناقش المسؤول، واستشر من يفهم الحكم والحال. لا تتعجل قرارًا يجهل ظروفك، ولا تستسلم لفكرة أن طلب الحلال مستحيل.

والمشتري كذلك مسؤول عن الصدق. لا يدعي عيبًا تسبب هو فيه، ولا يقول إنه لم يتسلم ما تسلمه، ولا يستعمل خوف البائع على سمعته ليأخذ ما ليس له. كون الشركة كبيرة لا يبيح مالها، وضعفك المالي لا يجعل دعوى غير صحيحة حقًا. نطلب العدل حين نكون بائعين وحين نكون مشترين.

وحين تشتكي، صف ما وقع كما تعرفه. لك أن تطلب حقك وأن تبلغ عن ضرر، لكن لا تضف اتهامًا لم يحدث ليقوى صوتك. قد تكون مظلومًا في أصل المسألة، ثم تظلم غيرك بالمبالغة. افصل بين ما ثبت وما تظنه، واحفظ من المعلومات ما تحتاج إليه المطالبة الصحيحة.

ويعرض الخبر فحصًا للطعام وبيانًا لخلله. فلا نرفض الرقابة على الجودة بدعوى الثقة في صلاح العاملين. الإنسان ينسى ويخطئ، وقد يغريه الربح بالتساهل. النظام الذي يكشف العيب ويحفظ حق الناس يعين على الأمانة، ولا يغني عنه وصف أنفسنا بأننا نريد الخير.

يخسر التاجر بيعًا حين يبين العيب، فلا نجعل الصدق حيلة نعده معها بربح أكبر في اليوم نفسه. الصدق طاعة ووفاء بالحق، ونرجو بركته من الله. وإن لم يظهر المكسب

سريعًا، لم يصبح الغش صحيحًا؛ فمن عبد الله لا يترك أمره كلما بدا أن مخالفته تحقق ربحًا أقرب.

ولك أن تحسن سلعتك وتعالج عيبها وتطور خدمتك. الأمانة ليست قبولًا بالضعف؛ إنها حافز إلى تحسين الحقيقة بدل الاكتفاء بتجميل الكلام عنها. تعلم ما يحتاجه الناس، وأوف بما تستطيع، واعتذر عما لا تملك. النجاح الذي يقوم على حق واضح أكرم من مدح ينتزع من مشترٍ لم يعرف ما أخفي عنه.

وإذا اكتشفت بعد البيع أمرًا يلزم تصحيحه، فبادر بما يرفع الضرر وفق الحق. لا تنتظر الشكوى إذا كنت تعلم بالمشكلة. قد تحتاج إلى بيان أو إصلاح أو رد بحسب الحال والعقد، فاسأل ووفِّ. من صدق التوبة من الغش ألا يبقى اهتمامك بمنع الفضيحة أكبر من اهتمامك بحق من غُش.

ما أُخفي عن المشتري من عيب مؤثر يجب أن يصير معلومًا له. ليست الخبيئة الصالحة كعيب نخفيه في معاملة. لله وحده نعبد، ولأمره نصدق، ومنه نرجو رزقًا طيبًا لا يختلط بحق أخذناه بالخداع.

الفصل ٥٤

شهادة لله حين يحضر الهوى

قال الله تعالى:

> ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135].[58]

لا تطلب الآية كلمة حق في الظروف السهلة وحدها؛ إنها تضع الإنسان أمام المواضع التي يشتد فيها امتحان قلبه: حين تعود الشهادة عليه، أو تمس والديه وأقرب الناس إليه، أو تميل نفسه إلى غني لهيبته أو إلى فقير شفقةً عليه. القسط عبادة، والشهادة لله لا للنفس ولا للعائلة ولا للجماعة.

ويظهر الهوى في منافسة صغيرة لا يسميها صاحبها عداوة. يُسأل عن زميل ينافسه على فرصة، أو عن طالب ينافس ابنه، فيعرف جوابًا منصفًا ثم يختار عبارة تحتمل

58 **سورة النساء، الآية 135.**

الإيذاء. لا يحتاج الظلم دائمًا إلى كذبة صريحة؛ يكفي أحيانًا حذف حقيقة مؤثرة، أو تضخيم خطأ، أو إلقاء ظن في صورة معلومة.

ومن الأذى أن توحي باتهام لا تملك عليه بينة. تقول: «لا أحب أن أتكلم»، أو: «عندي ما لا أريد ذكره»، وأنت تعرف أن السامعين سيملؤون الفراغ بأسوأ الاحتمالات. قد يكون السكوت واجبًا لحفظ سر أو عرض، لكن حفظ السر شيء، وصناعة الريبة بالإشارة شيء آخر. الإخلاص في الكلمة أن تقصد صيانة الحق، لا أن تنال أثر الاتهام دون تحمل مسؤوليته.

وكثرة تداول الخبر لا تحوله إلى علم. إن دعت حاجة معتبرة إلى الكلام، فافصل بين ما رأيته، وما سمعته، وما استنتجته. لا تقل: «ثبت» لما لم يثبت، ولا تنسب إلى إنسان قصدًا لم يخبرك به. أما الشهادة التي تترتب عليها حقوق وأحكام فلها شروطها وإجراءاتها، ولا يغني هذا التوجيه الوجداني عن سؤال أهل العلم والاختصاص في صورتها.

ومن العدل على النفس أن تعترف بخطأ شاركت فيه. يسهل أن تقدم رواية تحفظ صورتك وتضع العبء كله على غيرك، لكن الشهادة لله تبدأ من موضع مسؤوليتك: ماذا قلت؟ ماذا فعلت؟ وما الذي لا تعرفه؟ الاعتراف الصادق لا يعني قبول اتهام باطل، بل ألا تدفع ما ثبت عليك بإلصاقه بغيرك.

وفي الخلاف العلمي أو المهني، احفظ كلام صاحبك كما قاله. انقد العبارة الأقوى التي يقصدها، لا أسوأ معنى يمكن انتزاعه منها. وإذا ظهر أن مخالفك أصاب في جزئية، فبيان ذلك لا يسقط حجتك؛ بل يحفظها من الظلم. من أحب الحق فرح بأن يتبين، ولو جاء بعضه على لسان من لا يوافقه.

وتزداد كلفة العدل حين تدخل الشحناء. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

> «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا».[59]

الحديث في خطر الشحناء وتأخير المغفرة، وليس تفصيلًا لأحكام الشهادة. لكنه يكشف مرضًا قد يفسد نظر الإنسان وكلامه: خصومة يطول مقامها في القلب حتى يصير إنصاف الخصم ثقيلًا. لذلك يحتاج المتخاصم إلى أن يراجع عبارته مرتين، وأن يطلب الصلح حيث أمكن من غير تضييع حق أو فتح باب أذى. وليس كل تباعد وقائي شحناء مذمومة؛ قد تكون الحدود ضرورة، ويبقى معها واجب الصدق والعدل.

---

59 **صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم 2565.**

قبل أن تتكلم في إنسان بينك وبينه مصلحة أو منافسة أو خصومة، اسأل نفسك: لو تبدلت الأسماء، هل سأصف الواقعة بالطريقة نفسها؟ ثم قل ما تعلم، وبيّن حد علمك، ولا تزد لتربح موقفًا. نسأل الله أن يجعل شهادتنا له، وأن يحفظ ألسنتنا من هوى يلبس ثوب النصيحة والإنصاف.

الفصل ٥٥

المنصب أمانة

عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

> «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا».[60]

لم تكن النصيحة انتقاصًا من فضل أبي ذر، بل بيانًا لمسؤولية لا يكفي فيها صلاح المرء وحده دون قدرة على أدائها.

ننظر إلى المنصب أحيانًا بوصفه تقديرًا نستحقه، وننسى ما فيه من حقوق. نفرح بمن يسمع كلامنا، ولا نفكر بالقدر نفسه فيمن سيتضرر إن أخطأنا. يردنا الحديث إلى الأصل: الموقع أمانة قبل أن يكون مكانة، ومن قبله يحتاج إلى العلم والقدرة والعدل ومعرفة ما سيطالب به.

---

60 **صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم 1825.**

ليس كل صالح مناسبًا لكل مهمة، ولا كل من لم تُسند إليه مهمة قليل الفضل. قد يحسن التعليم ولا يحسن الإدارة، أو يصدق في نصحه ويحتاج إلى خبرة في المال. قبول هذا لا يجرح قدره. من محبة الإنسان أن نعينه على العمل الذي يحسنه، لا أن نجامله بتكليف تعرض معه حقوق الناس للضياع.

وحين ترغب في مسؤولية، اسأل عما تعرف من تكاليفها. هل تستطيع حفظ الحقوق، واتخاذ القرار، وسماع المراجعة، وتخصيص الوقت؟ أم تعرف منها ما يمنحك من حضور فقط؟ تختلف أحكام الطلب والتولي بحسب الحال والحاجة، فلا نحكم على كل رغبة بحكم واحد. لكن الأمانة تسبق الرغبة في أن يقال إنك المسؤول.

ويكون الاعتذار هو الأصوب عند ضعف أو عجز تعرفه. لا تخجل من بيان حدود قدرتك، ولا تظن أن كل من قبِل عملًا أفضل ممن اعتذر. وفي المقابل، لا تسم الخوف من النقد تواضعًا إذا كان أمامك واجب تقدر عليه وتحتاج الحال إليك فيه. اطلب العلم والمشورة، واصدق في سبب قرارك.

إذا وليت عملًا، فاجعل من حولك قادرين على إخبارك بالحقيقة. لا تكافئ من يزين كل رأي لك، وتعاقب من يبين خللًا. قد يخطئ الناصح في بعض تقديره، لكن وجود باب آمن للمراجعة يحفظك من أخطاء لا تراها. ليس النقد كله حسدًا، ولا الموافقة كلها محبة صادقة.

ومن الأمانة أن تفرق بين مصلحة العمل ومصلحتك. قد يزيد قرار نفوذك لكنه يرهق من تعمل لهم دون حاجة. بيّن أسبابه، واسمع من يتأثرون به، وراجع ما يمكن مراجعته. لا يكفي أن تقول إنك تريد الخير؛ لا بد من أسباب معقولة وحقوق محفوظة واستعداد للرجوع إذا ظهر خطؤك.

وعند اختيار المساعدين، لا تجعل القرابة أو الراحة الشخصية بدلًا من الكفاءة. قد تحب شخصًا ولا يناسب المهمة، وقد يكون من تختلف معه في أمر آخر أحسن أداء لها. أنصف الناس بما يحتاج إليه العمل. إكرام من تحب لا يكون بوضع أمانة في يده تعجزه وتضر من ينتظرونها.

يكثر الثناء عليك ولا يصل إليك صوت المتضرر. فاسأل عمن لا يحضرون الاجتماعات: المراجع الذي طال انتظاره، والعامل الذي لا يستطيع الاعتراض، وصاحب الحق الذي لم يعرف الطريق إليك. نجاح المسؤولية لا يقاس بعدد المادحين؛ بعض الخلل لا يظهر إلا لمن يسأل عن الضعيف بصدق.

وحين تخطئ في قرار، لا تنقل العاقبة كلها إلى من نفذه. بيّن مسؤوليتك، وصحح، وأعط المتضرر حقه. قد تحتاج إلى مساءلة من قصر، لكن لا تجعلها وسيلة لحماية اسمك من كل خطأ. القائد الذي يريد رضا الله يقبل أن يظهر نصيبه من المسؤولية كما يقبل ظهور نصيبه من النجاح.

ويحين وقت ترك الموقع. إن كان بقاؤك أنفع فبيّن ذلك بأمانة، وإن كان غيرك أقدر أو انتهى ما التزمت به فسلّم ما عندك بوفاء. لا تجعل غياب المنصب غيابًا لقيمتك، ولا تتمن فشل من بعدك حتى يعرفوا قدرك؛ فالخير الذي أحببته لله يستحق أن تفرح باستمراره بعدك.

قد يصعب عليك الانتقال إلى دور أقل ظهورًا، وهذا شعور يحتاج إلى مجاهدة لا إلى إنكار. خذ من الوقت ما يعينك على التكيف، وابحث عن نفع جديد تستطيع فعله. لا تجعل ألمك سببًا لحجب معلومات لازمة أو لتعطيل من يخلفك. ما زالت لك أمانة حتى في آخر يوم من عملك.

ونحتاج إلى هذه المعاني في مسؤوليات صغيرة كذلك: إدارة أسرة، أو فريق تطوعي، أو مال مشترك، أو رحلة لأصحاب. كلما تعلق بك حق، فاسأل عما تستطيع الوفاء به. لا تحتقر الأمانة لصغرها، ولا تنشغل بلقبها عن أصحابها. قد يكون حسن أدائك لما بين يديك خيرًا من طلب دور أكبر لا تحسنه.

نصح النبي ﷺ أبا ذر بما يحفظه ويحفظ الناس. فلتكن نصيحتنا لأنفسنا ولمن نحب على هذا الصدق. قبل السؤال: لماذا لم يختاروني؟ نسأل: ما الحق الذي أقدر على أدائه؟ ومن هنا قد نجد بابًا أنفع وأحفظ، نعمل فيه لله من غير أن نربط رضانا عن أنفسنا بموقع قد يعطى لنا ثم يؤخذ منا.

الفصل ٥٦

لا تحكم على القلوب

جاء في صحيح مسلم، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما:

> «بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ. قَالَ: أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ. قَالَ: فَقَالَ سَعْدٌ: وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ -يَعْنِي أُسَامَةَ-. قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾؟ فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ».[61]

61صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم 96.

للموقف حكم عظيم في حرمة الدم واحترام ظاهر الإسلام. ومنه نتعلم خطر أن نجعل ظننا في النية علمًا يبيح العدوان. قد تكون لنا قرائن نفهم بها بعض التصرف، لكنها لا تجعلنا نملك قلوب الناس. الذي يعلم ما فيها على الحقيقة هو الله، ونحن مطالبون ألا نتجاوز ما نعلم في الحكم عليهم.

ينبغي لمعرفة الرياء أن تجعلنا أحرص على إصلاح نياتنا، لا أسرع إلى اتهام الآخرين. ترى من نشر صدقة فتقول إنه مراء، ومن أخفاها فتقول إنه بخيل؛ وهكذا لا ينجو أحد من حكمك، لأنك تفسر كل فعل بما سبق في نفسك من ظن. اسأل عن الحقائق التي تحتاج إليها، واقبل أن كثيرًا من أحوالهم لا تعرفه.

وليس ترك الحكم على القلب تركًا للحكم على العمل. إذا ثبت غش أو أذى أو كذب، عولج بما يستحق. لا يستطيع المخطئ أن يمنع المحاسبة بقوله: لا تعلمون نيتي. قد تكون نيته غير ما نظن، لكن حق المتضرر باقٍ. نقف عند الفعل المعلوم، ونطالبه بتصحيحه، ولا نضيف إليه اتهامًا لا نملك دليله.

تخيل أن قريبًا لم يزرك حين احتجت إليه. يؤلمك غيابه، لكنك لا تعلم كل ما منعه. اسأله برفق وعبّر عن حاجتك، ولا تبدأ بأنه لا يحبك أو يتكبر عليك. ربما ظهر تقصير يستحق العتاب، وربما ظهر عذر لم تعرفه؛ والإنصاف أن تترك للعلم فرصة قبل الجزم بالقصد.

وكذلك من أعلن توبة لا نضمن صدقه، ولا نقطع بكذبه لمجرد ظن. نتعامل مع ما يظهر ونحفظ الحقوق. قد لا يكون من الحكمة أن تعيد إليه فورًا أمانة أضاعها، لكن هذا قرار متعلق بحفظ الحق والقرائن، لا حكم نهائي بأن قلبه لا يرجو الله. فرق بين الحذر المسؤول وإغلاق باب التوبة على الناس.

وفي المدح نحتاج إلى الحد نفسه. قد ترى من شخص إحسانًا فتشكره وتدعو له. لكن لا تجزم بأنه لا يريد إلا الله، أو أن عمله مقبول لا شك فيه. جاء التوجيه النبوي إلى أن نقول فيما نعلم: «أحسبه»، وألا نزكي على الله أحدًا.[62] هذا يحفظ الفضل دون ادعاء علم بالسرائر.

وعندما تنصح في الإخلاص، ابدأ بالتذكير المشترك. نحن جميعًا بحاجة إلى تصحيح القصد. تستطيع أن تسأل أخاك عن غرض صرح به، أو تناقش طريقة فيها إظهار لا حاجة إليه، دون أن تقول إنك تعرف أنه لم يفعل إلا للمحمدة. قد تكون العبارة اللينة الصادقة أقرب إلى إصلاحه من تهمة تدفعه إلى الدفاع عن نفسه.

ولا تستعمل أسرار الناس التي ائتمنوك عليها دليلًا في خصومة. من أخبرك بصراع مع الرياء طلبًا للنصيحة لم يمنحك حق فضحه لاحقًا. احفظ الأمانة، وانصح بما تعلم، ولا

62صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم 3000.

تجعل ثقته سلاحًا عليه. ويستثنى ما وجب بيانه لحفظ حق أو دفع ضرر وفق الضوابط، لا وفق رغبة الانتقام.

وربما كان انشغالنا بنيات غيرنا هربًا من حق علينا: نناقش إخلاص من نصحنا بدل النظر في صحة نصيحته، أو نفتش في قلب من يطالب بدين بدل رده. ارجع إلى الفعل المطلوب منك؛ فخطأ غيرك في قصده لا يسقط واجبك ولا يبيح لك الظلم.

دع السرائر لربها، واعتن بما تعرفه من نفسك. لك نية تجددها، وكلمة تحفظها، وأمانة تؤديها. لا يمنعك هذا من النصح أو رد الظلم؛ بل يجعل نصحك أعدل وردك أبعد عن العدوان. نسأل الله أن يصلح قلوبنا، وأن يحفظ ألسنتنا من تهمة لا نعلمها ومن تزكية لا نملكها.

الباب ٨

نتعلم صدق العمل

حين نقرأ عن الصالحين، قد ننظر إلى ما اشتهروا به وننسى الأعمال التي كانوا يرجون بها ربهم في يومهم وليلتهم: صلاة يحافظ عليها صاحبها، وبر يؤديه لوالدته، وعلم يصلح به نيته، ودعاء يسأل به العون. هذه أبواب قريبة منا، وإن تفاوت الناس في صدقهم واجتهادهم فيها.

نقرأ سيرتهم لنتعلم كيف نعمل، لا لنقف عند الإعجاب. أمام كل منا فريضة يحافظ عليها، وعمل يصلحه، وخطأ يتوب منه. ومن رحمة الله أن طريق الطاعة لا يشترط شهرة صاحبه، ولا ماضيًا خاليًا من التقصير.

الفصل ٥٧

بلال: عمل يرجو به الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

> «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: يَا بِلَالُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طُهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ».[63]

سُئل بلال رضي الله عنه عن عمل يرجو ثوابه، فذكر صلاة كان يحافظ عليها بعد الطهور.

وكلمة «أرجى» تعلمنا أدبًا جميلًا مع أعمالنا. نعمل ونرجو، ولا نجزم لأنفسنا بما لا نعلم.

قد تسأل نفسك: ما العمل الذي أرجو أن ينفعني عند الله؟ هذا سؤال يدعوك إلى العناية

63صحيح البخاري، كتاب التهجد، حديث رقم 1149.

به، لا إلى إعجابك بنفسك بسببه. حسن الظن بالله يصحب الخوف من التقصير، ويدعو إلى مزيد من الطاعة.

يُعرف الإنسان أحيانًا بعمل عام، ويكون له خير آخر لا يلتفت إليه الناس. بلال هو مؤذن رسول الله ﷺ، وفي هذا الحديث يخبر عن صلاته بعد الطهور. لا يصح أن نحصر حياة أحد في الجانب الذي عرفناه عنه. والأولى أن ننظر إلى أنفسنا: هل لنا عناية بالعبادة حين لا نكون في موضع مسؤولية أو ظهور؟

اختر من النوافل ما تستطيع المداومة عليه، بعد المحافظة على الفرائض. قد تكون صلاة مشروعة، أو تلاوة، أو صدقة، أو ذكرًا ثابتًا. تعلّم حكم العمل وصفته، ثم خذ منه بقدر طاقتك. لا يشترط أن يكون كثيرًا حتى يكون محل رجاء، ولا يصح أن تترك فريضة لتنشغل بما تحب من النوافل.

والحديث لا يحدد لك عددًا جديدًا تؤديه كلما تطهرت، ولا يعطي كل من فعل هذا العمل البشارة الخاصة نفسها. لِبلال فضله الذي أخبر به النبي ﷺ، ولنا أن نقتدي به في الحرص على الخير، وأن نرجو فضل الله. نحب الصالحين ونستفيد من أعمالهم، دون أن ندّعي لأنفسنا منزلتهم أو خبرًا لم يرد فينا.

وانظر إلى العمل من جهة قربه من حياتك. بعد أن تؤدي الصلاة، قد يتيسر لك أن تبقى قليلًا لذكر الله. وعند هدوء البيت قد تجد وقتًا قصيرًا للقراءة. وحين تنفق على نفسك

قد تستطيع أن تخص محتاجًا بشيء. ليست هذه مواعيد تعبدية مفروضة؛ إنما هي فرص تعرفها في يومك، فتحسن الانتفاع بها.

والعبادة لا تحتاج إلى إعلان دائم لكي تستمر. ربما اعتدت أن تخبر أصحابك بكل زيادة، فصار نشاطك متعلقًا بتشجيعهم. شكرهم حسن، لكن جرّب أن يكون لك من العمل ما تفعله ولو لم يسألك أحد عنه. تعرف ما تريد، وتسأل الله المعونة، وتفرح بتيسير الطاعة من غير أن تطلب من الناس وصفك بها.

وفي جواب بلال دليل على أن ذكر العمل ليس رياءً في كل حال. سأله النبي ﷺ فأخبره، وكان في خبره نفع يتعلمه المسلمون. قد تسأل لتعلم غيرك أو لتستفتي، فتذكر ما يلزم بصدق. الذي يختلف هو القصد والحاجة؛ فلا يلزم أن تكتم جوابًا نافعًا، ولا أن تتوسع فيما لا حاجة إلى بيانه.

ومن الأعمال ما يسهل على نفسك، ومنها ما تحتاج فيه إلى تدريب. قد تحب الصدقة وتجد مشقة في ضبط اللسان، أو تحب القراءة وتؤخر خدمة أهلك. اعرف موضع القوة فاحمد الله عليه، واعرف موضع التقصير فاجتهد فيه. الخير الذي تحبه يعينك، لكنه لا يعفيك من الواجب الذي يشق عليك.

إذا وفقت إلى عمل، فتذكر حاجتك إلى القبول. تملك العناية بظاهره، وتسأل الله أن يصلح نيتك فيه ويعفو عما دخله من نقص. يمنعك هذا الدعاء من استكثار ما فعلت،

ويذكرك بأن نعمة التوفيق سبقت جهدك. وما أجمل أن تحب الطاعة وتبقى معها شاكرًا لا معجبًا.

بقي خبر بلال يذكرنا بباب نستطيع أن ندخله: عمل معلوم، وقصد صالح، ورجاء في الله، ومداومة بقدر الاستطاعة. لا تنتظر أن تشتهر لتبدأ، ولا أن تعرف لنفسك منزلة. تعلم ما ينفعك، وافعل الخير الذي تقدر عليه، واجعل لك مع الله عبادة ترجوها، وتدعوه أن يتقبلها منك.

الفصل ٥٨

أويس: بر بعيد عن الشهرة

عن أُسير بن جابر قال:

«كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ: أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ، فَقَالَ: أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ. فَاسْتَغْفِرْ لِي. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ. قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ. قَالَ: فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فَوَافَقَ عُمَرَ، فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ، قَالَ: تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ قَلِيلَ الْمَتَاعِ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ

> هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ. فَأَتَى أُوَيْسًا، فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ، فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ، فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: لَقِيتَ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ. قَالَ أُسَيْرٌ: وَكَسَوْتُهُ بُرْدَةً، فَكَانَ كُلَّمَا رَآهُ إِنْسَانٌ قَالَ: مِنْ أَيْنَ لِأُوَيْسٍ هَذِهِ الْبُرْدَةُ؟».[64]

يجمع الخبر برَّ أويس بأمه، وتواضع عمر للخبر النبوي، وحال رجل لم تكن منزلته عند الله تابعة لما يعرفه الناس عنه. قد نعرف الاسم ولا نعرف العمل، وقد نغفل عن إنسان له خير عظيم لا يظهر في مجلس ولا عنوان.

وعرض عمر أن يكتب لأويس إلى عامل الكوفة، فاختار أويس أن يبقى في عامة الناس. هذا هو القدر الذي يثبته الخبر؛ أما تفصيل قصده الباطن فلا نجزم به. وليس في اختياره حكم بأن كل من قبل مساعدة مشروعة أفسد قصده، ولا في خفائه دعوة إلى ترك حق أو مصلحة لازمة.

---

64 **صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم 2542.**

وفي وصف بره بأمه ما يدعونا إلى العناية بهذا الحق القريب. قد ننشغل بمعرفة ما يميز إنسانًا بين الناس، ويكون بعض خيره في صبر على خدمة، وإحسان إلى والد، ومعروف يؤديه في بيته بعيدًا عن كل مديح.

قف عند هذا البر الذي جاء في وصفه. كم من أبواب الخير نطلبها بعيدًا، وبين أيدينا أب أو أم يحتاجان إلى كلمة طيبة وخدمة وصبر. قد نريد عملًا جديدًا نشعر معه بالإنجاز، بينما يتكرر الطلب في البيت فلا نرى قيمته. والبر المتكرر يحتاج إلى إخلاص؛ لأن التعب قد يعود، والشكر قد لا يتكرر معه.

ربما تسمع من والدتك السؤال نفسه مرات، أو تحتاج إلى ترتيب شأن لوالدك لا يعرفه غيرك. لا تحتقر هذا المعروف لأنه مألوف. أحسن أداءه بقدر استطاعتك، وتذكر حقهما عليك. ليس المطلوب أن تدعي أنك لا تتعب، وإنما أن تحاول ألا تجعل تعبك إهانة لهما أو منّة بكل ما قدمته.

والبر يكون بعلم وعدل. لا طاعة لأحد في معصية الله، ولا يلزم من الإحسان أن تترك كل واجب آخر. قد تحتاج إلى تقسيم المسؤوليات مع إخوتك، أو إلى الاستعانة بمن يخدم، أو إلى بيان ما تستطيع وما لا تستطيع. المهم أن يصدق حرصك على الخير، وأن تختار العبارة اللينة والطريقة التي تحفظ الحقوق.

يراك الناس في عمل بارز، ولا يعرفون ما تبذله في بيتك. فلا تقس نفع حياتك بمقدار ما عرفوه منها. خدمة مريض، ومواساة كبير، وقضاء حاجة، كلها مواضع للاحتساب. تأخذ من وقتك، لكنها ليست وقتًا ضائعًا لمجرد أنها لا تمنحك اسمًا بين الناس.

ومن جهة أخرى، لا تختصر قصة أويس في أن المخلص لا يعرفه أحد. كان عمر معروفًا، وهو الذي طلب منه الاستغفار. في الخبر رجلان لهما فضل، ولم تمنع شهرة عمر تواضعه للخبر النبوي، ولم يحتج أويس إلى أن يسعى وراء الشهرة. يجمعهما اتباع النبي ﷺ، وإن اختلف ما عرفه الناس عن كل منهما.

وإذا قابلت شخصًا قليل الكلام بسيط الحال، فلا تعجل باحتقاره. عامله بحق الإسلام والإنسانية، لا بما تظنه من مكانته بين أصحابك. وفي المقابل، ليست بساطة المظهر شهادة بسلامة الباطن؛ فعلم السرائر لله. الذي يلزمك أن تحفظ لسانك، وتنصف، وتعرف أن نظرتك لا تحيط بأحوال الخلق.

وربما اشتهر لك خير لم تسع إلى إظهاره. اشكر الله، واحفظ أدبك، ولا تمثل صورة جديدة تليق بما قالوه عنك. ابق على عملك، واقبل ما تحتاج إليه من نصيحة، واعتذر عما لا تعلم. فأكثر ما تحتاجه بعد المديح أن تواصل إصلاح نفسك كما كنت تحتاج إليه قبله.

حين تختار الخفاء في عمل، فليكن ذلك حفاظًا على القصد، لا رغبة في أن تعرف بأنك الزاهد في الظهور. قد يفتن الإنسان بمدح الناس لتواضعه كما يفتن بمدحهم لعلمه. داو هذا بالتقليل من الحديث عن نفسك، وبالانشغال بما ينفع، لا بإخبارهم كم تحب أن تبقى مجهولًا.

أعد النظر في معروف قريب ربما غفلت عنه. مكالمة تطمئن بها على والديك، وحاجة تقضيها دون تضجر، وعذر تقبله، ووقت تنصت فيه. لا تحول ذلك إلى برنامج تعرض به صلاحك، ولا تؤخره انتظارًا لمناسبة. قد تكون حاجتهما اليوم إلى حضورك أصدق من وعد كبير تكرره وأنت بعيد.

نسأل الله أن يرزقنا برًا لا تفسده المنّة، وتواضعًا لا نطلب به المدح، وصدقًا يبقى معنا في الشهرة والخفاء. ما أشد حاجتنا إلى عمل نرجو به ربنا، سواء عرف الناس اسمه أو لم يعرفوه. وعندما ييسر الله لك الإحسان إلى والديك، فاعرف النعمة، وابذل ما تستطيع، واسأله القبول.

الفصل ٥٩

ابن رجب: كيف نفهم النية

تقول إنك لا تعرف كيف تصلح نيتك، مع أنك تعرف مقاصدك في شؤون كثيرة: تذهب لزيارة مريض لا لشراء حاجة، وتعيد مالًا اقترضته لا لتمنح صاحبه هدية. النية ليست أمرًا غريبًا عن حياتك؛ إنها ما تقصده بفعلك. والعناية بها أن تجعل قصدك موافقًا لما يحبه الله.

قال ابن رجب في شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات»:

> «والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين: أحدهما: تمييز العبادات بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلًا، وتمييز صيام رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات، كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظيف، ونحو ذلك، وهذه النية هي التي توجد كثيرًا في كلام الفقهاء في كتبهم. والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل، وهل هو لله وحده لا شريك له أم لله وغيره؟ وهذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيرًا في كلام السلف المتقدمين، وقد صنف أبو بكر بن أبي الدنيا مصنفًا

> سماه كتاب الإخلاص والنية، وإنما أراد هذه النية، وهي النية التي يتكرر ذكرها في كلام النبي ﷺ تارة بلفظ النية، وتارة بلفظ الإرادة، وتارة بلفظ مقارب لذلك».[65]

فتفرق بنيتك بين فرض ونفل، ثم تنظر أيضًا: لمن فعلت العبادة؟ هل أردت وجه الله، أم أردت بها ثناء الناس؟ بهذه التفرقة يصبح الكلام عن النية أوضح وأقرب إلى التطبيق.

في المعنى الأول، أنت تعرف الصلاة التي دخلت فيها، أو الصوم الذي تؤديه. وليس المطلوب أن تبحث عن عبارة طويلة تقولها حتى توجد النية. القصد في قلبك، كما تعرف ما خرجت من بيتك لأجله. وإذا أشكل عليك حكم عبادة معينة، فتعلم حكمها، ولا تجعل الجهل بمسألة واحدة سببًا للشك في كل عباداتك.

وفي المعنى الثاني، تحتاج إلى صدق مع نفسك. قد تتصدق بالمبلغ نفسه في حالين: مرة ترجو به الله، ومرة تجعل همك أن يقال إنك كريم. اليد أعطت في الحالين، لكن الدافع مختلف. ومن هنا نفهم لماذا لا يكفي أن نعتني بصورة العمل ونغفل عما أردنا به. يراك الناس تعطي، وربك يعلم قصدك.

---

65 **ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الأول: «إنما الأعمال بالنيات».**

وليست العناية بالقصد أن تفتش عن تهمة في كل شعور طبيعي. تحب أهلك وتحتسب النفقة عليهم، وتأنس بصديق وتزوره ابتغاء الأجر. وجود المحبة والأنس لا يعني أن العمل صار رياءً. تعلم الفرق بين رغبة مباحة تصحب الطاعة، وبين اتخاذ العبادة وسيلة لطلب منزلة عند الناس. الأحكام لا تستقيم إذا جمعنا المختلفات في معنى واحد.

وأورد ابن رجب عن سفيان الثوري قوله:

> «ما عالجت شيئًا أشد علي من نيتي؛ لأنها تنقلب علي».[66]

في العبارة اعتراف بالحاجة إلى المجاهدة، لا دعوة إلى ترك العمل. قد تعرف مقصدك اليوم ثم تحتاج إلى مراجعته غدًا، ولا سيما إذا دخل المدح أو التنافس. ارجع إلى الله، وأصلح ما عرفت، ولا تيأس من تكرر الحاجة. أما اختلاف بعض طرق نقل الكلمة، فمكانه الحاشية لا سياق العبرة.

تبدأ تعليم طفل رغبة في نفعه، ثم يكثر الثناء عليك، فتجد نفسك تهتم بما يقولونه أكثر من اهتمامك بفهمه. هنا يكون الإصلاح واضحًا: تعود إلى مصلحة الطفل، وتقبل أن يتعلم عند غيرك إن كان أنفع له، وتترك المبالغة في وصف ما صنعت. مراجعة النية ليست كلامًا منفصلًا عن قراراتك؛ بل تظهر في مثل هذه الاختيارات.

---

66 **ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الأول: «إنما الأعمال بالنيات».**

ويعينك فهم النية على اغتنام الخير في العادات. تعمل لتنفق من حلال، وتأكل لتتقوى، وتنام لتستريح وتؤدي ما عليك. تستطيع أن ترجو الأجر في غرض صالح وعمل مباح، من غير تكلف عبارات قبل كل حركة. كلما تذكرت ما يرضي الله في حياتك، كان ذلك أدعى إلى إحسان الاختيار والأداء.

لكن النية الحسنة لا تصلح وسيلة محرمة. من أراد أن يتصدق بمال ليس له لا يصبح فعله طاعة بسبب ما نواه من نفع الفقير. ومن كذب ليحسن صورته أو صورة عمله لا يعفيه قوله إن هدفه خدمة الخير. نحتاج إلى صلاح القصد وصحة الفعل معًا، كما نحتاج في الصلاة إلى نية صحيحة واتباع مشروع.

وقد يخطر لك الرياء فتكرهه وتدفعه. ليس هذا كمن أنشأ العبادة طلبًا للمدح أو رضي بهذا القصد واسترسل معه. يذكر ابن رجب الفرق بين الخاطر المدفوع وبين ما يستقر ويتبعه صاحبه.[67] فلا تعاقب نفسك على المجاهدة بترك الطاعة. ادفع الخاطر، وأكمل ما شرعت فيه، واسأل الله أن يعينك على الإخلاص.

وعند الحاجة إلى السؤال، صف الواقعة بدل أن تطلب شهادة على قلبك. قل لمن تستفتيه: بدأت بهذا القصد ثم حدث كذا، فما الحكم؟ أو: هل يجوز هذا العمل بهذه

---

67 **ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الأول: «إنما الأعمال بالنيات».**

الصورة؟ قد يعينك الجواب على قرار محدد. أما أن تطلب من إنسان أن يقطع لك بسلامة نيتك كلها، فهذا ليس مما يملكه الناس.

ومن نفع العلم أن يخفف عنك الالتباس، لا أن يزيد عليك الشك. إذا عرفت المسألة وعملت بها، فامض. إن جاء أمر جديد تعلمته، وإن ظهر تقصير أصلحته. لا تجعل كل صلاة موضوعًا لمراجعة طويلة بعد فراغك منها، ولا تمنح الخيال حق إعادة الحكم على أعمال مضت دون سبب واضح.

تأمل الآن عملًا تنوي فعله. ما هو؟ وهل هو مشروع؟ وما الخير الذي ترجوه به؟ أجب بصدق بسيط، ثم أحسن فعله. قد يكون صدقة أو زيارة أو واجبًا مهنيًا أو عناية بأهلك. لا يحتاج قصدك إلى لغة بليغة، بل يحتاج إلى أن توافق أفعالك ما تعرف أنه حق، وأن ترد نفسك إذا مالت عنه.

هذا مما نتعلمه من شرح ابن رجب: نفهم النية لنعمل بها، ونميز أحوالها حتى لا نظلم أنفسنا بالتساهل أو التشدد. العلم الصحيح يعين على الإخلاص، والإخلاص يدعو إلى طلب العلم النافع. فلا تكتف بحفظ العبارة؛ انظر في العمل القريب، وأصلح قصده وصفته، واسأل الله أن يجعل ما تفعله له وحده.

الفصل ٦٠

ابن تيمية: عبادة الله وطلب عونه

سبق أن أُثبت في الفصل السادس نصٌّ ابن تيمية كاملًا من جواب «العبادة وفروعها»: بدأ بتعريف العبادة، ثم عدّد أعمال الجوارح، وأتبعها بأعمال القلوب، وانتهى النقل قبل انتقاله إلى الاستدلال على غاية العبادة.[68] فلا نعيد هنا مقتطفًا منه يوهم أنه النص كله، بل نقرأ بعض آثاره في الحياة.

يجمع ذلك البيان ما نؤديه بجوارحنا وما يقوم بقلوبنا تحت ميزان ما يحبه الله ويرضاه. فلا نحصر العبادة في أعمال المسجد، ولا نجعل صلاح القلب منفصلًا عن الصدق والأمانة والإحسان إلى الناس. ومع الصلاة والزكاة والصيام والحج أبواب نعيشها كل يوم: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والإحسان إلى الجار والضعيف. قد تمضي ساعات في رعاية أهلك أو إتمام حق، وأنت تستطيع أن تحتسب فيها طاعة ربك.

68 **ابن تيمية، العبودية، ص44؛ ومجموع الفتاوى، 10/149.**

تغير هذه المعرفة نظرنا إلى يوم عادي. العمل ليس بعيدًا عن الدين ما دام مباحًا وتؤديه بأمانة، والبيت ليس مكانًا ينتهي عنده الاهتمام بالعبادة. للعبادة أحكام ودرجات، لكن أبوابها تتسع لما يحبه الله في أقوالنا وأفعالنا. ومعرفة ذلك تحثنا على تحسين ما اعتدناه، بدل أن نحتقره لأنه لا يشبه صورًا مؤثرة قرأنا عنها.

حين تقف في الصلاة تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]. العبادة لله، والعون نطلبه منه. نحتاج إلى الأمرين في إصلاح الإخلاص: نريد بطاعتنا وجهه، ونسأله أن يعيننا على ذلك. فلا نغتر بقدرتنا، ولا نتخذ حاجتنا إلى العون عذرًا في ترك ما نستطيع من العمل.

قد تعلم أن عليك اعتذارًا، لكن نفسك تكره أن تقر بالخطأ. اطلب عون الله، ثم قل الكلمة الصادقة. وقد تعرف أن في حديثك مبالغة طلبًا للمدح، فاستعذ بالله من الرياء واترك المبالغة. الاستعانة ليست انتظارًا حتى يصبح كل واجب سهلًا؛ إنها أن تطلب القوة على فعله وأنت تبذل ما تقدر عليه.

وتجتمع في ذلك البيان أعمال القلب مع أعمال الجوارح في معنى العبودية.[69] نحب الله فنطيعه، ونخاف عقابه فنترك ما نهى عنه، ونرجو رحمته فنتوب ولا نيأس. هذه المعاني

---

69 **ابن تيمية، العبودية، ص44؛ ومجموع الفتاوى، 10/149.**

لا تلغي بعضها بعضًا. الإخلاص لا يعني أن نتوقف عن رجاء الجنة، كما أن الرجاء لا يعني الاطمئنان إلى ترك الواجبات.

ومن أثر الإخلاص أن يصبح رضا الله مقدمًا على رضا الناس عند التعارض. قد يطلب منك قريب أمرًا محرمًا، أو يضغط عليك زميل لتشهد بما لا تعلم. تستطيع أن تعتذر برفق، وأن تحفظ المودة فيما يجوز، لكنك لا تجعل خوفك من غضبهم سببًا لمعصية ربك. هذه مجاهدة تظهر في قرار واضح، لا في كلام عن التحرر وحده.

وليس في هذا جفاء للناس. تحتاج إليهم في المباح، وتشكر إحسانهم، وتقبل خبرتهم، وتحب لهم الخير. الذي لا تملكه لهم هو أن تجعل عبادتك طلبًا لثناء قلوبهم، أو تطيعهم في معصية الله. المؤمن لا يستغني عن كل مساعدة، وإنما يعرف لمن تكون العبادة، ومنه يطلب التوفيق والقبول.

ربما اكتشفت أن أكثر ما يشغلك هو خوف تغير صورتك عند الآخرين. تتردد في التعلم كيلا يظهر جهلك، أو في الاعتذار كيلا يقل تقديرهم. تذكر أنك لست مطالبًا بأن تبدو كاملًا. قل: لا أعلم، حين لا تعلم، وارجع عن خطئك حين يتبين. سلامة الدين أحق بالعناية من صورة لا تخلو من نقص مهما حرستها.

وصاحب المسؤولية لا يجعل الإخلاص دعوى تعفيه من المحاسبة. من أُعطي مالًا ليصرفه في الخير يؤديه ويبين حسابه، ومن كُلّف بتعليم يتعلم ويستعد، ومن تولى

شأنًا عامًا يلتزم العدل. النية بين العبد وربه، أما الأمانة فلأهلها حق في معرفة أنها أديت كما ينبغي.

والعبد يحتاج إلى ربه بعد النجاح كما يحتاج إليه قبل البداية. قد تتقن العمل فيفرح بك الناس، فتتذكر من علمك ويسر لك وأعانك. أشكر نعمة الله بصدق، واحفظ حقوق من شاركوك. معرفة فضله لا تمنعك من الثقة التي تعينك على العمل، لكنها تمنعك من نسيان حاجتك إليه ومن احتقار غيرك.

وإذا تعثر العمل، فراجع أسبابه بهدوء. قد تحتاج إلى خبرة أو تنظيم أو وقت، لا إلى الحكم بأن كل نيتك فاسدة. صحة القصد لا تجعل الإنسان عالمًا بكل ما يجهل، ولا تضمن أن تأتي كل نتيجة كما يريد. تعلم ما ينقصك، واستشر، وأصلح، ثم أحسن التوكل على الله فيما لا تملك.

سترى أن العبودية أوسع من حال شعوري تنتظره. قد تخشع اليوم وتجد غدًا تعبًا، ومع ذلك تصلي وتحفظ الحق وتصدق. تعمل لأن الله أمر، وترجو أن يرزقك حضور القلب مع صحة الفعل. فلا تجعل فتور الشعور سببًا لترك الطاعة، ولا تتوهم أنك بلغت حالًا تستغني فيه عن الاستغفار والدعاء.

نعبدك يا رب ونستعين بك. نريد رضاك، ونعرف ضعفنا، ونسألك أن تعيننا على ما تحب. اجعل هذه المعاني حاضرة في الصلاة، ثم خذها إلى البيت والعمل والمعاملة. تؤدي ما

عليك، وتطلب عونه، وترجع إليه إذا قصرت؛ فتصبح العناية بالإخلاص جزءًا من الحياة التي تعيشها، لا حديثًا جميلًا بعيدًا عنها.

الفصل ٦١

ابن القيم: إخلاص وصدق

تقول: أريد رضا الله، ثم يتغير قرارك إذا غاب المدح. أو تريد الخير فعلًا، لكنك تؤجل العمل به مرة بعد مرة. وربما اجتهدت في عمل لم تتعلم هل هو مشروع. هذه أحوال مختلفة، ولا يعالجها تكرار كلمة واحدة عن حسن النية؛ بل تحتاج إلى قصد صالح، وإرادة صادقة، وعمل على هدي النبي ﷺ.

سبق أن أُثبت في الفصل الرابع نصُّ ابن القيم كاملًا في اجتماع الإخلاص والصدق والمتابعة، من أول قوله في عدم انقسام المطلوب والطلب إلى خاتمة الفصل في فضل الله العظيم.[70] حُذف من هذا الموضع المقتطف القصير؛ لئلا يُعرض جزء من كلامه كأنه وحدته التامة، ولئلا نكرر النص المنقول مرتين.

معنى الإخلاص في ذلك البيان أن يكون الله وحده هو المقصود بالعبادة، ومعنى الصدق أن تجتهد فعلًا فيما تقول إنك تريده، والمتابعة أن تعبده كما شرع، لا بما تخترعه من عندك.

---

70 **ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، 2/97، فصل «حقيقة الإخلاص توحيد المطلوب».**

هذا البيان يساعدنا على معرفة ما يحتاج إلى إصلاح. عندما نعمل ليقال عنا، نحتاج إلى إخلاص القصد. وعندما نعرف واجبًا ونسوفه بلا عذر، نحتاج إلى صدق يحثنا على أدائه. وعندما نفعل عبادة على غير هدي، نحتاج إلى العلم والاتباع. وقد تجتمع في العمل الواحد حاجة إلى هذه الأمور كلها.

تأمل شخصًا أراد مساعدة أسرة محتاجة. سأل عن حاجتها، وبذل ما يستطيع من حلال، وحفظ كرامتها، ولم يجعل شكرها شرطًا لإحسانه. هذه صورة يمكن أن يجتمع فيها صلاح القصد مع الاجتهاد وصحة الوسيلة. ليس المطلوب أن يحسن وصف ما في قلبه، وإنما أن يصدق فيما يفعل ويسأل الله أن يتقبل.

ويبدأ آخر بالمقصد نفسه، ثم ينشغل بأن يحمل العمل اسمه وحده. يرفض تعاونًا ينفع الأسرة، أو يؤخر وصول المال حتى يكون حاضرًا في الصورة. هنا يظهر ما ينبغي مراجعته. فالبداية الطيبة لا تبرر كل ما يأتي بعدها؛ اجعل مصلحة من تساعده مقدمة على رغبتك في أن تنسب إليك كل حسنة.

وفي المقابل، قد يخلص إنسان في رغبته، لكنه يحتاج إلى تعلم وإعداد. يريد أن يعلم، ولم يتقن ما يعلم. يريد أن يصلح خلافًا، ولم يسمع أطرافه. المحبة وحدها لا تكفي لأداء المهمة. من الصدق أن تعرف قدرتك، وأن تتعلم، وأن تترك لمن هو أقدر ما لا تحسنه، بدل أن تجعل حسن قصدك عذرًا للضرر.

ولا تفهم توحيد المقصود على أنه ترك كل رغبة مباحة. لك أن تحب أهلك، وتطلب رزقًا، وترتاح بعد التعب، وتفرح بمعروف. الإخلاص يتعلق بعبادتك لله، فلا تجعل فيها لغيره نصيبًا من التعبد. أما شؤون الحياة المباحة فتعرف أحكامها، وتحسن نيتها، ولا تخلط بينها وبين طلب أن يراك الناس صالحًا.

والصدق في الإرادة يظهر في خطوات يمكن ملاحظتها. من يريد الوفاء بوعده يهيئ له وقته، ومن يريد رد حق يبحث عن صاحبه، ومن يريد إصلاح لسانه يراجع ما يقوله وينقلُه. قد يعجز بعد بذل السبب، لكن العجز غير التسويف المتكرر مع القدرة. كن رفيقًا بنفسك، دون أن تسمي الإهمال عجزًا كل مرة.

وأما المتابعة فتعيدنا إلى العلم. لا نضيف عبادة مخصوصة أو عددًا نلزم به الناس من غير دليل، ولا نحتج بجمال الشعور على صحة ما نفعل. اسأل عما أشكل، وتعلم من أهل العلم، واتبع ما صح من سنة نبيك. القرب من الله لا يكون بمخالفة ما جاء به رسوله ﷺ، مهما حسنت العبارة التي نصف بها مخالفتنا.

وربما احتجت إلى تصحيح عمل اعتدته سنوات. لا يمنعك طول المدة من الرجوع، ولا حياؤك ممن تعلمه منك. بيّن الصواب بقدر الحاجة، واشكر من نبهك. ليس الصدق أن تدافع عن كل ما مضى، وإنما أن تريد الحق الآن. واعترافك بنقص العلم لا ينقص الحق الذي رجعت إليه، بل يحفظك من الاستمرار في الخطأ.

ومن مداخل النفس أن تجعل كثرة الكلام دليلًا على صدق الرغبة. نكرر أننا نريد التغيير، ثم لا نغير ما نقدر عليه. اختر عملًا محددًا بدل الوعد العام. أصلح خبرًا نقلته، أو اعتذر عن كلمة، أو أدّ أمانة. حين يكون المطلوب واضحًا، تعرف ما فعلت وما بقي، وتخرج من مجرد الحديث عن صلاح النفس.

ومع ذلك لا تحكم على كل تعب أو تأخير بأنه كذب في الإرادة. للناس قدرة تختلف، وأعذار لا تعرفها، وظروف قد تتبدل. تحدث عن نفسك بعلم، وعن غيرك بعدل. إذا تعثرت، فاسأل: ما السبب الذي أستطيع إصلاحه؟ وقد يكون الجواب راحة تحتاج إليها أو علمًا ينقصك، لا مزيدًا من اللوم الذي يعطلك.

الإخلاص والصدق والاتباع ليست أسماء نتزين بمعرفتها. نحتاج إليها عند كل قرار مهم: ماذا أريد بهذا؟ وهل أبذل له ما أستطيع؟ وهل أفعله على وجه يرضي الله؟ يكفي أن تكون الإجابة صادقة وقريبة من العمل، دون أن تتحول الأسئلة إلى قلق لا ينتهي أو إلى اختبار تتهم به الآخرين.

نسأل الله قصدًا لا نبيع به العبادة للمديح، وصدقًا يحملنا على فعل الخير، وعلمًا يدلنا على الطريق المشروع. فإن رأينا نقصًا أصلحناه، وإن وفقنا إلى طاعة شكرناه، وإن ضعفنا استعنا به. بهذا تصبح كلمات ابن القيم معنى نعيشه: نريد الله، ونصدق في الطلب، ونتبع رسوله ﷺ.

الفصل ٦٢

لا يحرمك الذنب من التوبة

يتذكر الإنسان خطأه كلما أراد أن يعمل خيرًا، فيقول: كيف أتكلم عن الإخلاص وأنا أعرف ما في نفسي؟ ربما راءى بعمل، أو طلب ثناء، أو بالغ في وصف نفسه. هذه المعرفة ينبغي أن تدعوه إلى التوبة، لا أن تقنعه بأن الصدق لم يعد ممكنًا. الذنب يحتاج إلى رجوع، ولا يصلحه أن تضيف إليه ترك الطاعة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: 53–54].[71]

يجمع السياق بين فتح باب الرجاء والأمر بالإنابة والإسلام لله. لا يمنع المذنبَ كثرةُ ما أخطأ فيه من أن يرجع إلى ربه، ولا يصير الرجاء إذنًا في مواصلة الذنب أو تأجيل

71 **الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.**

التوبة. نترك ما علمنا أنه معصية، ونندم عليه، ونعزم على عدم الرجوع إليه، ونعالج ما تعلق به من حقوق. هذا عمل نستطيع أن نبدأه، بدل أن نظل نكرر أن ماضينا لا يصلح.

ربما كانت توبتك من مبالغة يعرفها الناس عنك. صحح ما يلزم، ولا تنتفع بصورة كاذبة لأن الاعتراف يحرجك. قل ببساطة: هذه المعلومة غير دقيقة، أو إن الفضل في هذا العمل مشترك. قد يشق عليك ذلك لحظة، لكنه أصدق من أن تحمي المديح بخطأ تعرفه.

وقد يكون الذنب فيما بينك وبين الله، ولم يتعلق به حق يحتاج إلى بيان. تب إليه، واستتر بما ستره، ولا تجعل إعلان الذنب شرطًا لصدق التوبة. ليس كل رجوع يحتاج إلى جمهور، وليس كل اعتراف نافعًا لكل سامع. عند التباس ما يلزمك في واقعة، اسأل من يبين لك الحكم دون أن يوسع عليك الفضيحة.

ومن الناس من يمنعه الحياء من الماضي أن يعود إلى الصلاة أو القرآن. يظن أن العبادة لا تناسبه حتى يصبح أفضل أولًا. لكن الطاعة مما يعينه على الإصلاح. قم إلى الفريضة التي عليك، واستغفر، واقرأ ما تيسر، واطلب صحبة صالحة. لا تجعل كمالًا لم تصل إليه شرطًا للبدء بما أمرك الله به.

وإن رجعت إلى الذنب بعد توبة صادقة، فجدّد التوبة. لا تجعل سقوطك الأخير حجة على أن كل رغبة سابقة كانت كاذبة، ولا تتخذ سعة الرحمة وعدًا لنفسك بأنك تستطيع

تأجيل الرجوع. أنت مسؤول عما تختاره الآن. قم بما يلزمك، وتعلم من السبب الذي أعادك إلى الخطأ، وخذ بما يعينك على تركه.

ربما عرفت أن حديثًا بعينه يدفعك إلى الرياء، فتقلل منه؛ أو أن صحبة لا تذكرك إلا بالمنافسة والمظاهر، فتختار من يعينك على الخير؛ أو أنك تنشر كل عمل قبل أن تسأل عن الحاجة إلى نشره، فتتأنى. هذه أسباب عملية لا تغني عن الدعاء، لكنها تجعل طلبك للإصلاح حاضرًا فيما تختاره كل يوم.

ولا يلزم أن تصحب التوبة دموع يراها أحد، أو كلمات تستطيع وصفها. الندم الصادق قد يظهر في كفك عن الذنب، وردك للحق، واستغفارك في خلوة. لا تقارن رجوعك بمشهد رأيته عند غيرك، ولا تتظاهر بعاطفة لا تجدها. سل الله أن يلين قلبك، واعمل بما تعرف، ودعه يعلم منك الصدق الذي لا تحتاج إلى تمثيله.

وحين يذكرك إنسان بماضيك فتتألم، تذكر أن من حق المتضرر أن يطلب إصلاح ما بقي من حقه، لكن ماضيك لا يلزمك أن تقيم على الخطأ. أَدِّ ما عليك، واستمر في الخير، ولا تجعل كل نظرة من الناس حكمًا نهائيًا على قدرتك على التوبة. تغيير العادة يحتاج إلى أفعال متتابعة، لا إلى إقناع الجميع في يوم واحد.

ومن الرحمة أن نعامل التائب بما يعينه. لا نكذّب ظاهر رجوعه بلا دليل، ولا نطالبه أن يسرد تفاصيله ليحصل على قبولنا. نحفظ الحقوق ونتثبت فيما يحتاج إلى تثبت،

ونفرح بما يظهر من خير. من عرف حاجته هو إلى المغفرة، كان أولى بأن ينصح برفق، لا أن يجعل زلة غيره حديثه الدائم.

ومع التوبة، تذكر النعم التي أعطاك الله. وفقك لأن ترى الخطأ، وأبقى لك وقتًا تستطيع فيه الرجوع، ويسر أسبابًا للإصلاح. اشكره على ذلك، دون أن تجعل مجرد إحساسك بالندم شهادة لنفسك. الرجاء يدفعك إلى العمل، والشكر يمنعك من نسيان الفضل، والخوف يصونك من التساهل في الذنب.

ابدأ من موضع واضح. إن كان في يدك حق لغيرك فرده، وإن كان في لسانك كذب فاتركه وصحح أثره، وإن كان في عملك طلب للثناء فجاهد قصدك. لا تحمل نفسك إصلاح كل شيء في لحظة واحدة ثم تقعد. تب من الذنب كله، وخذ في أداء ما يلزمك بما تستطيع، واطلب العون حيث تحتاج إليه.

يا رب، لا تجعل علمنا بخطئنا سببًا لليأس، واجعله سببًا للرجوع إليك. اغفر لنا ما مضى، وأعنّا على ما بقي، وارزقنا صدقًا لا نطلب به تزكية الناس. ما دمنا نستطيع أن نتوب ونعمل، فليس من الحكمة أن نمضي أيامنا في تبرير الخطأ أو في الوقوف عنده بلا إصلاح.

الفصل ٦٣

الإخلاص ليس وسواسًا

يريد بعض الناس أن يخلصوا، فيعيدون السؤال عن نياتهم بعد كل عبادة. صلى أحدهم، ثم أخذ يسأل نفسه: هل أردت الله حقًا؟ ولماذا انتبهت إلى من دخل؟ وهل سروري بكلمة ثناء أفسد كل شيء؟ قد تطول الأسئلة حتى تصير الطاعة مصدر خوف دائم. هذا ليس الفهم الذي يعين على العبادة.

النية هي قصدك، وليست امتحانًا لا تنتهي أسئلته. إذا قمت إلى الصلاة تريد أداء ما أمرك الله به، فقد عرفت ما دخلت فيه. إن عرض خاطر تكرهه، فادفعه وأكمل. لا تجعل مرور الخاطر كاختيارك المتعمد له، ولا تطلب شعورًا كاملًا ثابتًا قبل أن تفعل كل خير. القلوب تحتاج إلى مجاهدة أثناء العمل أيضًا.

في هذا رحمة بحديث النفس العارض، وليس تبرئة لكل قصد يتعمده الإنسان ويستقر عليه. نفرق بين فكرة ترد فتكرهها، وبين رغبة تتبناها وتعمل لأجلها. بهذا التفريق لا نتساهل في الرياء، ولا نظلم أنفسنا بسبب كل ما يمر بها.

عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه:

> «أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي. فقال رسول الله ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثًا. قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني».[72]

سأل عثمان عما ينفعه، ثم عمل بالهدي الذي تعلمه. وفي هذا أن المسلم لا يخجل من طلب البيان حين يشق عليه الأمر. ليس حضور الوسوسة دليلًا على أنه يريدها، ولا أن عبادته كلها باطلة. يستعين بالله ويأخذ بالهدي المشروع.

وما ورد من التفل يراعى فيه ألا يؤذي من بجواره أو يلوث المكان؛ فالسنة تتبع مع حفظ حقوق الناس وحرمات المساجد.

تدخل عليك الرغبة في المدح وأنت تعمل، فتكرهها وتعود إلى نفع من أمامك. هذا موضع مجاهدة، فلا تحوله إلى سبب للانسحاب من كل نفع. وإن علمت أنك تعمدت الكذب أو التظاهر، فتب من الخطأ المعلوم. فرق كبير بين معالجة واقعة واضحة ومحاكمة طويلة لكل شعور لا تستطيع الجزم بحقيقته.

---

72 **صحيح مسلم، كتاب السلام، حديث رقم 2203.**

ومن العلامات التي تدعوك إلى تخفيف الاسترسال أن تكرر السؤال نفسه بعد أن فهمت جوابه، أو تعيد العبادة لمجرد احتمال لا يقوم على سبب معتبر. خذ العلم من أهله، واعمل به، ولا تجعل القلق وحده دليلًا على الحكم. الأحكام الشرعية لا تتغير كلما اشتد خوفك أو بدا لك احتمال جديد.

حين يعود التفتيش نفسه، وجّه انتباهك إلى العمل الذي بين يديك: أكمل القراءة، وأتم الإحسان، وصحح الخطأ المعلوم. لست مطالبًا بأن تستخرج بعد كل عبادة شهادة عن باطنك.

والحديث عن الإخلاص ينبغي أن يزيد صدقك، لا أن يجعلك تراقب وجوه الناس لترى هل لاحظوا أنك لا تراقبهم. حين تقرأ القرآن، اعتن بفهمه وحسن تلاوته. وحين تساعد محتاجًا، اعتن بحاجته. كلما عرفت الخير الذي بين يديك وأحسنت أداءه، كان ذلك أنفع من الانشغال المتصل بوصف حالك للناس أو لنفسك.

وفي يوم رعاية طويل قد تؤدي حق مريض وأنت متعب قليل الكلام. حاجتك إلى الراحة لا تكذب محبتك له، ولا تمنع قصد الأجر. رتّب مع أهلك من يعينك، ثم واصل ما تستطيع بصدق؛ فالإخلاص يسع العمل الذي تؤديه مع المشقة.

وإذا بلغ القلق مبلغًا يعطل عبادتك وحياتك، فلا تبق وحدك مع الأسئلة. استعن بعالم موثوق يوضح لك الحكم، وبمختص مؤهل عند الحاجة. طلب المساعدة لا ينافي

التوكل ولا يعيب الإيمان. وقد يحتاج الإنسان إلى من يعينه على التعامل مع الشك المتكرر، بدل أن يتلقى مزيدًا من اللوم والأحكام على نيته.

وعلى من ينصح أن يرفق. لا يقل لمن يشكو الوسوسة إن مجرد ورودها يثبت فساد قلبه، ولا يكثر عليه احتمالات لا يحتاج إليها. اسمعه، ودله على العلم المناسب، وأعنه على أداء ما عليه. قد تكون حاجته إلى كلمة واضحة يعمل بها، لا إلى شرح طويل يزيده التفاتًا إلى كل خاطر.

احتفظ بمحاسبة نافعة ومحددة. إن رأيت أنك بالغت في وصف عملك، فصحح. وإن رأيت أنك تركت حقًا طلبًا للثناء، فأدّه. أما ما لا تعلمه فلا تجعل فيه أحكامًا جازمة. تطلب الإخلاص لتعبد الله بصدق، لا لتقضي حياتك في محاولة إثبات أنك بلغت حالة لا يعرض لها أي ضعف.

الله يعلم حاجتك ومجاهدتك. سلْه أن يصلح قلبك، وخذ بما تعلمت من هدي، وأحسن عملك بقدر استطاعتك. لا تأمن على نفسك فتغفل، ولا تشدد عليها حتى تعجز عن الطاعة. بين الغفلة والاسترسال في الشك عناية هادئة: نتعلم، ونعمل، ونصحح الخطأ المعلوم، ثم نستعين بربنا ونمضي.

الفصل ٦٤

عمل تخفيه وحق تؤديه

عن عامر بن سعد قال:

> «كان سعد بن أبي وقاص في إبله، فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب. فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره فقال: اسكت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي».[73]

جاء الخبر في موقف ابتعد فيه سعد عن التنازع، وفيه تفضيل التقوى والغنى والخفاء. وليس فيه دعوة إلى ترك كل واجب بين الناس، ولا إلى اتخاذ الخفاء ستارًا يضيع به حق أو أمانة.

للعبد أن يحفظ من الخير ما يكون في خلوته: يذكر الله، ويصلي نافلة، ويتصدق، ويدعو لأخيه. يعرف أن الله مطلع عليه، فلا يحتاج أن يحكي كل ذلك ليحصل على

---

73 **صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم 2965.**

كلمة مدح. وهذا خير يعتني به ما دام الخفاء لا يضيع حقًا، ولا يمنعه من عمل ظاهر يحتاج إليه الناس.

الإخلاص لا يطلب منا أن نصبح غامضين في مسؤولياتنا. من جمع تبرعات يبين مواضع صرفها، ومن تولى مالًا يؤدي حسابه، ومن وعد بعمل يوضح ما أنجز وما بقي. هذه حقوق، لا اعتداء على السريرة. تستطيع أن تحفظ نيتك لله، وأن تكون في الوقت نفسه واضحًا أمينًا مع من ائتمنوك.

إذا توليت توزيع مساعدة، فقد يطلب صاحب المال إثبات وصولها. لا تقل: يكفيني أن الله يعلم. نعم، الله يعلم، وقد أمرك بالأمانة. قدم الإثبات المناسب مع حفظ كرامة المستفيد وخصوصيته. وبين إظهار وجه المحتاج بغير حاجة وإخفاء الحساب وسائل كثيرة تحقق الشفافية دون أذى؛ فتعلم ما يلائم كل عمل.

وربما كان عملك تعليمًا أو دعوة لا تؤديه دون حضور الناس. أصلح نيتك، وتعلم، وقل ما ينفعهم؛ فالعلانية وحدها ليست رياءً. الذي تدفعه هو أن يصبح طلب الثناء غاية عبادتك، أو أن تغير الحق كي يرضوا عنك. قد تتكلم أمامهم وأنت ترجو رضا الله، وقد تخفي العمل وقلبك ينتظر شهرته.

ومن العدل أن تنسب جهد غيرك إليه. لا تتخذ حديث الإخلاص سببًا لمحو أسماء من تعبوا، أو حرمان العامل من حقه. قد يختار إنسان أن يبقى مجهولًا، لكن ليس لك أن

تفرض عليه ظلمًا باسم الخفاء. دعوة النفوس إلى التجرد لله لا تعفي المسؤولين من الشكر والإنصاف وأداء الحقوق.

وأنت أيضًا تستطيع أن تطلب حقك دون أن تجعل العبادة تجارة بالمدح. إن نسب غيرك عملك إلى نفسه، فبيّن الحقيقة بقدرها. وإن كان لك أجر فاطلبه. الذي نراجعه هو قصد الطاعة وصدق السلوك، لا مجرد كل رغبة في الإنصاف. لا ينبغي أن يتحول الكلام عن الإخلاص إلى وسيلة يستغل بها القوي حياء غيره.

أما العمل الذي لا يتعلق به حق يحتاج إلى بيان، فقد يكون حفظه أرفق بقلبك. لا يلزم أن تخبر أصحابك بكل نافلة، أو تدعوهم إلى ملاحظة دقتك في إخفائها. افعلها وامض إلى سائر شأنك. بعض الناس يخفي تفاصيل العمل ثم يكثر من الإشارة إلى أن له أسرارًا، فينتظر مديحًا أرق من المديح الصريح.

وقد تذكر خيرًا فعلته لتسأل عن حكمه، أو لتعلم من يستفيد، أو لتدفع عن نفسك تهمة. انظر إلى الحاجة، واذكر قدرها، واحذر المبالغة. لا يجعل ذلك كل كلام عن العمل مباحًا بلا نظر، ولا يجعله رياءً في كل حال. الصدق والحاجة وصلاح القصد معان تجتمع وتحتاج إلى عناية مستمرة.

ومتى لم يحتج الأمر إلى اسمك، فاسأل نفسك عن إصرارك على ظهوره. قد تكون هناك مسؤولية تقتضي تعريف صاحبها، وقد تكون هناك رغبة في أن تكون حاضرًا في كل

خير. معرفة الفرق تعينك على القرار. ربما كان الأنفع أن تدع غيرك يتقدم، وأن تؤدي من العمل ما يحسن بك، دون أن تنقصه فرحتك أو تعاونك.

وفي الأسرة، الخفاء لا يعني أن تكتم ما يحتاج إليه أهلك لتدبير حياتهم. بينك وبينهم عهد وثقة وحقوق. لا تتوسع في صدقة نافلة حتى تضيع نفقة واجبة، ولا تجعل سرية تصرفك حجة تمنعهم من معرفة ما يؤثر في حقوقهم. الخير يتسع حين يعرف كل حق موضعه، لا حين نختار بابًا واحدًا ونهمل ما سواه.

تمر عليك أيام لا يتيسر فيها إلا عمل ظاهر؛ خدمة مريض، أو مهمة شاقة، أو رعاية أبناء. احتسب، ولا تظن أن يومك خلا من الإخلاص لأن الناس رأوا أكثر ما فعلت. وإن تيسر لك ذكر أو دعاء خفي فافعله. ليست للمسلمين صورة واحدة في هذا الباب؛ وإنما يطيع كل منهم الله في الحال التي هو فيها.

وإذا نصحت غيرك بعمل السر، فاجعل نصيحتك دعوة لطيفة لا طلبًا لأن يكشفه لك. تعلّمه فضل صدقة خفية، ثم تترك له أمره مع الله. ليس من الوفاء للمعنى أن تراقبه بعد ذلك لتسأله عن كل ما أخفى؛ فالخير الذي تعينه عليه لا يلزم أن تبقى حاضرًا في تفاصيله كلها.

نرجو أن يكون لنا مع الله عمل لا نطلب به أحدًا، وأن نكون مع الناس أمناء لا نخفي عنهم حقوقهم. نخفي ما يصلح إخفاؤه، ونبين ما يجب بيانه، ونحفظ القصد في

الحالين. فالخفي الذي نحبه ليس المتنصل من المسؤولية، والمخلص الذي نرجوه ليس الغائب عن حاجات من حوله.

الباب ٩

نجدد الإخلاص ما حيينا

فهم الإخلاص لا ينهي حاجتنا إليه. تتجدد أعمالنا، وتتغير أحوالنا، ويعرض لنا من المدح والغضب والمنافسة ما يحتاج إلى انتباه. نوفَّق في عمل ثم نضعف في غيره؛ لذلك نحتاج إلى معرفة بالله تزيدنا محبة ورجاء، ودعاء نسأله به المعونة، ومحاسبة تدلنا على خطأ نصلحه وخير نحافظ عليه.

وثمرة ذلك قريبة من حياتنا: صلاة نؤديها بصدق، وأمانة نحفظها، ومعروف لا نفسده بالمنّ، وتوبة لا نؤخرها. نبدأ بما نعرف ونستطيع، ونتعلم ما ينقصنا، ونواصل الطريق إلى ربنا. لا نستغني يومًا عن فضله، ولا نحتاج إلى شهادة من الناس حتى نعمل له.

الفصل ٦٥

اعرف ربك الذي تعبده

حين يكثر الحديث عن الرياء، قد يظل الإنسان مشغولًا بالناس: هل رأوني؟ وهل مدحوني؟ وهل فكرت فيهم؟ لكن إصلاح الإخلاص يحتاج أيضًا إلى أن نقبل على الله، ونتعلم ما يزيد معرفتنا به ومحبته ورجاءه. لا يكفي أن نكرر ما نريد تركه؛ نحتاج إلى أن نعرف من نعبده، ولماذا نقدم رضاه على كل ما يخالفه.

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: 22].[74]

يعلم ما غاب وما ظهر، وهو سبحانه الرحمن الرحيم. لا تخفى عليه حقيقة ما فعلت، ولا حاجتك التي تعجز عن شرحها. تعبده راجيًا رحمته، وتستحي أن تتعمد معصيته وهو مطلع عليك.

74 **الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.**

هذه المعرفة تعين من أغفله المديح. قد يظن الناس أنك أكملت ما لم تكمله، أو أنك فعلت الخير وحدك، فتجد في ثنائهم ما يرضيك. تذكر أن الله يعلم الحقيقة كما هي. لا يتغير علمه بما أضافه الناس من أوصاف. اختر الصدق ولو نقص المديح، وأصلح ما يلزم بيانه، وارجُ أن ينفعك الحق أكثر من صورة لا تصدق.

وتعين أيضًا من ظلمته ظنون الناس. قد تخلص في عمل ثم يساء فهمك، أو تؤدي أمانة ولا يعرف مقدار تعبك فيها. تستطيع أن تبين حقك بالعدل، وأن تحزن مما أصابك، ومع ذلك لا تجعل جهلهم بكل التفاصيل دليلًا على ضياع جهدك. الله يعلم ما لا يعلمون، وأنت تسأله أن يتقبل ما أردت به وجهه.

والرحمة تمنعك من اليأس حين ترى عيبك. الذي يعلم ذنبك هو الذي أمرك أن تتوب، والذي يعلم ضعفك تدعوه أن يقويك على الطاعة. لا تحتاج أن تتظاهر أمامه بسلامة لا تجدها. اسأله أن يخلص قلبك من طلب الثناء، وأن يعينك على الاعتذار، وأن يرزقك الصدق حين تميل نفسك إلى غيره.

تعلّم من أسماء الله ما يذكره بها القرآن، واقرأ تفسيرًا موثوقًا فيما لا تفهم. حين تعرف أنه سميع، تعتني بما تقول وتطمئن إلى أنه يسمع دعاءك. وحين تعرف أنه عليم، تعلم أن ما تخفيه ليس خافيًا عليه. وحين تقرأ عن مغفرته، ترجوه وتتوب. نؤمن به كما أخبر عن نفسه، دون تشبيه له بخلقه.

ولا تجعل هذه المعرفة مجرد معلومات تجمعها. قد تحفظ اسمًا ثم لا تستحضر معناه في موقف يحتاج إليه قلبك. عند الدعاء تذكر أنك تسأل ربك، وعند الأمانة تذكر أنه يعلم أداءك، وعند النعمة اشكره، وعند الخطأ استغفره. العلم ينفع حين يعيننا على العبادة، لا حين يزيد قدرتنا على الحديث عن أحوال لا نعيشها.

ومن أسباب التواضع أن تتذكر ما سبق جهدك من نعم. وجدت صحة تستطيع بها العمل، أو من علمك، أو وقتًا تيسر، أو باب خير فتح لك. لك اجتهاد تشكر عليه، لكنك لم تستغن به عن فضل الله. حين تجمع معرفة جهدك ومعرفة نعمته، تعمل بثقة، ولا تنسى الشكر ولا تحتقر من لم يتيسر له مثل ما تيسر لك.

وترى من حولك من يملك أكثر منك، فيشغلك التطلع عن شكر ما أعطيت. اسأل الله من فضله، وخذ بالأسباب المباحة، لكن لا تجعل المقارنة سببًا لترك طاعة أو ارتكاب حرام. ليست قيمتك فيما حاز غيرك، ولا تساوي كثرة المال أو الشهرة صلاح القلب. أمامك خير معلوم تعمل فيه اليوم.

وفي الخلوة تتعلم أن عبادتك لا تحتاج إلى جمهور. لا لأن الناس أعداء لطاعتك، بل لأن ربك يستحقها في كل حال. اقرأ ما تيسر، وادع، واذكر الله، واسأله أن يرزقك حضور القلب. ثم اخرج إلى من حولك رفيقًا أمينًا؛ فمعرفتك بالله ينبغي أن تزيد عنايتك بما أمرك به من حقوقهم.

ويغيب عنك التأثر أحيانًا. تقرأ وأنت مرهق، أو تدعو وأنت مهموم، فلا تجد ما اعتدته من راحة. لا تجعل هذا وحده حكمًا على إيمانك أو إخلاصك. واصل الخير، وخذ بسبب الراحة حين تحتاج إليها، وتعلم واعمل. ليست كل طاعة مصحوبة بشعور قوي؛ ومن المجاهدة أن تطيع رغم الفتور الذي تستطيع دفعه.

وإذا وجدت نفسك تنسى الله عند النجاح ولا تذكره إلا عند الحاجة، فاجعل هذا موضع إصلاح. ابدأ بالشكر على النعمة الحاضرة، وبالمحافظة على ما أمرك به في الرخاء. ربك ليس ملجأ للمشكلة وحدها؛ هو الذي تعبده في العافية والمرض، وفي السعة والضيق، ومنه تسأل صلاح الدنيا والآخرة.

تكفي أحيانًا وقفة صادقة مع آية تفهم معناها ثم تعمل بما دلت عليه. لا تستقل ذلك لأن غيرك قرأ أكثر. ازدد من التلاوة والتعلم، وأعط الفهم حقه أيضًا. ما أعظم حاجة من عرف أن الله يعلم السرائر إلى أن يصدق في سريرته، ومن عرف رحمته إلى ألا يقعد عن التوبة.

اللهم عرّفنا بما ينفعنا من دينك، وأعنّا على عبادتك. ارزقنا محبة تحملنا على طاعتك، وخوفًا يمنعنا من معصيتك، ورجاء يعيدنا إليك إذا قصرنا. حين يعرف القلب ربه، يصبح السؤال عن الإخلاص أوسع من الخوف من المديح: كيف نؤدي حقه، ونشكر نعمته، ونجعل ما نعمله له وحده؟

الفصل ٦٦

اسأل الله صلاح قلبك

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه:

> «أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك. فقال: أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. وأوصى بذلك معاذ الصنابحي، وأوصى به الصنابحي أبا عبد الرحمن».[75]

محبة صريحة ووصية نافعة؛ يعلم النبي ﷺ من يحبه أن يسأل الله العون، وأن تبقى حاجته إلى ربه حاضرة مع عبادته.

في هذا الدعاء طلب لثلاثة أمور نحتاج إليها: أن نذكر الله، وأن نشكره، وأن نحسن عبادته. ليس المطلوب كثرة العمل وحدها، بل حسنه أيضًا. ندعوه أن يعيننا على ما

75 **سنن أبي داود، كتاب الوتر، حديث رقم 1522؛ صححه الألباني.**

أمرنا به، وعلى قصد صالح يصحبه. والإخلاص من حاجتنا إلى هذا العون؛ فلا نستغني بمعرفتنا لمعناه عن سؤال الله أن يرزقنا إياه.

تقول: أعرف أن طلب المديح يفسد علي العمل، لكنني أجد في نفسي رغبة فيه. هذه حاجة تدعو الله بها. قل كلامًا صحيحًا تفهمه: يا رب، أعني على أن أريد رضاك، واحفظني من الرياء. لا تتكلف ألفاظًا غريبة، ولا تنتظر أن تحسن التعبير كما يعبر غيرك؛ فالله يعلم حاجتك قبل أن تشرحها.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال:

> «لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».[76]

76صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث رقم 2722.

تسأله أن يرزق نفسك التقوى وأن يطهرها من الذنوب والعيوب، وتستعيذ به من أسباب الضعف ومن علم لا يثمر ومن قلب لا يخشع. من يقول هذا الدعاء لا يزكي نفسه، بل يقر باحتياجها إلى الإصلاح، ويرجو من الله ما لا يستغني عنه باجتهاده مهما بلغ.

ويصحب الدعاءَ عملٌ يوافقه. حين تسأل الله أن يعينك على الصدق، اترك الكذبة التي تقدر على تركها. وحين تسأله إخلاصًا، فلا تسترسل في صناعة مديح لنفسك تعلم أنه غير حق. وحين تسأله حسن العبادة، تعلّم كيف تؤديها. الدعاء ليس بديلًا عما كلفت به، بل استعانة بمن أمرك وأعانك.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يقول:

> «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى».[77]

تسأله الهداية إلى ما يحب، والتقوى التي تمنعك مما نهى، والعفة عما لا يحل، والغنى الذي يصونك عن التطلع المذموم. كلها حاجات تتصل بإخلاصك؛ لأن الجهل والطمع وضعف المجاهدة قد تفتح على القلب أبوابًا تجرح قصده.

77صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث رقم 2721.

لا تحصر الدعاء في ساعة شعرت فيها بالعجز. اسأل الله قبل العمل، ومعه، وبعده. قد تبدأ مسؤولية جديدة فتحتاج إلى الأمانة، أو تنصح صديقًا فتحتاج إلى الرفق، أو تتصدق فتحتاج إلى حفظ القصد. والأدعية الجامعة تكفيك حين لا تعرف كيف تفصل حاجاتك؛ تعرف معناها وترجو الخير الذي يجمعه الله فيها.

تدعو أيامًا ثم تجد أنك ما زلت تجاهد حب الثناء. لا تتعجل الحكم بأن الدعاء لم ينفع. أنت مأمور بالدعاء والعمل، ولا تعلم جميع وجوه العون التي ييسرها الله: تتنبه إلى عادة، أو تسمع نصيحة، أو تتعلم حكمًا. استمر في سؤاله، ولا تجعل دعاءك موعدًا تلزم به نفسك أن تصل في وقت محدد إلى الكمال.

ومع الأدعية المأثورة، يجوز أن تسأل الله حاجتك بكلام صحيح، دون أن تنسبه إلى النبي ﷺ أو تخصه بفضل لم يثبت. قد تدعو لأهلك بالإصلاح، ولنفسك بقلب صادق، ولمن أسأت إليه بأن يعوضه الله خيرًا. الدعاء عبادة، وحسن البيان فيه ما يعينك على المعنى، لا ما يجعل السامعين يعجبون ببلاغتك.

وفي وصية معاذ نتعلم طريقة لطيفة في النصيحة. تستطيع أن تقول لمن تحب إنك تريد له الخير، ثم تعلمه دعاءً نافعًا أو تذكره بطاعة. لا تجعل كل كلمة تبدأ باتهامه بالتقصير، ولا تستخدم الدعاء تلميحًا جارحًا إلى فساد قلبه. النصيحة الصادقة تريد نفعه، لا أن يظهر فيها تفوقك عليه.

والدعاء الخفي أصفى لقصدك في بعض الأحوال. تخلو بربك فتقول ما تحتاج إليه دون عناية بنبرة أو صورة، ولا يلزم أن تحكي بعد ذلك ما جرى في خلوتك. وإذا دعوت بين الناس لسبب مشروع، فادع بصدق، ولا تتصنع انفعالًا لم تجدْه. حضور الناس لا يمنع الدعاء، لكنه موضع تجاهد فيه قصدك أيضًا.

إذا كنت تنتظر كلمة اعتراف بفضلك، فادع الله أن يعينك على مواصلة الخير لوجهه. وإذا ضقت بنجاح غيرك، فاسأله البركة له والفضل لنفسك. وإذا عجزت عن الاعتذار، فاسأله شجاعة الصدق. تخصيص حاجتك المعلومة في الدعاء قد يعينك على فهم ما ينبغي إصلاحه، ثم على خطوة عملية تقوم بها.

وأنت تدعو، تذكر أن رحمة الله لا تعني أن نستسهل حقوق عباده. من دعا بالمغفرة وبقي مصرًا على أكل حق غيره، يحتاج إلى أن يصدق في رجوعه. رد الحق، واطلب العفو حيث يحسن طلبه، وكف الأذى، ثم ارجُ رحمة ربك. ما أجمل الدعاء حين تصدقه الأفعال التي نستطيعها.

دعاء معاذ يسير الألفاظ واسع المعنى. تعلمه، وافهمه، واعمل بما يدعوك إليه من ذكر وشكر وعبادة. واجعل حاجتك إلى الله باقية في قلبك؛ في أول الطريق وآخره، وفي وقت قوتك كما في وقت ضعفك.

الفصل ٦٧

ادع لأخيك ولا يعلم

يصلك خبر صديق مريض، أو قريب ضاق به أمر، فتدعو له حيث أنت. لا يسمعك، ولا يعرف ما سألت الله له، لكن دعاءك خير تبذله.

قال رسول الله ﷺ:

> «من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل».[78]

وبظهر الغيب: في غيبته، دون أن يكون حاضرًا عند دعائك له.

هذا باب لا يتوقف على كثرة المال ولا على قدرتك على الوصول. تسأل الله له العافية، والمغفرة، والهداية، وصلاح أهله، وتيسير الخير. وربما عجزت عن بعض المساعدة، لكنك لا تعجز عن الدعاء. لا تستقل ما شرعه الله لك، ولا تحصر الإحسان فيما يستطيع الناس مشاهدته أو إحصاءه.

78صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث رقم 2732.

وفي الحديث وعد نرجوه: تدعو لأخيك فيقول الملك آمين ولك بمثل. تحب له الخير، ويأتيك من الدعاء ما يشبه ما طلبت له. فلا تجعل قلبك مشغولًا بمصلحتك وحدها. تذكر أن حولك من يحتاج إلى رحمة الله كما تحتاج، وأن الفرح بخير الآخرين من معاني الأخوة التي ينبغي أن نتعلمها ونعمل بها.

وربما كان المدعو له إنسانًا ينافسك في مجال مباح. رأيته ينجح في أمر تمنيته لنفسك، فوجدت ضيقًا لا ترضاه. ادع له بالبركة فيما آتاه الله، واسأل لنفسك من فضل ربك، ثم امتنع عن قول أو فعل يؤذيه. لا يشترط أن تختفي المشاعر كلها فورًا حتى تختار الصواب، ولا تجعل الدعاء كلمات يخالفها الأذى المتعمد.

وقال رسول الله ﷺ:

> «أن رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه».[79]

79صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم 2567.

زيارة لم تكن طلبًا لمنفعة مخصوصة، فكان فيها هذا الفضل العظيم. والمحبة لله لا تمنع الأنس الطبيعي، لكنها تحفظ الصلة من أن تقوم على منفعة عارضة وحدها.

المحبة في الله لا تجعل العلاقة جافة. تأنس بصديقك، وتفرح بلقائه، وتسأل عن أحواله، وتشاركه المباح من حياتكما. وترجو مع ذلك أن تكون مودتكما في طاعة الله، وأن يعين بعضكما بعضًا على الخير. ليس الإخلاص أن تخلو من كل أنس طبيعي، بل أن تحفظ المحبة مما يرضي النفس ويغضب الرب.

وتشغلك الأيام عن أناس أحسنوا إليك. تذكر معلمًا، أو قريبًا، أو صاحبًا وقف معك، وادع له. وإذا استطعت فاقرن الدعاء بسؤال لطيف أو مساعدة مناسبة. ليس المطلوب أن تثقل عليهم أو على نفسك ببرنامج طويل؛ إنما أن يبقى للوفاء مكان في قلبك وعملك، وألا تنسى الخير لمجرد مرور الوقت.

والدعاء لا يعوض حقًا تركته وأنت قادر عليه. من كان عليه دين يؤديه، ومن احتاج إليه والداه يقوم بما يستطيع من حقهما، ومن وعد بعمل يفي به. ادع لهم، وأدِّ الحق أيضًا. الكلمات الطيبة تزداد صدقًا حين تصحبها الأفعال، ولا يصح أن نجعلها طريقة سهلة للهروب مما يحتاج إلى مال أو جهد.

تدعو لشخص ثم تخبره بما دعوت. في الإخبار أحيانًا تطييب لقلبه، وقد يختلط به طلب لمدحه؛ فانظر إلى قصدك وحاجته. لا يلزم أن يعلم كل دعاء حتى يصدق الود.

تستطيع أن تفرح بخيره، وتبقى بعض صلتك به خفية بينك وبين الله، لا تنتظر عليها جوابًا ولا رسالة شكر.

وإذا اختلفت مع إنسان، فلا يلزم أن ينقلب كل دعائك له إلى شر. تستطيع أن تسأل الله أن يهديه ويصلح حاله، وأن يحفظك من أذاه. هذا لا يمنعك من طلب حقك أو وضع حدود عادلة. اجتماع الدعاء بالهداية مع الحذر من الضرر ممكن، ولا يحتاج أن تدعي أن الإساءة لم تؤلمك.

ومن الأدب أن تصون خصوصيته. إن علمت بمرض أو مشكلة، فلا تنشر الخبر بحجة طلب الدعاء إلا بإذن أو حاجة معتبرة تراعي حقه. تستطيع أن تدعو من غير أن تحكي التفاصيل. ربما كان ستر شأنه أحب إليه وأنفع من تعاطف واسع لم يطلبه. الخير يحتاج إلى معرفة ما يصلح لصاحبه، لا إلى مجرد حماسنا لفعل شيء.

وحين تزور مريضًا، انظر إلى راحته، لا إلى رغبتك في إطالة الزيارة. قد يحتاج إلى دقائق قليلة، أو إلى خدمة عملية، أو إلى أن تتركه يستريح. احمل إليه دعاءً ولطفًا، واسمع ما يحتاج إليه. الإحسان الذي نرجو به الله يراعي حال من نحسن إليه، ولا يفرض عليه الصورة التي اخترناها نحن للعطاء.

لن تعرف دائمًا من دعا لك في غيبتك. لا نجزم بأن واقعة معينة حصلت بسبب دعاء شخص بعينه، لكننا نؤمن بفضل الدعاء ونرجو نفعه. وفي ذلك ما يدعونا إلى التواضع

والشكر؛ فلسنا نحيط بكل إحسان يصل إلينا. فلنكن نحن أيضًا أهل دعاء ووفاء، ولو لم تعرف أسماءنا في كل خير نرجوه.

تذكر الآن إنسانًا يحتاج إلى دعائك، واسأل الله له ما ينفعه. لا تجعل هذه الدعوة مشروطة بأن يرد لك مثلها، ولا بأن يعرف أنك تذكرته. إن تيسر لك أن تعينه بما يحتاج فافعل. يبقى الدعاء بظهر الغيب بابًا قريبًا من الإخلاص: تحب لأخيك الخير، وتسأله من ربك، وتتركه دون مطالبة بالثناء.

الفصل ٦٨

محاسبة تعينك على العمل

قال تعالى:

> ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18].[80]

يدعونا الله إلى تقواه والنظر فيما نقدم للآخرة، ويذكرنا بعلمه بأعمالنا. هذه عناية تقود إلى إصلاح: طاعة نحافظ عليها، وذنب نتوب منه، وحق نؤديه. لا يكفي أن نعرف الخطأ ثم نكرر وصفه دون أن نحاول تغييره.

ابدأ من موقف معلوم، لا من حكم عام على نفسك. قلت كلمة مبالغًا فيها، أو تركت معروفًا لأن اسم غيرك سيظهر، أو أضعت أمانة. اسأل: ما الذي حدث؟ وما الذي يلزمني الآن؟ عندما تحدد الفعل، يصبح التصحيح أقرب. أما سؤال: هل أنا مخلص في كل حياتي؟ فلن يمنحك أحد عليه شهادة تطمئنك إلى الأبد.

---

80 **الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.**

تكتشف أنك حكيت عملًا بصورة توهم أن الفضل لك وحدك. أعد نسبته إلى أهله، وتعلم كيف تعرضه بإنصاف في المرة القادمة. وربما رأيت أنك أحسنت إلى شخص ثم آذيته بالمنّ؛ فتكف لسانك وتعتذر عما يقتضي الاعتذار. المحاسبة النافعة تخرج بك إلى فعل، لا تبقيك مع اسم العيب فقط.

وللمحاسبة جانب شكر. ربما وفقت إلى قول الحق في موضع كنت تضعف فيه، أو أعانك الله على كف كلمة جارحة، أو فرحت بخير لأخيك بعد مجاهدة. احمد الله، وواصل. لا تجعل شكر النعمة إعجابًا بنفسك، ولا تجعل الخوف من العجب يمنعك من رؤية فضل الله عليك والفرح بطاعته.

تعينك وقفة قصيرة في نهاية يوم، أو ملاحظة تكتبها، أو نصيحة تسمعها. ليست هناك مدة تلزم بها نفسك، ولا دفتر لا يصح الإصلاح إلا به. استخدم ما يعينك واترك ما يشغلك عن العمل. من يكثر التدوين ثم يؤخر الحق الذي عرفه، يحتاج إلى أن ينتقل من وصف المشكلة إلى حل ما يستطيع منها.

وفي كل مراجعة اسأل عن اختيارك أنت. قد يكون الآخر أساء، ولك حق في بيان ذلك، لكن لا تجعل محاسبة نفسك حديثًا طويلًا عن أخطائه وحده. هل رددت بكذب؟ هل ظلمت؟ هل جاوزت حقك؟ رؤيتك لما عليك لا تعني أن تنكر ما لك، بل أن تطلب حقك دون أن تضيف ظلمًا جديدًا.

ولا تنسب كل مشكلة إلى فساد النية. قد تتعثر لأنك لم تتعلم مهارة، أو لأن الوقت لم يكف، أو لأن ظروفًا خرجت عن قدرتك. راجع القصد والأسباب معًا. لا نعلم سرائر الناس من أرباحهم وخسائرهم، ولا نجعل نتيجة دنيوية دليلًا قاطعًا على القبول. تعلم من الخطأ العملي، واسأل الله حسن القصد والتوفيق.

ويفيدك أن تسأل أمينًا عن أمر يستطيع ملاحظته. اعرض عليه طريقة كلامك، أو خلافًا حدث، أو قرارًا التبس عليك. اسأله عن الصدق والعدل والحكم، لا أن يقطع بحقيقة قلبك. الناصح يعينك بما يعلم، وأنت تحفظ له حق أن يقول: لا أدري، فيما لا يملكه من علم بالسرائر أو بالوقائع.

ومن ثمرات المراجعة أن تقل المسافة بين معرفة الخطأ وتصحيحه. كنت تؤخر الاعتذار أيامًا، فتحاول أن تعجل به حين يتضح لك الحق. كنت تعد بما لا تقدر، فتتعلم أن تقدر طاقتك قبل الوعد. مثل هذا التغير أقرب إلى الإصلاح من ترديد عبارات قاسية عن النفس لا يتبعها فعل مختلف.

وأزل سببًا يتكرر معه الخطأ إن عرفته. إن كان حديث المقارنة يثير فيك الحسد، فقلل الاسترسال فيه. وإن كان التصوير يجرّك إلى إظهار ما لا حاجة إليه، فتأنَّ قبل النشر. وإن كنت تغضب سريعًا عند النصيحة، فاستمع حتى يتم صاحبها كلامه. هذه خطوات قابلة للفعل، تصحبها الاستعانة بالله.

وإذا أخطأت مرة أخرى، فراجع السبب من غير يأس ولا تبرير. لعل الخطوة كانت أكبر من قدرتك، أو أنك تركت ما كان يعينك، أو احتجت إلى علم إضافي. التوبة لا تنتظر أن تفهم كل تفاصيل نفسك، لكنها تدعوك إلى الصدق فيما تعرف. عد إلى العمل، ولا تجعل تكرر التعثر سببًا لإعلان أن الإصلاح مستحيل.

واحذر أن تتحول المراجعة إلى شك متصل بعد كل عبادة. ليس المطلوب أن تبحث عن الرياء في كل فرحة، ولا أن تعيد السؤال بعد وضوح جوابه. انظر في الخطأ المعلوم، وخذ بالحكم الذي تعلمت، ثم امض. إن زاد الاسترسال حتى عطلك، فاطلب العون المناسب، ولا تكلف نفسك ما يزيدها حيرة.

وبعد محاسبة نافعة، خذ ما تعلمت إلى اليوم التالي. رد الحق الذي عرفته، واترك الكلمة التي تؤذي، وحافظ على الخير الذي تيسر لك. ربما لم يكن التغيير كبيرًا في نظر الناس، لكنه تغيير في فعل تعيشه. لا تحتاج أن تخبرهم أنك راجعت نفسك؛ يكفي أن يتحسن ما يصل إليهم من قولك وعملك.

نسأل الله أن يرزقنا صدقًا نرى به عيوبنا، ورجاء لا نيأس معه من رحمته، وعزمًا نصلح به ما نستطيع. انظر فيما قدمت لغد، ثم قدم ما هو خير. اشكر على التوفيق، واستغفر من التقصير، وأقبل على طاعتك. المحاسبة تعينك على الحياة التي ترضي الله، ولا ينبغي أن تصبح بديلًا عنها.

الفصل ٦٩

نستغفر ونعود

تعرف خطأك، ثم تبقى أيامًا تبرره أو تلوم نفسك عليه، دون أن تبدأ التوبة. الذي تحتاج إليه أبسط وأصدق: أن تعترف به لربك، وتستغفره، وتترك ما تستطيع تركه من أسبابه، وتصلح ما بقي من أثره. لا تنفعك كثرة الكلام عن الندم إذا كنت تؤجل حقًا تقدر على أدائه أو ذنبًا تعرف كيف تكف عنه.

قال تعالى:

> ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].[81]

يذكرون الله حين يخطئون، فيطلبون المغفرة ويرجعون، ولا يقيمون على الذنب عن علم وإصرار.

81الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.

قال النبي ﷺ:

> «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». قال: «ومن قالها من النهار موقنًا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة».[82]

كلمات تجمع العبادة والاعتراف والرجاء، وتعلمنا كيف نقف بين يدي ربنا بصدق. والوعد الوارد متعلق بقولها موقنًا بها؛ فلا نحوله إلى ترديد مجرد عن معناها.

تقول: «أنت ربي»، فتقر له بالربوبية وبأنك عبده. وتقول: «لا إله إلا أنت»، فتخلص له العبادة. ثم تقر بحاجتك وضعفك وبما صنعت. ليس في الدعاء محاولة لتجميل الذنب، ولا تجاهل لنعمة الله. أنت تعرف أنه أنعم عليك، وتعرف أنك قصرت، وتسأله المغفرة. لا يتعارض الاعتراف بالأمرين، بل كلاهما حق.

82صحيح البخاري، كتاب الدعوات، حديث رقم 6306.

ومعنى «أبوء لك»: أقر وأعترف. أعترف بنعمتك علي، وأعترف بذنبي. ما أحوج النفس إلى هذا الصدق، خصوصًا حين يغلب عليها الدفاع عن صورتها. تستطيع أن ترى خيرًا وفقك الله إليه، وأن ترى خطأ يجب أن تتوب منه، دون أن تجعل الخير عذرًا للخطأ أو الخطأ سببًا لإنكار كل نعمة.

في طريق الإخلاص، يردك الاستغفار عن الإعجاب بعملك. إذا استكثرت ما صنعت ونسيت تقصيرك، ذكرك أنك محتاج إلى رحمة الله. وإذا تألمت من غياب الثناء، ذكرك أن أعظم ما ترجوه ليس كلمة من الناس، بل قبول ربك ومغفرته. لا يمحو هذا حقك المشروع، لكنه يعينك على ألا تجعل المديح غاية الطاعة.

وقد تكون التوبة من كلام أضرك وأضر غيرك: أخبرت بخيرك بطريقة أوهمت نقص من شاركك، أو نقلت خبرًا لتقلل من قدر منافس، أو بالغت في وعد. كف عن الخطأ، وصحح ما يلزم، ثم اسأل الله أن يعفو عنك. لا تجعل الاستغفار كلمة تريحك لحظة بينما تترك أثر الظلم قائمًا وأنت قادر على إصلاحه.

ومن حقوق الناس ما يحتاج إلى رد مال، أو تصحيح قول، أو طلب مسامحة. تختلف الوقائع، وقد يحتاج بيان بعضها إلى سؤال أهل العلم حتى لا تزيد الضرر. المقصود أن تصدق في أداء ما يلزمك، لا أن تجعل غموض مسألة حجة لترك الحقوق كلها. افعل ما اتضح، وتعلم حكم ما أشكل، وارجُ عون الله.

تخاف من الاعتذار لأن الناس اعتادوا أن يروك صاحب نصيحة. لكن معرفتك بالخير لا تمنع وقوع الخطأ، ولا تعطيك حق إخفائه عمن تضرر به. كن صادقًا بقدر الحاجة. قولك: أخطأت في هذا وسأصححه، أنفع من كلمات كثيرة تقنعهم أنك لم تخطئ، ثم تبقيك أسير الدفاع عن غير الحق.

ومع التوبة، خذ بسبب يمنع التكرار. قد تحتاج أن تتوقف لحظة قبل نشر خبر، أو أن تقلل الحديث عن إنجازاتك، أو أن تستشير قبل حكم غاضب. هذه أعمال يسيرة في صورتها، لكنها تحتاج إلى مداومة. الاستغفار يصحبها، ولا يغني عنها. نسأل الله الإصلاح، ثم نغير ما عرفنا أنه يجرنا إلى الخطأ.

ولا تجعل تكرر الذنب سببًا لتأخير توبة جديدة. إذا رجعت صادقًا ثم ضعفت، فعُد بصدق ولا تستسلم. احذر أن تخطط للذنب مستندًا إلى أنك ستستغفر بعده، واحذر أيضًا أن تقول إنك لم تعد أهلًا للرجوع. باب التوبة يدعوك إلى العمل الآن، لا إلى تسويف جديد باسم الرجاء أو اليأس.

وقد يلين قلبك عند الاستغفار، وقد تجد أنك تقوله مع حاجة إلى مزيد من حضور المعنى. اجتهد في فهم ما تقول، واطلب من الله أن يعينك. لا تتصنع بكاءً، ولا تجعل غيابه مانعًا من الدعاء. صدق الندم يظهر في ترك الذنب والعزم على الإصلاح، لا في صورة واحدة من صور التأثر يراها الناس.

علّم نفسك أن تعود بعد كل تقصير إلى ما ينفع. صل الصلاة الحاضرة، ورد الحق، وامنع اللسان عن المنّ، وافرح بخير لأخيك، واطلب العلم الذي تحتاجه. لا تقض ما بقي من يومك في محاكمة ما مضى وحده. التوبة تنظر إلى الخطأ لتخرجك منه، لا لتبقيك مع حكايته بلا نهاية.

ربنا، نعترف بنعمك وبتقصيرنا في شكرها، ونسألك أن تغفر لنا وتعيننا على طاعتك. اجعلنا إذا أحسنا شاكرين، وإذا أسأنا مستغفرين، وإذا نُصحنا قابلين للحق. لا نريد أن نحسن الكلام عن الرجوع فقط؛ نرجو أن نصدق فيه، وأن تكون أعمالنا أقرب إلى رضاك، وأن تموت نفوسنا على الإيمان بك.

الفصل ٧٠

قليل تدوم عليه

تقرأ ما يحثك على العبادة، فتريد أن تغير حياتك كلها في يوم واحد. تضع لنفسك أعمالًا كثيرة، ثم تعجز عن أكثرها، فتظن أنك لا تصلح للمداومة. ربما لم تكن المشكلة في أصل رغبتك، بل في حمل نفسك ما لا تستطيع الثبات عليه. ابدأ بما يجب عليك، ثم زد من النوافل ما يمكنك المحافظة عليه.

قال النبي ﷺ:

> «سددوا وقاربوا، واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل».[83]

نطلب الصواب ونجتهد فيه، ونرجو رحمة الله ولا نغتر بأعمالنا، ونحافظ على الخير ولو كان قليلًا. هذا لا يدعو إلى التفريط، بل إلى عبادة مستمرة على هدي، لا حماس ينقطع سريعًا.

83صحيح البخاري، كتاب الرقاق، حديث رقم 6464.

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه:

> «إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته».[84]

الفرائض أول ما نعتني به، ثم تأتي النوافل على وجهها المشروع. إذا كنت تؤخر صلاة عن وقتها بغير عذر، فإصلاح ذلك أولى من الإكثار من نافلة تعجبك. وإذا كان عليك حق لأهلك، فلا تضيعه لتصنع لنفسك برنامجًا ظاهرًا أو خفيًا تتحدث عن فضله.

بعد الواجبات، انظر إلى ما يتيسر لك. تلاوة تفهمها وتحافظ عليها، أو ذكر ثابت، أو صدقة تستطيعها، أو إحسان يتكرر. تعلّم الصفة المشروعة، ولا تجعل خطتك الخاصة تكليفًا دينيًا تلزم به غيرك. الناس تختلف قدراتهم وأوقاتهم، وما يصلح لك قد يحتاج غيرك إلى صورة أخرى منه دون أن يكون أقل صدقًا.

---

84 **صحيح البخاري، كتاب الرقاق، حديث رقم 6502.**

ويعينك ربط العمل بوقت يناسب يومك، من غير أن تعتقد لهذا الوقت فضلًا لم يثبت. تجد فرصة للقراءة بعد فراغك من شأن، أو تراجع أمانة في موعد معلوم حتى لا تنساها. هذا تنظيم مباح يعين على الوفاء. حافظ على مرونته عند الحاجة، مع بقاء العبادات التي لها أوقات وأحكام على ما شرع الله.

والمداومة تحتاج إلى عناية بالقصد أيضًا. قد تبدأ لله، ثم يصبح همك ألا يقال إنك تراجعت عن صورتك السابقة. جدد نيتك، واطلب ما عند الله. تستطيع أن تستفيد من تشجيع الآخرين، لكن لا تجعل استمرارك مشروطًا بإعجابهم. ابق على الخير الذي علمت نفعه، حتى حين يهدأ الحديث عنه ويصبح جزءًا عاديًا من أيامك.

إذا فاتتك نافلة، فتعلم حكمها وما يشرع فيها، ثم عُد إلى الخير. لا تجعل الفوات الواحد نهاية ما كنت تحافظ عليه. بعض الناس إذا لم يكمل ما رتب له، ترك بقية العمل، كأن النفع لا يكون إلا في صورة كاملة. خذ بما تستطيع على وجهه، وتذكر أن الرجوع السريع أنفع من لوم طويل يعطل ما بقي.

وتتغير ظروفك: ترعى مريضًا، أو يكثر عملك، أو تمر بسفر، فيختلف ما تقدر عليه من النوافل. عدل خطتك بما يلائم القدرة، واسأل عن الرخص والأحكام حين تحتاج. ليس كل اختلاف في كمية العمل تغيرًا في الإخلاص؛ فقد يكون الخير في حالك أن تؤدي خدمة واجبة، أو تحفظ ما تستطيع من عبادة مع التعب.

وقال النبي ﷺ:

> «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان».[85]

يجمع الحديث قوة الإيمان مع الحرص على النافع وطلب العون، ثم يعلمنا كيف نستقبل ما وقع بعد بذل السبب. لا يغني الدعاء عن الاجتهاد، ولا يغني الاجتهاد عن الدعاء، ولا يعني ترك «لو» منع التعلم من الخطأ؛ إنما يمنع الاعتراض والتحسر الذي يفتح باب الوسواس بعد وقوع المقدور.

ومن أسباب الثبات ألا تحمل نفسك مقارنة متصلة بغيرك. قد ترى من يقرأ أكثر أو يتصدق أكثر، فتنتفع باجتهاده، لكن لا تنس ما عليك من واجبات وما لك من قدرة. لا تتخذ المقارنة سببًا لليأس أو للتكلف. اسأل عن العمل الأنفع في حالك، وعن التقصير الذي تستطيع إصلاحه، وازدد من الخير بقدر استطاعتك.

---

85 **صحيح مسلم، كتاب القدر، حديث رقم 2664.**

ويعينك على الاستمرار صاحب يذكرك برفق. لا يحتاج أن يعرف كل سريرتك، ولا أن يتابع أعداد عبادتك. قد يكفي أن تصحبا بعضكما على الخير، وأن تسأل عما تحتاج إليه من علم، وأن تقبل النصيحة. الصحبة الصالحة عون على عبادة الله، لا محكمة تمنح القلوب درجات ولا سببًا جديدًا للمراءاة.

ومع مرور الوقت، انظر إلى أثر ما تتعلمه في المعاملة. هل صرت أصدق في الوعد؟ هل تقل المنّة في كلامك؟ هل تقبل التصحيح أسرع؟ هذه أسئلة عملية تعين على المراجعة، ولا تعطي شهادة قطعية على الباطن. قد تحسن في جانب وتحتاج إلى إصلاح جانب آخر؛ اشكر على التوفيق، وواصل معالجة ما بقي.

ولا تنتظر أن تصل إلى يوم تقول فيه إنك فرغت من إصلاح النية. قال تعالى:

> ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].[86]

اليقين هنا الموت. تمتد العبادة ما دامت الحياة، وتمتد معها حاجتنا إلى الصدق والتوبة والاستعانة. كلما جددت عملًا، فاسأل الله أن يكون صالحًا مقبولًا، ولا تغتر بما مضى.

86الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.

اختر اليوم خيرًا مشروعًا تستطيع المداومة عليه، بعد أداء ما وجب. ابدأ به دون ضجيج، وتعلم ما تحتاج إليه، وارجع إن تعثرت. لا تستقل القليل الصادق، ولا تجعل محبة الكثير سببًا لترك الممكن. نسأل الله لنا ولك ثباتًا على طاعته، وإخلاصًا يتجدد معها، وحسن ختام نرجوه من فضله.

الفصل ٧١

الإخلاص يصلح ما بعده

حين تحاول أن تعمل لله، تجد أنك تحتاج إلى أعمال أخرى في قلبك تعينك. تحتاج إلى صبر حين تشق الطاعة، وإلى رجاء حين ترى تقصيرك، وإلى خوف حين تميل إلى التساهل، وإلى شكر حين توفق. الإخلاص ليس معنى منعزلًا عن هذه الأعمال؛ يجتمع معها في عبادة الله، ويقوى بما يعين على صدق القصد والثبات.[87]

اليقين هو التصديق الجازم بما أخبر الله به. حين تثق بوعد ربك وجزائه، يعينك ذلك على ألا تجعل ثناء الناس هو المكافأة التي تعمل لأجلها. قد ينسون معروفك، لكنك ترجو أجر الله. لا تحتاج إلى إنكار ألم الجفاء، بل إلى ألا يجعلك هذا الألم تترك الخير لمجرد غياب ما كنت تنتظره من تقدير.

ومحبة الله تحملك على طاعته وطلب رضاه. لا تعيش الإخلاص خوفًا من افتضاح الرياء وحده، بل تحب أن يكون عملك مقبولًا عند من أنعم عليك. قال تعالى:

87ابن تيمية، العبودية، ص44؛ ومجموع الفتاوى، 10/149.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].[88]

المحبة الصادقة تدعو إلى اتباع النبي ﷺ، لا إلى مخالفة هديه باسمها. وفي ختام الآية فتح لباب المغفرة والرحمة لمن صدق في الاتباع والرجوع.

وتظهر هذه المحبة في اختيار لا يراه الناس. كلمة تمنحك إعجابًا، لكن فيها كذبًا فتتركها؛ ومال يتيسر وليس حقك، فتمتنع عنه. ليس الامتناع مجرد خوف من عقوبة الناس؛ أنت تريد رضا ربك ولو لم يعرف أحد ما عرض لك. ومع هذا تبقى محتاجًا إلى الدعاء، فلا تنسب توفيقك إلى نفسك وحدها.

والخوف من الله يمنع الاستهانة بفساد القصد. من تذكر الوعيد في الرياء والظلم، كان أولى بأن يصحح ما علم من خطئه. لكن الخوف النافع لا يقطع رجاءه ولا يدعوه إلى ترك الطاعة. يخاف فيتوب، ويخاف فيصدق، ويخاف فيحفظ الحق. أما الخوف الذي يقعده عن كل خير، فيحتاج إلى علم يرده إلى الاعتدال.

88الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.

والرجاء يعيده إذا أذنب أو ضعف. يعرف أن باب التوبة مفتوح، فيرجع إلى ربه ويعمل. ليس الرجاء أن يقول إن نيته طيبة ثم يصر على ظلم يعرفه، بل أن يحسن الظن بالله وهو يأخذ بما أمره به. وقد يحتاج من استرسل في اليأس إلى تذكير بالرحمة، كما يحتاج الغافل إلى تذكير بالحساب.

وفي التوكل يعتمد القلب على الله مع فعل الأسباب المشروعة. تعلم إنسانًا، وتبذل ما ينفعه، ولا تملك أن تكون كل النتيجة كما تحب. تنصح، وتجتهد في الرفق والبيان، ثم تفوض أمرك إلى الله. هذا يعينك على ألا تجعل إعجاب الآخرين أو نجاحًا سريعًا شرطًا لصدق العمل، وعلى ألا تتخذ التوكل عذرًا لسوء الإعداد.

والصبر نحتاج إليه في أعمال لا تنتهي بمرة. تكرر خدمة والديك، وتضبط لسانك عند الخلاف، وتحافظ على أمانة. قد لا تجد مدحًا كل مرة، وقد تجد تعبًا. تحتسب وتطلب العون، وتؤدي ما تستطيع. الصبر لا يعني قبول كل ظلم، وإنما الثبات على ما يرضي الله في فعل الواجب وفي طلب الحق أيضًا.

ويصون الشكر القلب بعد التوفيق. إذا نجح لك عمل، تذكرت نعمة الله، وشكرت من أحسن إليك، ولم تتعال على من لم يتيسر له مثلك. ليس الشكر أن تنكر جهدك، بل أن تضعه مع ما سبق من عطاء وما صاحبه من معونة. تستطيع أن تفرح بالخير، وأن تبقى معه متواضعًا قابلًا للتعلم والتصحيح.

وأما التوبة فتعالج ما يقع من خلل في الطريق. قد تخلص اليوم ثم تجد غدًا رغبة في المحمدة، أو تنسى حقًا، أو تجرح أحدًا. لا تدافع عن الخطأ بحجة أنك صاحب خير، ولا تحكم على الخير كله بالضياع. تب مما عرفت، وأصلح أثره، وواصل الطاعة. صلاح القلب لا يعني أن نتوقف عن الحاجة إلى المغفرة.

وفي الرضا تسكن إلى حكم الله فيما يجري عليك مما لا تملكه، مع بقاء ما شرع لك من دفع الضرر وطلب العلاج والحق. لا نسمّي قبول المعصية رضا، ولا نلزم الحزين أن يتظاهر بأنه لا يتألم. الذي نرجوه أن يحفظ إيمانه، ويؤدي ما عليه، ولا يحمله الألم على ظلم أو قول لا يرضاه الله.

وتظهر هذه المعاني مجتمعة في موقف قريب. أساء إليك شخص، فصبرت عن العدوان، ورجوت مغفرة الله، وعفوت حيث كان العفو أصلح، وطلبت حقك بصدق حيث احتجت إليه. أو وفقك الله لعمل، فأخلصت، وشكرت، وخفت أن يدخله العجب، ودعوت بالقبول. لا تحتاج أن تسمي كل معنى وأنت تعيشه؛ تحتاج أن تعمل بما يهديك إليه.

ويقوى جانب ويبقى آخر محتاجًا إلى عناية. تحسن الصدقة، ويشق عليك العفو؛ أو تحب العلم، وتجد في قبول النصيحة صعوبة. اعرف ما أعانك الله عليه وما بقي يحتاج إلى إصلاح، ولا تتعجل الحكم بالكمال أو بالفشل. تربية النفس عمل يتجدد، وفي كل يوم فرص للصدق والرجوع والزيادة من الخير.

نريد قلبًا يحب الله ويخلص له، وإنسانًا تظهر هذه العبودية في قوله وعمله. يصدق، ويرحم، ويؤدي الأمانة، ويتعلم، ويتوب. لا يخلو من ضعف، لكنه لا يرضى أن يقيم على ما عرف أنه خطأ. نسأل الله أن يصلح أعمال قلوبنا كلها، وأن يعين بعضها بعضًا على طاعته، وأن يكون ما نبذله ابتغاء وجهه وحده.

الفصل ٧٢

لله وحده

يبدأ إصلاحك بكلمة لا يسمعها أحد: يا رب، أريد أن أصدق معك. ثم يَظهر صدقها في عمل قريب: صلاة تحافظ عليها، أو أمانة تؤديها، أو مبالغة تتركها، أو معروف لا تشترط عليه الشكر. ليست البداية دائمًا كبيرة في نظر الناس؛ يكفي أن تختار ما عرفت أنه يرضي الله.

قال تعالى:

> ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].[89]

نعبد الله مخلصين له، ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة؛ فلا نجعل صلاح القلب بديلًا من أداء الواجبات، ولا نجعل كثرة الأعمال بديلًا من صلاح القصد. نريد عملًا صحيحًا وقلبًا يبتغي به رضا ربه، ونسأله أن يعيننا على ما ينقصنا ويتقبل ما وفقنا إليه.

89الآيات من القرآن الكريم برواية حفص؛ وتراجع مواضعها في تفسير ابن كثير والتفسير الميسر.

ستعود إلى حياتك المعتادة: البيت والعمل والناس، وما فيها من راحة وتعب. لا تحتاج أن تتبدل الظروف حتى تبدأ. اصدق في وعد، وأنصف من خالفك، وارفق بمن يحتاجك، وأدِّ عملك دون مبالغة في وصفه. في هذه التفاصيل العادية ميدان واسع للإخلاص، وإن لم تستوقف أحدًا.

حين تساعد إنسانًا، قدّم حاجته على رغبتك في أن يعرف الناس إحسانك. أعطه ما ينفعه، واحفظ كرامته، ولا تمنّ عليه بما قدمت. إن شكرك فافرح من غير تعلق، وإن نسي فجاهد نفسك. لا تجعل المعروف دينًا من المديح تطالبه به كلما لقيته؛ إن أردت به وجه الله، فارجُ عنده الجزاء.

وفي العمل مع غيرك، افرح بما تحقق من خير وإن لم تكن وحدك صاحب الفضل. انسب الجهد إلى أهله، وتعلم ممن أحسن، وتراجع عن قرار تبين أن غيره أنفع. لا تجعل اسمك أكبر من المقصد الذي تعاونتم عليه، ولا تشترط أن يبدأ كل خير بك.

وإذا أتاك المدح، فاشكر من أحسن الظن، وتذكر ما تعلمه من نقصك. لا تنكر كل خير فيك، ولا تصدق كل وصف يقال لك. خذ من الثناء تشجيعًا لا غاية، ومن النصيحة عونًا لا إهانة. وما تحتاج إليه بعد النجاح أن تصدق في العمل الآتي، لا أن تعيش على ما مضى من كلام.

وإذا غفل الناس عن جهدك، فتذكر أن علم الله لا يغيب عنه ما فعلت. اطلب حقك بصدق، ولا تجعل الغضب من غياب التقدير يقودك إلى ظلم أو كذب. أن تتألم ثم تختار العدل، أو ترغب في الانسحاب ثم تستمر في خير يحتاج إليك: تلك مجاهدة نرجو بها رضا الله، لا ادعاء بأننا لا نتأثر.

وإذا عرفت ذنبًا، فلا تؤخر الرجوع. تب إلى الله، وأصلح ما استطعت من أثره، وخذ بالأسباب التي تعينك على تركه. لا تدافع عن الخطأ لأن الاعتراف به يغير صورتك، ولا تيأس لأنك سبق أن ضعفت. ما بقي من عمرك ميدان لخير جديد؛ فلا تجعله كله حكاية عن تقصير مضى.

وليكن لك من العبادة ما تحفظ به خلوة صادقة بربك: دعاء، أو ذكر، أو قراءة، أو صلاة مشروعة، أو صدقة لا يحتاج أحد إلى معرفة اسم صاحبها. لا تجعلها قصة تنتظر أن يكتشفها الناس، ولا تضيع بها واجبًا. افعل ما ينفعك، واسأل الله القبول، ثم امض إلى حقوق أهلك ومن حولك بقلب يرجو الخير لهم.

ومن حق الناس علينا ألا نحكم على قلوبهم بغير علم. لا تجعل معرفتك بالرياء سببًا لاتهام كل من ظهر منه عمل، ولا تجعل حبك لشخص شهادة لا تحتمل الخطأ. انصح فيما تعرف، وانصف في الحكم، ودع ما خفي لربه. أولى القلوب بعنايتك قلبك، وأولى الأعمال بإصلاحك ما كُلِّفت أنت به.

وإن رغبت في أن يتغير المجتمع إلى خير، فابدأ بمن يصل إليهم أثر معاملتك: علّم ابنك بالرفق، واشكر العامل، واحفظ حق الشريك، واصدق مع صديقك. لا تعظ الناس بالإخلاص ثم تطلب منهم أن يخدموا صورتك. يصدق المعنى حين تجتمع تربية القلب والعدل والرحمة في التعامل اليومي.

وإن وجدت الطريق شاقًا، فسل الله العون ولا تحمل نفسك دعوى القوة الدائمة. تعلم ممن تثق بعلمه ودينه، واستعن بمن ينصحك برحمة، وابدأ بما يمكنك فعله. ليست العبرة بكثرة ما تتخيل أنك ستفعله يومًا، بل بصدق ما تبدأ به وتثبُت عليه. ومن فاتته طاعة فلا يترك ما بقي له من أبواب الخير.

لله وحده نرجو أن تكون الصلاة والصدقة والعلم والنصيحة، وكل ما نتقرب به إليه. نحبه، ونرجو رحمته، ونخاف أن نفسد أعمالنا بما نهى عنه. لا نزعم لأنفسنا سلامة كاملة؛ نسأله إصلاحًا لا نتوقف عن طلبه، وقبولًا لا نستغني عنه، ومغفرة تمحو ما فرط منا.

ربنا، أصلح قلوبنا وأعمالنا. اغفر لنا ما أسررنا وما أعلنا، وأعنّا على الصدق حين تشق كلفته، وعلى العدل حين تخالفه رغبتنا، وعلى الرحمة حين يغلبنا الغضب. واجعل ما بقي من أعمارنا في طاعتك، وارزقنا الإخلاص والقبول، وثبتنا على الإيمان حتى نلقاك. لك نعمل، وبك نستعين، وإليك نتوب؛ لله وحده.

فصل عملي

كيف ندرّب أنفسنا على الإخلاص؟

هذا برنامج تطبيقي من ثلاثين يومًا، لا مقياس لقبول العمل ولا حكم على ما في القلوب. غايته أن يدرّب القارئ على ملاحظة قصده، وتصحيح ما يقدر عليه، وربط العبادة بالعدل والرحمة والأمانة. نحتاج أن نعمل لله، وأن يكون عملنا مشروعًا، وأن نصون حقوق الناس. لا يطلب البرنامج تفتيشًا متكررًا في النيات، ولا ترك العمل خوفًا من الرياء، ولا الحكم على الآخرين.

خصص لكل يوم وقتًا قصيرًا: قراءة الصفحة، وتنفيذ خطوة واحدة، ثم تدوين جواب موجز. ليس المطلوب إتقان جميع التمارين؛ إذا فاتك يوم فارجع إلى اليوم التالي ولا تعاقب نفسك. لا تدخل في هذا الجدول مسألة فقهية أو علاجية خاصة بغير سؤال أهل الاختصاص. النصوص الشرعية التي سبق شرحها في أبواب الكتاب هي أصول التذكير؛ وهذه التمارين اقتراحات تربوية من صياغة مدارج وليست نصوصًا مأثورة.

سجل المتابعة اليومي: أضع علامة أمام (أديت الواجب/حفظت حقًا/راجعت قصدي/أصلحت أثرًا). ثم أكتب: ما الموقف؟ ما اختياري؟ ما الخطوة التالية؟ لا تمنح نفسك درجة على صفاء السريرة؛ قيّم أفعالًا يمكن ملاحظتها.

كل يوم تدريبي يبدأ في صفحة مستقلة عند الإخراج؛ راجع الصفحات بعد إدخالها في قالب الكتاب حتى لا ينقسم تمرين واحد بين صفحتين، ولتأكيد أن الفصل لا يقل عن ثلاثين صفحة فعلية.

اليوم ٠١: ألاحظ نيتي قبل الحكم عليها

وجهة اليوم: نبدأ بالملاحظة الهادئة، لا بمحاكمة القلب ولا بادعاء صفائه.

التطبيق: اختر عملاً معتادًا ستفعله اليوم، مثل أداء مهمة أو إعانة أحد. قبل أن تبدأ، اكتب في سطر: ما الذي أرجوه من هذا العمل؟ سمِّ الدافع الأقرب كما هو، ولو اجتمع فيه نفع الناس ورجاء الثواب وحب التقدير. لا تحذف الدوافع المختلطة من الورقة.

المتابعة: بعد العمل دوّن ما طرأ على نيتك، وما فعلته حين انتبهت إليه. لا تحكم بقبول العمل أو رده؛ سجّل ما ستصلحه غدًا.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٠٢: أفصل بين الشعور والاختيار

وجهة اليوم: الفرح بالثناء شعور بشري، أما جعل الثناء غاية العمل فاختيار يحتاج إصلاحًا.

التطبيق: استرجع موقفًا قريبًا فرحت فيه بمدح، أو حزنت فيه لأن جهدك لم يُذكر. اكتب الشعور بلا تهويل، ثم حدّد الفعل الذي اخترته بعده: هل واصلت النفع؟ هل بالغت في عرض عملك؟ هل منعت معروفًا؟

المتابعة: اختر اليوم خيرًا واحدًا تفعله دون انتظار ردّ. إذا ذُكر اسمك فاشكر ولا تطلب مزيدًا؛ وإذا لم يُذكر فاحفظ حقك بصدق دون أن تجعل المستفيد يدفع ثمن جفاء الآخرين.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٠٣: أختار عملًا خفيًا نافعًا

وجهة اليوم: العمل الخفي تدريب على تحرير القلب من طلب نظر الناس، وليس ميزانًا نحكم به على نيات غيرنا.

التطبيق: اقض حاجة صغيرة لا تتطلب أن تعلنها: ترتيب أمر لأهلك، أو دعاء صادق، أو إعانة تحفظ كرامة محتاج. لا تترك واجبًا ظاهرًا حتى تصنع سرًّا، ولا تكتم أمرًا يحتاج إلى توثيق أو تنسيق.

المتابعة: في نهاية اليوم، اكتب ما جعل العمل نافعًا ومنضبطًا، وما الذي أغراك بإخبار الناس. إن احتجت إلى مشاركة التجربة للتعليم فافصل ذلك عن طلب الثناء، وفكّر هل يمكن إيصال الفائدة دون جعل نفسك محور القصة.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٠٤: أقدّم الفريضة والحق

وجهة اليوم: لا يكون التدريب على الإخلاص ذريعة لترك واجب، أو تأخير حق، أو الانشغال بنافلة عن مسؤولية.

التطبيق: راجع جدول اليوم وحدّد واجبًا لله وحقًا لعبد قد يزاحمهما نشاط تحبه أو عمل تطوعي. رتّب ساعاتك بحيث تؤدي الأصل أولًا، ثم اترك وقتًا للنافلة الممكنة. إذا تعارضت مواعيدك، تواصل مبكرًا ولا تعد بما لا تقدر عليه.

المتابعة: سجّل أين أحسنت ترتيب الأولويات، وأين طلبت صورة المتعبد أو المحسن على حساب حق قريب. غدًا أصلح الخلل بموعد واضح أو اعتذار صادق، لا بتأنيب طويل لا يرد الحق.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٠٥: أتهيأ حين يطّلع عليّ الناس

وجهة اليوم: العمل العام قد يحتاجه الناس؛ المقصود أن نصون غرضه ونؤديه بأمانة، لا أن نهرب من كل ظهور.

التطبيق: قم بمهمة ظاهرة لازمة اليوم. قبلها حدّد حاجتها ومن ينتفع بها، وبعدها راجع هل بالغت في تزيين صورتك أو استعملت النشر لتسويق ذاتك. إذا كان التوثيق لازمًا للعمل، فاكتب القدر الذي يثبت الإنجاز ويحفظ الحقوق.

المتابعة: اكتب جملة واحدة تشرح الفرق في موقفك بين إظهار العمل لمصلحة معتبرة وبين طلب المنزلة. إن لم تستطع الجزم، اسأل شخصًا أمينًا عن أثر النشر وسياقه، ولا تتهم نفسك أو غيرك بغير بيّنة.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٠٦: أستقبل المدح بلا اغترار

وجهة اليوم: نستفيد من الكلمة الطيبة دون أن نجعلها غاية، ونشكر صاحبها دون إنكار فضل الله أو ادعاء الكمال.

التطبيق: إذا أثنى عليك أحد اليوم، أجب بأدب واختصار. سمِّ في قلبك نعمة الله، وتذكّر عملًا واحدًا ما زال يحتاج إلى تعلم أو إصلاح. لا تردّ المديح بإهانة نفسك، ولا تسرد قائمة إنجازات تثبت أنك تستحقه.

المتابعة: دوّن أثر الثناء عليك: أزادك نشاطًا؟ حملك إلى مقارنة؟ دفعك إلى تكرار الكلام عن نفسك؟ خذ الجزء النافع منه، واترك المبالغة، ثم انتقل إلى المهمة التالية دون استعادة المشهد طلبًا للذة.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٠٧: مراجعة الأسبوع الأول

وجهة اليوم: التقويم وصف لما وقع، لا حكم على باطنك. إن تعذّر يوم فلا تمحُ بقية الأسبوع ولا تعاقب نفسك بحرمان الخير.

التطبيق: اقرأ ملاحظات الأيام الستة، واستخرج موقفًا واحدًا أحسنت فيه الفصل بين طلب الحق وطلب المدح، وموقفًا واحدًا اندفعت فيه. اكتب ما سبق الاندفاع: إرهاق، مقارنة، خوف من النسيان، أم توقع مكافأة؟

المتابعة: ضع إجراءً صغيرًا للأسبوع المقبل، مثل إغلاق تطبيق بعد نشر خبر خدمة، أو تأخير الحديث عن إنجاز حتى تُنجز حقًا متصلًا به. قِس نجاح الخطة بوضوح الخطوة والقدرة على عودتك، لا بغياب المشاعر.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٠٨: أخدم دون منّة

وجهة اليوم: الإحسان لا يمنح صاحبه حق إذلال من أعانه. حفظ كرامة المستفيد جزء من جودة العمل.

التطبيق: ساعد شخصًا في حاجة معلومة، واسأله عمّا ينفعه بدل أن تفرض عليه نوع المساعدة الذي يمدحك الناس عليه. احفظ خصوصيته، ولا تصوّر وجهه أو قصته بلا إذن. إذا احتجت مشاركة الإنجاز لإشراك داعمين، فاستأذن وقدّم الحاجة لا مشهد ضعف صاحبها.

المتابعة: بعدها دوّن: هل وافقت مساعدتك طلبه؟ هل شعرت برغبة في التذكير بما قدمت؟ ضع حدًا عمليًا يمنع المنّة، مثل عدم فتح سجل المعروف عند الخلاف، وطلب المشورة إذا كان ترتيب العون المالي أو النظامي يحتاج إلى ضبط.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٠٩: أعطي دون كشف المستور

وجهة اليوم: السرية ليست دائمًا فضيلة مطلقة؛ قد يلزم البيان لحفظ حق أو تحقيق شفافية. نتعلم اختيار القدر المناسب من الكشف.

التطبيق: اختر نفقة أو خدمة تستطيع تقديمها بستر، مع مراعاة التوثيق المشروع والحقوق المشتركة. لا تخفِ مالًا ليس لك، ولا تُسقط مستندًا يحتاجه شريك أو جهة. امنح المستفيد طريقًا آمنًا لطلب المساعدة لاحقًا من غير إحراج علني.

المتابعة: اسأل: ما الذي كان يلزم معرفته؟ من الذي كان يحتاج إليه؟ ما الذي لا حاجة لنشره؟ دوّن قرارك، وإذا بقي احتمال ضرر أو التباس فاستفسر ممن يملك الاختصاص قبل التصرف.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ١٠: أخلص في البيت والعمل القريب

وجهة اليوم: تظهر النية في الأعمال التي لا تُعرض عادةً: متابعة موعد، إنجاز مهمة منزلية، أو أداء وعد صغير.

التطبيق: اختر عمل رعاية أو خدمة في البيت، أو التزامًا مهنيًا غير لافت. ابدأه في موعده وأتمّه بقدر الجودة المتفق عليها. لا تنتظر أن يلاحظ أحد أنك فعلته. إذا كان تقسيم المسؤولية ملتبسًا فاطلب التفاهم بدل تحويل الصمت إلى منّة.

المتابعة: سجّل أثر إكمالك للعمل على من حولك، ثم راجع هل رغبت في تعييرهم به. إن شعرت بالإرهاق فاطلب تنظيمًا عادلًا وتقاسمًا للمسؤولية؛ فالإخلاص لا يعني قبول الاستغلال أو إخفاء حاجة حقيقية.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ١١: أجود عملي ولو غاب التصفيق

وجهة اليوم: طلب الإتقان يراعي الأمانة ونفع المتلقي، ولا يستند إلى الحاجة للثناء.

التطبيق: نفّذ اليوم مهمة قد لا يراها إلا من يعتمد عليها. اكتب معيار الجودة قبل البدء: صحة المعلومة، وضوح الرسالة، تسليم في وقته، أو مراجعة رقم. افحص النتيجة مرة واحدة وفق المعيار، ولا تستمر في تحسين لا حاجة له كي تثبت تفوقك.

المتابعة: اسأل المتلقي إن كان قد حصل على ما يحتاجه، لا إن كان معجبًا بك. وثّق النقص، واصلحه، وانسب جهد المشاركين إلى أصحابه. دوّن الفرق بين إتقان يخدم الأمانة وبين استنزاف يبحث عن صورة كاملة.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ١٢: أقبل النصيحة وأصحح

وجهة اليوم: رفض التصحيح لحماية السمعة يفسد العمل، كما أن قبول كل اتهام دون تثبت ليس عدلًا.

التطبيق: اطلب من شخص موثوق ملاحظة محددة على عملك أو تعاملك. استمع حتى النهاية، وأعد صياغة ما فهمت قبل الرد. افصل بين نبرة قد تزعجك وبين مضمون قد ينفعك، ثم تحقق من الوقائع ذات الصلة.

المتابعة: اختر تعديلًا واحدًا قابلًا للملاحظة ونفّذه اليوم، أو وضح بهدوء ما يحتاج إلى دليل. لا تستخدم الاعتذار العام لتجنب إصلاح الضرر؛ سمِّ الفعل الذي ستغيّره والموعد الذي ستراجعه فيه.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ١٣: أشارك الفضل بإنصاف

وجهة اليوم: المقصد المشترك أكبر من رغبة الفرد في احتكار صورته. الاعتراف بجهد الآخرين عدل وتواضع عملي.

التطبيق: في عمل جماعي قائم، اذكر مساهمة من ساعدك حين يكون ذكرها مناسبًا، ولا تنسب إلى نفسك قرارًا أو إنتاجًا لم تقم به. إذا أسقطت اسمًا سهوًا فأصلح النسبة في السياق نفسه. لا تمحُ جهدك الحقيقي توهمًا أن الإخلاص يقتضي صمتًا دائمًا.

المتابعة: اكتب أسماء من سهّلوا الإنجاز وما الذي صنعوه تحديدًا. راجع هل أعطيت الفضل لصاحبه وهل وثّقت مسؤوليتك بقدر الحاجة. التدريب هنا ليس التنازل عن حقك، بل أداء حق الآخرين مع طلب حقك بعبارة صادقة.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ١٤: أصدق حين يشق الصدق

وجهة اليوم: الإخلاص لا يبرر قولًا كاذبًا لصناعة صورة صالحة، ولا كشفًا جارحًا بلا حاجة. نتحرى الصدق والعدل معًا.

التطبيق: واجه موقفًا صغيرًا يحتاج إلى إقرار: خطأ في موعد، أو تأخر في إنجاز، أو معلومة لم تتحقق منها. اذكر الحقيقة بوضوح، وبيّن ما تستطيع إصلاحه. لا تضف أعذارًا مختلقة، ولا تفضح سرًا لا يتعلق بالمشكلة.

المتابعة: دوّن ما خفت خسارته حين صدقت، وما الذي حفظته من الحقوق. إذا كان التصرف ذا تبعات مهنية أو شرعية خاصة، فاسأل المختص عن الإجراء قبل أن تخلط الاعتذار بإسقاط حق طرف آخر.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ١٥: أعترف بالتقصير وأصلح أثره

وجهة اليوم: المحاسبة النافعة تتصل بتوبة أو إصلاح، لا بتكرار لوم الذات الذي يعطل العمل.

التطبيق: اختر تقصيرًا واضحًا وقع منك هذا الأسبوع. اكتب من تضرر، وما الضرر القابل للإصلاح، وما الذي يعين على ألا يتكرر. اعتذر لمن له حق إذا كان الاعتذار مناسبًا، وردّ ما يجب رده، واطلب عونًا عند الحاجة.

المتابعة: استخرج سببًا واحدًا للخلل، لا قائمة اتهامات لشخصيتك. غيّر خطوة في البيئة أو الجدول، ثم ضع موعد تحقق. لا تحكم بأن كل خير سابق باطل بسبب خطأ عرفت طريق إصلاحه.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ١٦: أقاوم المقارنة

وجهة اليوم: المقارنة المتواصلة تسرق مقصد العمل وتدفع إلى تقليد لا يناسب القدرة أو الحاجة.

التطبيق: لاحظ حسابًا أو مجلسًا يثير فيك سباق عرض العبادات أو العطايا. خفّف متابعته يومًا، واختر عملًا يلائم واجبك أنت. لا تحكم على صاحب الحساب؛ أنت تعالج أثرًا في قلبك. إذا وجدت في المنشور فائدة فخذها دون قياس منزلتك بمنزلة صاحبه.

المتابعة: اكتب ما تحتاجه فعلًا، وما كان مجرد رغبة في الظهور بالمستوى نفسه. ضع حدًا للاستهلاك الرقمي، واستبدل به عملًا هادئًا أو تعلمًا موثقًا، ثم راجع أثر التغيير بعد أسبوع.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ١٧: أستعين بالله قبل العمل

وجهة اليوم: النية ليست ادعاءً يكفي وحده؛ نستعين بالله ونسلك أسباب العمل الصحيح.

التطبيق: قبل مهمة خير أو عبادة معتادة، قف لحظة لدعاء يناسب حاجتك، ثم حدّد أول خطوة عملية. لا تجعل الدعاء بديلًا من التعلم أو التنظيم. إن احتجت سؤالًا شرعيًا فاسأل جهة مؤهلة، وإن احتجت مهارة فتعلمها.

المتابعة: بعد الإنجاز، اكتب أي سبب أعانك: وقت مناسب، رفيق صالح، خطة، أو إزالة مشتت. اشكر الله على التيسير، ولا تنسب النتيجة لنفسك وحدها، ولا تُهمِل نصيب الأشخاص الذين بذلوا جهدًا.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ١٨: أرفق بمن أساعد

وجهة اليوم: الرغبة في فعل الخير قد تختلط بالاستعجال أو التحكم. نراجع طريقة المعاملة مع أصل النفع.

التطبيق: في موقف خدمة، أعط الآخر وقتًا ليشرح حاجته، واستأذنه قبل ترتيب شأنه أو تداول معلوماته. خفف اللغة الآمرة، ولا تحول ضعفه إلى درس علني. إذا لم يكن بوسعك المساعدة فاعتذر بصدق أو دلّه على سبيل موثوق تعرفه.

المتابعة: اسأل نفسك: هل شعر من أمامي أنه صاحب قرار وكرامة؟ ما الكلمة التي كان يمكن أن تكون أرفق؟ أصلح ما أسأت به اليوم إن أمكن، وتعلم حدًّا يحفظ سلامة العون.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ١٩: أؤدي الأمانة في التفاصيل

وجهة اليوم: قد يفسد طلب السمعة ما لم ننتبه إليه من دقة وأمانة: رقم، اقتباس، نسبة، أو وقت.

التطبيق: اختر مادة ستشاركها أو مهمة ستسلّمها. تحقق من اسم المصدر والتاريخ والمعلومة قبل نشرها، وميّز نقل النص عن شرحك. لا تنسب كلامًا إلى صاحبه من الذاكرة إن تيسر التثبت. وإذا كانت هناك روابط إلكترونية فضعها في قائمة المصادر المخصصة لا في الحاشية، وفق قاعدة هذا المشروع.

المتابعة: دوّن ما تحققت منه وما بقي غير يقيني. صحح الخطأ في المكان الذي وصل إليه، ولا تخفِ التصحيح حفاظًا على الصورة. إن كان التصويب يحتاج معرفة متخصصة، علّق الحكم إلى أن يتحقق.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٢٠: أحمي عملي من الاستحواذ

وجهة اليوم: التعاون يختبر صدقنا حين لا يكون اسمنا في مقدمة العمل. ونحمي الحقوق بتوثيق واضح لا باتهام النيات.

التطبيق: شارك في مهمة مع آخرين، واتفقوا على المسؤوليات والملكية وطريقة نشر النتيجة. اعترف بمن أدى العمل، واطلب توثيق مساهمتك عند الحاجة بأدب. إذا وقع نزاع فاجمع الوقائع والرسائل المتصلة به واستعن بمن يحكم بالعدل.

المتابعة: سجّل قرارًا واحدًا أنصف الفريق وحفظ حقك. لا تقبل سرقة جهدك باسم التواضع، ولا تنتقم بحرمان المستفيد من عمل مشترك. العدل في نسبة العمل من ثمرات صلاح القصد.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٢١: أثبت عند تعطل الخطة

وجهة اليوم: الإخلاص يُمتحن حين لا يظهر أثر العمل سريعًا؛ لكن المثابرة تحتاج تقدير القدرة والظروف.

التطبيق: اختر عادة نافعة أو خدمة لم تثمر كما توقعت. اكتب النتيجة الواقعية، وحدّد هل الخلل في الوسيلة أو الوقت أو توقعاتك. اسأل مستفيدًا واحدًا عما نفعه بدل اتخاذ رد فعله كله مقياسًا. عدّل خطوة صغيرة، وحدد مدة مناسبة للتجربة.

المتابعة: إن تعذر الاستمرار لمرض أو مسؤولية، رتّب بديلًا واقعيًا ولا تصف العذر بالرياء. وإذا ظهر أن العمل غير مناسب فأوقفه بوضوح، واحفظ ما تعلمته، وانتقل لما هو أنفع دون إعلان بطولة.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٢٢: أراجع ما أنشره عن الخير

وجهة اليوم: نشر المبادرة قد يجلب العون ويحفز الخير، وقد يعرّض كرامة الناس أو يطلب إعجابهم؛ نزن الحاجة قبل النشر.

التطبيق: قبل أي منشور اليوم، اسأل: من يحتاج هذه المعلومة؟ هل أملك إذنًا بالصور والأسماء؟ هل يمكن إيصال الفائدة بلا كشف المستفيد؟ هل أوضح المبلغ والعمل دون مبالغة؟ إن كان النشر غير لازم، أجّله يومًا وراقب الدافع.

المتابعة: اكتب قرار النشر وسببه. إذا نشرت، راجع الأثر: هل استُخدم المنشور لتعبئة دعم أو لبناء صورتك؟ يمكن أن يجتمع مقصدان؛ صحح المسار ولا تحكم على الآخرين من مشهد واحد.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٢٣: أسمع النقد دون انتقام

وجهة اليوم: حين يرتبط العمل بهويتنا يسهل أن نرى نقده هجومًا علينا. ندرّب القلب على التثبت والرد المنصف.

التطبيق: إذا وصلك نقد، لا ترد في ذروة الغضب. اكتب الاعتراض كما فهمته، واطلب مثالًا إن كان عامًا. تحقق مما يمكن التحقق منه. أقر بما صح، وبيّن بهدوء ما لم يصح، وابتعد عن السخرية أو التشهير.

المتابعة: سجل كيف كان شعورك قبل الرد وبعده. إن احتجت ردًا علنيًا فليقتصر على تصحيح معلومة أو حماية حق، لا الانتقام. وإن تبين خطؤك فصححه بالوضوح نفسه الذي عرضت به عملك.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٢٤: أتوب ولا أترك أبواب الخير

وجهة اليوم: الخوف من الرياء لا ينبغي أن يحبس المرء عن الطاعة أو الإصلاح. نعالج الدافع ونواصل العمل المشروع.

التطبيق: سمِّ خيرًا توقفت عنه خوفًا من نظر الناس، ثم ميّز: هل ظهرت علامة معتبرة أم هو مجرد وسواس وتردد؟ ارجع إلى العمل على وجه منضبط، واستعن بمن تثق بعلمه إذا تكرر الوسواس. لا تكرر النية أو العبادة قهرًا لمجرد طلب الاطمئنان.

المتابعة: اكتب فعلًا واحدًا ستعود إليه اليوم، وحدًا يوقف الفحص المتكرر. راقب الأداء مرة معقولة ثم امض. هذا التدريب لا يقدم فتوى عامة في أحكام خاصة؛ مسائل العبادات والوسواس لها صور يرجع فيها إلى أهل العلم والاختصاص.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٢٥: أرتاح دون أن أستعرض

وجهة اليوم: للجسد وأهلنا حقوق، والراحة المعينة على أداء الواجب ليست نقص إخلاص ولا بابًا للافتخار.

التطبيق: رتّب راحة مشروعة تكفيك: نومًا، أو مشيًا، أو وقتًا للأسرة. لا تعوض التعب بتعنيف نفسك، ولا تصنع من انشغالك برهان فضيلة. إذا زاد العبء فناقش توزيعه واطلب المساندة.

المتابعة: بعد الراحة، دوّن أثرها على رفقك وتركيزك. ما النشاط الذي ينبغي تقليله؟ ما الحق الذي يحتاج إلى حضورك؟ التوازن لا يقاس بعدد ساعات العمل، بل بأداء الحقوق والاستمرار بقدرة واقعية.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٢٦: أختار الاستمرار الممكن

وجهة اليوم: القليل الثابت خير للتربية من خطة مذهلة تنقطع بعد أيام؛ لا نطلب من أنفسنا برنامجًا فوق القدرة.

التطبيق: راجع العادات التي ثبتت خلال الأسابيع الماضية. اختر واحدة صغيرة لها وقت ومكان واضحان، واربطها بإشارة موجودة في يومك، مثل ما بعد صلاة أو بداية الدوام. جهّز ما يعينك، وأخبر من يحتاج أن يعرف بالخطة دون تحويلها إلى إعلان إنجاز.

المتابعة: سجّل الحد الأدنى الذي يمكنك أداءه في يوم مزدحم، والنسخة الكاملة حين تتيسر. احمِ العادة من التوسع؛ لا تضف عادة جديدة حتى تستقر الحالية مدة تكفي للحكم عليها.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٢٧: أضع خطة للعودة بعد التعثر

وجهة اليوم: الانتكاس الجزئي لا يمحو ما تعلمناه. نجاح الخطة يظهر في سرعة العودة وإصلاح السبب، لا في ادعاء عدم السقوط.

التطبيق: اكتب تعثرًا متوقعًا: نسيان، سفر، ضغط، خلاف. لكل احتمال عيّن خطوة عودة لا تتجاوز يومًا، وشخصًا تستشيره إذا احتجت. لا تصمم عقوبة مرهقة؛ صمم بديلًا واقعيًا يحفظ الواجب ويعيدك إلى عمل القلب.

المتابعة: ضع الخطة في مكان تراه عند الحاجة. إذا تكرر تعثر بعينه فغيّر البيئة أو الموعد بدل تكرار اللوم. وإذا ارتبط بسلوك مؤذٍ أو قهري فاطلب العون المناسب ولا تخفِ المشكلة خلف لغة الوعظ.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٢٨: يوم يجمع العمل والنية والحقوق

وجهة اليوم: نختبر اليوم قدرتنا على وصل قصد صالح بعمل صحيح وحق مصون، دون كثرة أهداف تشتتنا.

التطبيق: خطط لثلاثة أعمال فقط: واجب تؤديه، وحق لإنسان تحفظه، وعمل خير زائد تقدر عليه. اكتب لكل واحد لماذا تفعله وكيف ستنجزه. قدّم الواجبات، ثم راقب أثر ما بقي من وقتك. لا تضف هدفًا رابعًا لمجرد أن خطتك تبدو قليلة.

المتابعة: في المساء، قيّم جودة كل فعل، لا مظهره. إن تعارضت الأعمال فدوّن ترتيبك والسبب، وعدّل ما يلزم. اسأل من تأثر بالقرار إن كان حقه محفوظًا.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٢٩: أراجع ثلاثين يومًا بإنصاف

وجهة اليوم: التقييم الصادق يجمع الإنجاز والنقص، ولا يدّعي علمًا بقبول الله للأعمال. نلاحظ ما تغير في السلوك وما بقي.

التطبيق: قارن ورقة اليوم الأول بملاحظاتك الحالية. اختر موقفًا صار قرارك فيه أهدأ أو أعدل، وموقفًا ما زلت تنجذب فيه إلى المديح أو الانسحاب. اطلب رأيًا محددًا ممن عاش أثر التغيير معك، مع قبول أنه يرى الظاهر لا السرائر.

المتابعة: اكتب ثلاثة أمور تعلمتها، وعملًا واحدًا ستستمر فيه، وحقًا يحتاج إصلاحًا، وسؤالًا تحتاج عرضه على مختص. لا تستخدم الدرجة لتزكية نفسك أو تيئيسها؛ هي أداة تخطيط ومراجعة فقط.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

اليوم ٣٠: أثبت متابعة أسبوعية بعد البرنامج

وجهة اليوم: نهاية الجدول ليست نهاية المجاهدة. نحول ما نجح إلى ممارسة يسهل الرجوع إليها ونخفف التفتيش المفرط.

التطبيق: اختر موعدًا أسبوعيًا قصيرًا لمراجعة النية والعمل والحقوق، واجعل له ثلاثة أسئلة فقط: ما الخير الذي أستمر عليه؟ ما الأثر الذي أصلحه؟ من أحتاج أن أشكره أو أعتذر إليه؟ ضع الموعد في جدولك.

المتابعة: حدد شهرًا من الاستمرار قبل مراجعة الخطة من جديد. إذا تغيرت الظروف فكيّف العمل مع بقاء الواجبات، ولا تعتبر كل تعديل فشلًا. استعن بالله، وتعلم، وامض؛ القبول له، وعليك صدق السعي.

تدوين مختصر: الموقف الذي عملت فيه: _____ | الحق الذي حفظته: _____ | ما أصلحه غدًا: _____

مراجعة الأسبوع: اليوم السابع والرابع عشر والحادي والعشرون والثامن والعشرون

في كل مراجعة أسبوعية أعد قراءة ما كتبته، ثم اختر مثالًا واحدًا من كل جانب: عمل أديته، أثر نافع ظهر، وموضع يحتاج إصلاحًا. لا تحوّل الأرقام إلى شهادة تقوى. قيّم سلوكك بما يمكن رؤيته: هل التزمت بالوعد؟ هل حفظت خصوصية من ساعدته؟ هل صححت نسبة العمل؟ هل اعتذرت أو رددت حقًا؟

قيّم كل بند من صفر إلى اثنين: (0) لم أعمل به أو وقع مني ما يناقضه، (1) فعلت خطوة جزئية أو احتجت تذكيرًا، (2) أنجزت الفعل بقدر مناسب. البنود: أداء الواجب قبل النافلة؛ حفظ حقوق الخلق؛ صدق النسبة والتوثيق؛ قبول التصحيح؛ العودة بعد التعثر. المجموع ليس حكمًا على الإخلاص؛ إنه علامة تساعدك على اختيار تمرين الأسبوع التالي.

إذا انخفض المجموع، لا توسع الجدول ولا تزد العقوبة. اختر بندًا واحدًا، واكتب سببًا عمليًا للتحسن: وقت محدد، تقليل مشتت، اتفاق مع شريك، أو سؤال مختص. وإذا ارتفع، اشكر الله، واذكر من أعانك، ولا تترك المراجعة التي أثمرت.

بطاقة القياس الختامي والمتابعة بعد الثلاثين يومًا

أجب عن الأسئلة في اليوم الأول ثم أعدها في اليوم الثلاثين، بوصفها ملاحظات شخصية لا اختبارًا لصحة النيات: هل أستطيع تسمية دافعي قبل عمل معتاد؟ هل أفرّق بين حاجتي المشروعة إلى الاعتراف بالحق وبين تعلق قلبي بالمديح؟ هل أؤدي الواجبات قبل إضافة النوافل؟ هل أتحقق من المصدر قبل نقل النص؟ هل أصلح الخطأ بعد اكتشافه؟ هل أواصل الخير المشروع مع مقاومة وسواس الرياء؟

لكل سؤال اختر: (نادراً/أحياناً/غالباً)، ثم أرفق موقفًا واحدًا يدل على جوابك. لا تجعل ارتفاع الإجابات مديحًا لنفسك؛ اسأل عمن تأثر بعملك إن كان له ملاحظة، وتذكر أن التقييم لا يطلع على السريرة ولا يثبت القبول. استخرج عادة واحدة تستمر عليها أربعة أسابيع، وخطوة إصلاح واحدة، وموعد مراجعة أسبوعيًا لا يتجاوز عشر دقائق.

إذا تعثرت: أوقف اللوم، وعيّن ما وقع بصدق، وردّ الحق إن وجد، وتب إلى الله، ثم عد إلى قدر ممكن من العمل. وإذا كان ما يعتريك وسواسًا قهريًا أو ضيقًا مستمرًا فاستعن بأهل العلم والاختصاص المناسب؛ هذا الكتيب التدريبي ليس تشخيصًا ولا فتوى علاجية.